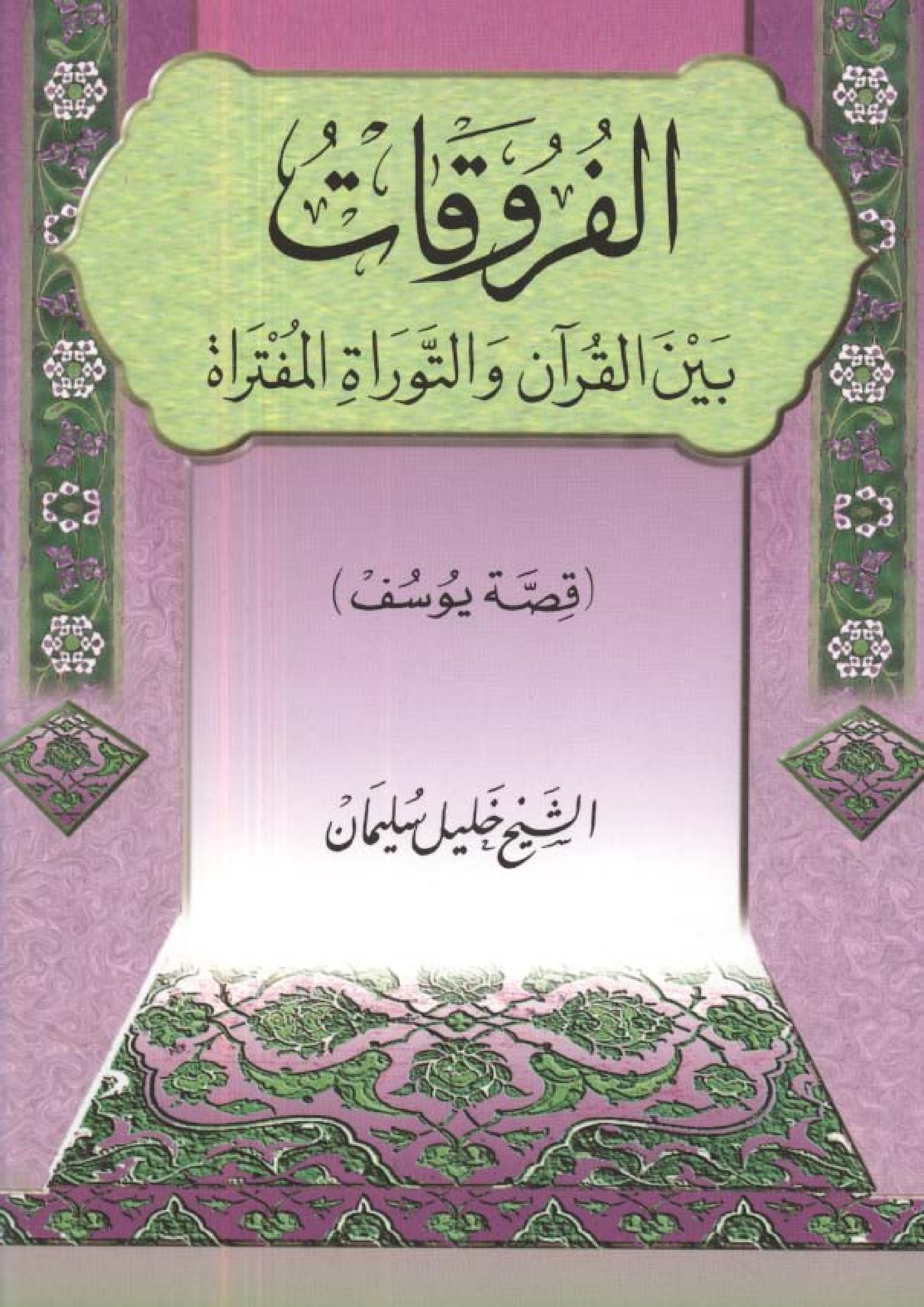
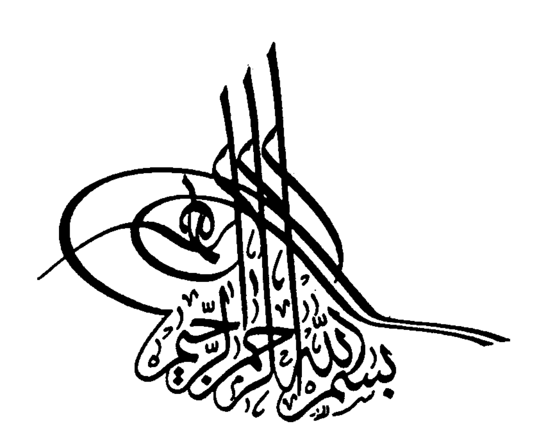


الفروقات
بَيْنَ القُرآن وَالتَّوراةِ المُفْتَرَاة
(قِصَّة يُوسُف)
الشَيخ خَليل سُليمَان
المكتب الاسلامي


الفروقات
بين القرآن والتوراة المفتراة



الفروقات

بين القرآن والتوراة المفتراة

(قصة يوسف)

الشيخ خليل سليمان

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

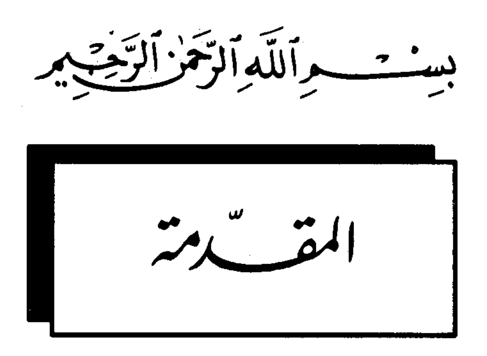
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥



المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً.

أما بعد: فإن سبب الأسباب في تأليف هذا الكتاب «يوسف في القرآن والتوراة» هو إثبات هيمنة القرآن على التوراة بالحجج البالغات والدلائل البينات.

وأعني بالتوراة ما هو اليوم بأيدي اليهود من هذه الأسفار ذات الأخبار التي تزعم يهود أنها التوراة التي جاء بها موسى عليه السلام.

فأقول وأستعين بالحي الذي لا يموت: إنّ كلّا من القرآن وما عند اليهود يأتي من بعض نبأ الأنبياء بأمور هي في عمومها متشابهات، فإذا تمعن فيها من يتمعن وجد بين النبأين فروقاً كثيرة.

فإن كان ذلك المتمعن كافراً من أمثال هؤلاء المستشرقين الجاحدين، فإنه سيكتم الحق ويعلل كل تعليل، وإن كان من الحاقدين

فإنه سيقول: إن محمداً اقتبس تلك الأنباء من التوراة، وقد قال كثير منهم مثل ذلك، فأضلوا كثيراً من الناس بذلك... وأوردوهم طريق المهالك.

أما إن كان المتمعن من أهل التعقل والإنصاف، والشهادة بالحق والاعتراف، فإنه سيرى فيما عند اليهود اليوم من التوراة أخباراً ذات تلفيق.. وسقوطاً في مضيق.. وسيرى في آيات القرآن الحق الحقيق.. والربط الوثيق، والحال التي تليق بذلك الفريق، فريق الأنبياء الشفيق كنوح وإبراهيم وموسى ويوسف الصديق الذي سأبدأ بالحديث عنه في هذا الكتاب.

فإن اعترض علينا معترض منا بقوله تعالى في آخر سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾... وأنَّ فيها تصديقاً لقصة يوسف التي في التوراة فحينئذ نقول لذلك المعترض هذا إن وجد...: ألا قد ساء فهمك وطاش سهمك.. وكثر وهمك.. وقلّ علمك.. فإن تصديق القرآن إنما هو للذي بين يديه من التوراة المشرَّفة، لا للأخبار المحرَّفة، فأين التوراة الصحيحة، وقد قال تعالى وقوله الحق المبين: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقد أخبرنا سبحانه عنهم: أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، وأنهم نسوا حظاً مما ذكروا به. وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فهذه حقيقة القوم الذين يزعمون اليوم أن معهم التوراة التي جاء بها موسى.

وأما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي الكتاب الذي تقدم، لأن ما بين يدي الأشياء هو كل ما تقدم مما مضى وكان... وضد ذلك يسمى: خلفاً كما فصَّل الله ذلك في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فما بين أيديهم ما مضى، وما خلفهم

ما سيأتي.. فقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي هو تصديق لما جاء به المرسَلون، لا لما افتراه المفترون وحرّفه المحرِّفون..

فهذا هو السبب الأساس في إخراج هذا الكتاب للناس. ثم إن من الأسباب التي دعتني إلى هذا التأليف، هو أني وجدت أكثر أناس هذا الزمان في ضلّ وخذلان، وذلك بما غفلوا عن القرآن واتبعوا نواعق الغربان من الفرنسيين والإنكليز والأمريكان الذين لا همّ له إلا تشكيك الناس بالإيمان.

وقد وقع في حبائل تشكيكهم كثير من المسلمين الذين هم في الأساس جهّال بالدين، وإن من هؤلاء من لا يعرف شيئاً من القرآن، وهو وإن كان حفظ في صغره فاتحة الكتاب فما حفظها ليقرأها في الصلوات بل حفظها ليقرأها عن أرواح الأموات وهو والله لا يدري معاني ما فيها من الآيات ولو درى لعلم أنها لم تنزل لتقرأ على أموات القبور، بل نزلت لتحيي موات الصدور ولتخرج... من الظلمات إلى النور. فإذا شبَّ وهو على تلك الحال كان سريع الانجذاب إلى شتى الأقوال، وما هو إلا أن يقرأ لأعداء الإسلام حتى يشك فيه، ويخرج من زمرة بنيه.

فهذه اليوم حال كثير من المحسوبين على هذا الدين الذين هم في حقيقتهم ليسوا بمسلمين. ألا وإنهم ليحسبون أنفسهم مثقفين وما هم بمثقفين. بل هم مُسَقَّفُونَ سُقِفَ على قلوبهم فلا يفقهون وضرب على آذانهم فلا يسمعون.

فلما رأيت حال هؤلاء الذين يُحسبون للإسلام أبناء، وما هم له بأبناء، وإن كان لهم إليه انتماء بالأسماء والآباء، فما هم في الواقع إلا أبناء الأعداء من مستشرقين خبثاء ومبشرين لعناء يبشرون بالبلاء.

فأحببت أن أبين للمؤمنين حقيق خداعهم، وقصور باعهم، وأنْ إنْ هُمْ إلا في نهيق ونعيق، وبُعد عن سواء الطريق. فلما قَرَّ في نفسي

ما ذكرت ركعت فاستخرت.. فكان الجواب.. هذا الكتاب. فالحمد لله العزيز الوهاب.

واعلم أن من أهم مقاصد هذا الكتاب تبيين توافق آيات القرآن بعضها مع بعض وكيف أنها مترابطة ومتوافقة اتفاقاً عجيباً معجزاً تنقاد له العقول.

ألا وإن طريقتي في تأليف هذا الكتاب: أن آتي بالنصوص من كلام الكتابين القرآن العظيم.. وتوراة اليهود.. ثم أقارن بين كل نص وبين ما يشبهه في كل موضع من الأنباء في كلا الكتابين.

ثم أبين إن شاء الله موضع الخلاف الذي يخفى على غير المتمعن بياناً يعلم فيه المسلم تحريف اليهود ويعلم فيه الكافر غلَبَة النص القرآني على النص اليهودي في كل موضع غلاب يكون.

وقد أحتاج في بعض المواضع إلى زيادة تفسير أو تفصيل ألا فما ذلك مني عن شرود أو تطويل، بل ما ذلك إلا لأمور كل منها جليل.. فمنها إظهار الدليل للعليل.. ومنها دحض كاذب الأقاويل فيما نحن فيه من القصة بسبيل.. ومنها تبيان الجزيل من القليل، عسى الله أن ينفع بهذا القيل كل قبيل وما ذلك على الله بمستحيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وأبدأ بالقرآن الجليل.



سُورَة يُوسُف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾.

ابتدأت السورة بـ﴿الٓرۚ﴾ وقد ذكر القرطبي في تفسيرها عن ابن عباس: أن الألف تدل على معنى أنا، واللام تدل على معنى الله، والراء تدل على معنى أرى، فيكون معناها: «أنا الله أرى» فهذا تفسير ابن عباس.

قلت: في هذا التفسير فتح كبير ومدد كثير فإن معنى «أنا الله أرى» يتضمن معنى العلم الحق وهو علم العليم الذي أنزل هذه الآيات، لأن الذي يرى هو الذي يعلم، ولأن الرؤية تتضمن علم الرائي بالمرئي، وحيث لا أحد يرى الأشياء والحوادث ويعلمها كخالقها، إذاً فلن يستطيع أحد أن يبينها إلا هو وها قد بينها سبحانه فقال وهو أصدق القائلين: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾ فابتدأ الكلام بـ﴿تِلْكَ﴾ التي هي هنا مبتدأ وخبرها ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ وتفصيل ذلك أن يقال: آيات خبر والكتاب مضاف إليه والمبين صفة للكتاب وحيث الخبر هو: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إذاً فالمخبر به في هذا الكتاب هو الآيات البينات التي لا بينات سواها. وفي هذا معنى من معاني التحدي المُعجز الذي ينفرد به القرآن دون سائر الكتب. فهو

في هذه الآية: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ وفي أمثالها من الآيات يقول: إن خبري هو الخبر المبين الذي يستحق أن يسمى مبيناً، وهذا يعني أن بيان ما عداه يكون ناقصاً أمام بيانه. وحيث أن الخبر يستلزم مُخْبَراً به، وحيث أنَّ كُلَّ مُخْبَرٍ به في القرآن يتضمن معنى الإعجاز والتحدي إذاً فستقوم الحجة البينة في كل أخبار هذا الكتاب على أن هذا الكتاب وحده هو الكتاب المبين.

والمبين هو الذي يبين حقائق الأمور وفيه معنى الكشف والظهور.



﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾.

أقول والله أعلم: يجوز أن يكون الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ خطاباً عاماً للعرب الذين أنزل بلسانهم ولغيرهم من الأمم.

أما خطابه للعرب فإنه بلسانهم أُنزل. وأما خطابه لغير العرب فإن هذا القرآن العربي هو جوامع الكلم التي إذا تُرجمت معانيها لجميع الأمم كانت معانيها حتى في ترجمتها أبين لكل أمة من بيان لسان كل أمة لنفسها. فإن قيل: فمن أين استنبطت هذا؟ فأقول: إني والحمد لله استنبطت هذا من الفرق بين معنى عربي وأعجمي. ذلك أن معنى عربي هو نفسه معني مبين. فالعربي هو الذي يعرب أي يفصح ويبين. أما الأعجمي فهو الذي لا يفصح ولا يبين. والعرب لعلمها ببيان لسانها أسمت كل أمم الألسنة الأخرى أعاجم. فإن قيل: إن كل أمة ترى في الفرق بين لسانها ولسان غيرها من الأمم مثل ما ترى العرب. فأقول: وإن كانت كل أمة ترى في لسانها بياناً لا تراه في لسان غيرها لعلمها به، ولفهمها إياه. فإنه ما من أمة غير العرب اجترأت فأطلقت على من سواها من الأمم مثل هذه التسمية المهينة «أعاجم» وإنما وصفتها بالمهينة لأن العرب تسمي كل بهيمة عجماء ولأن الأعجم في

لغة العرب هو الأخرس الذي لا يقدر على الكلام. فإن قيل: إن إعجاب العرب ببيان لسانها هو الذي دعاها إلى تسمية سواها بالأعاجم، وإن للعرب في ذلك لحقاً، ولكن ما في تلك التسمية من دليل على صحة معنى ما تقول، فإنك تزعم أن معاني القرآن إذا ترجمت إلى كل لسان كانت أبين لأهل كل لسان من بيان لسانهم لهم. فإذا وصل الكلام إلى مثل هذا فحينئذ أقول: لو أن الأمر وقف عند تسمية العرب غيرها أعاجم لقلت كما قلتم، ولكن هذه التسمية بمعناها الذي تعنيه العرب قد جاء بها وأثبتها القرآن. فقد سمى الله أهل الألسنة الأخرى أعاجم كما في قوله تعالى رداً على دعوى المشركين، قال تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ فأثبت معنى العجمة على الذي تقوله العرب وأثبت البيان لهذا اللسان العربي المبين. ألا ولا يفهمن أحد أني أقول إن القرآن لا يمكن أن يكون معجزاً إلا إذا كان باللسان العربي. كلا ومعاذ الله أن أقول مثل ذلك فلو شاء الله لجعله معجزاً في كل لسان. وهذا متعلق بقدرة الله وما كان متعلقاً بقدرة الله فلا جدال فيه. ولكنني لا أعدو هنا أن أثبت أن تسمية العرب غيرها أعاجم هي تسمية صحيحة جاء بها وأقرها عليها كلام الله. ولو كانت من باطل قول العرب لأنكرها الله عليها في جملة ما أنكره عليها من أباطيل.

وما كان مراد هذا السياق إلا إثبات ما ذهبت إليه من أن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ يجوز أن يكون ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ خطاباً لكل الناس على الترجي منهم أن يعقلوا. وأنه بكونه عربياً فهو أرجى لهم أن يعقلوا كلهم. وذلك على معنى الترجي منهم لا من الله حاشا للّه فالله أعلى وأجلّ.

وإذ شاء الله أن ينزل القرآن عربياً غير أعجمي مع قوله لمن أنزله عليه: ﴿إِلَيْكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ ففي الربط بين معاني هاتين الآيتين شاهد لما قلت مبين. فمحمد ﷺ هو رسول الله إلى الناس أجمعين. وقد علم الله أن في الناس عرباً

وعجماً فأرسله إليهم جميعاً. وإذ لم يك حقيق هذا الإرسال الذي أرسله به إلا رحمة للعالمين.

وإذ شاء الله أن تكون هذه الرحمة بلسان عربي مبين.. وحيث أن الله لا يشاء إلا الحق وهو العليم الحكيم. إذاً فقد حقّ المعنى بالحق أن الأنفع للخلق أجمعين، أن يكون هذا القرآن بلسان عربي مبين، فإذا ربطنا هذا بأن الله لا يرسل الرسل إلا بالبينات والبراهين ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ ثم إذا ربطنا كل ذلك بربط أخير عاصم، وهو أن الله قد جعل القرآن أحسن الكتب، كما قال تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾ علمنا من كل ذلك أن إنزال القرآن بلسان عربي مبين فيه من الآيات والبراهين ما تستوعب الرحمة فيه العالمين وتقوم الحُجة به على الناس أجمعين.

فصل
أسباب نزول سورة يوسف

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ هذه السورة مكية ومن معنى ذلك أنها نزلت في مكان ليس فيه يهود، وكان سبب نزولها سؤال اليهود الذين بعثوا من المدينة يسألون النبي ﷺ على هيئة التحدي عن خبر يوسف فنزلت كلها جملة واحدة. إذ ما كان لليهود في مكة من وجود، بل كان لهم جمع في المدينة، وفي السور المدنية سور وآيات كثيرة نزلت رداً على اليهود لاحتياج النبي ﷺ والمؤمنين إلى نزولها هناك. أما في مكة حيث لا يهود فلم يكن على ما يبدو لعقل الناس الناقص من داع لقبول محمد ﷺ تحدي اليهود ونزول سورة تتحدث في تفصيل عن زمن فاصل من تاريخ بني إسرائيل. وكذلك هي قصة يوسف في توراة اليهود، فهم يختمون ببدئها ما يسمونه سفر التكوين ويبدأون بختمها ما يسمونه سفر الخروج.

فالعقل البشري الناقص يقول: ما شأن محمد ﷺ ببني إسرائيل

وهو في مكة وحيد ما آمن معه من أهل مكة إلا نفر مستضعَفون، وأقوياء مكة به يتربصون، فما شأن هذا الرجل حتي يقص على الناس قصص بني إسرائيل، سيان أكان ذلك جواباً على التحدي كما هو في سورة يوسف أم ابتداء كما هو في سورة النمل أو القصص أو الإسراء أو غيرها في كثير من السور المكية التي تتحدث عن بني إسرائيل. وقد علم محمد ﷺ كما علم كل عالم أنه ليسْ في مكة من بني إسرائيل أحد، وعلموا أنه ليس لبني إسرائيل في زمن محمد ﷺ ملك ولا سلطان، بل علم الناس أجمعون أنه لم يكن لليهود بلد واحد فيه يجتمعون، ولا أرض بها يتوحدون، بل هم أمم في الأرض مقطّعون، كل أمة منهم في قطر عن سواها بعيد. ويتابع العقل الناقص فيقول: لماذا لم يتحدث محمد ﷺ عن الفُرس وهم أعظم الأمم في عصره ولهم المُلك ظاهرين في الأرض في زمانه ولهم تاريخ طويل... بل لماذا لم يتحدث محمد ﷺ عن أمجاد قومه العرب وهم أُلُ البأس والنجدة والسخاء.. فهلا كان تألف قومه بتحديثهم عن أمجاد آبائهم، ولو فعل لكانوا له طائعين. ولكن كلا أيها العقل الناقص فليس محمد ﷺ داعياً أممياً ولا قومياً، بل هو داعي رب الأمم والأقوام، ويا أيها العقل الناقص ليس الأمر من عند محمد ﷺ بل هو من عند علّام الغيوب رب محمد الذي أنزل عليه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾:

كـلّا أخـا عَـقْـلٍ نَـقَـصْ … مـا الـعَـقْـلُ إلا فـي خَـبَـصْ
مـا الـعَـقْـلُ فـي أَبْـعَـادِهِ … إلّا كـعـصـفـور الـقَـفَـصْ
مِـنْ نَـفْـسِـهِ مـحـمـدٌ … لـم يَـأْتِ مِـنْ وَحْـيٍ بِـنَـصْ
الأمـرُ مـن عـنـد الـذي … يَـقُـصُّ أَحْـسَـنَ الـقَـصَـصْ
مَـنْ لا إلـه غـيـرهُ … مَـنْ جَـلَّ عَـنْ وَصْـفِ نَـقَـصْ
فـهـو الـذي أوحـى الـهـدى … وهـو الـذي أعـطـى وَخَـصْ
وهـو الـذي آتـى الـنـبـيَّ … الـمـصـطـفـى خَـيْـرَ الـحِـصَـصْ

فَـمُـتْ عَـدُوَّ الـمـصـطـفـى بـالـغـيـظِ واغْـصُـصْ بِـالـغَـصَـصْ

فصل
ضمير العظمة في القرآن

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾.

انظر إلى ضمير العظمة ﴿نَحْنُ﴾ في ابتداء هذه الآية تستشعر عظمة قائلها وتعلم أن الذي يبتدىء القول بهذه العظمة من غير أن يذكر اسمه هو العظيم الذي لا عظيم سواه، فقد محقت ﴿نَحْنُ﴾ هنا عظمة العظماء فصاروا أمامها كالهباء فلا يستطيع واحد فرد أن يقول: «نحن نقص» «نحن نزلنا» «نحن أعلم» من غير أن يذكر اسماً من أسمائه أو صفة من صفاته إلا العظيم الحق الذي تقررت عظمته في القلوب فهو يخاطبها بضمير العظمة لعلمه بما استقر فيها من العلم بعظمة ذاته.

ألا ترى إلى فرعون وهو أطغى الطاغين ورأس المستكبرين ومع ذلك لما أراد أن يستعمل ضمير العظمة عجز عن التعاظم بنفسه فتعاظم بمن معه من جنده وقومه كما في قوله تعالى عنه: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ فانظر إلى حمق فرعون وإلى تناقضه في دعواه فإنه بعد أن ادعى الربوبية أرسل يستنصر بالجنود مع قوله عن موسى ومن معه: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ ثم هاهو لما تعاظم بمن معه لم يستطع أن يثبت لنفسه ولجمعه إلا عكس صفات الربوبية التي ادعاها. فأثبت له ولهم صفة الغيظ الذي لا يكون إلا في المخلوق الضعيف العاجز وأثبت صفة الحذر الذي لا يكون إلا من المخلوق الضعيف المتخوف. فدع فرعون ومَن معه في غيظهم لا خرجوا منه.. وعد إلى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ ثم ارجع إليها النظر تجد فيها أمراً عظيماً وهو أن الرب يقص على العبد.. مما يشعر العبد ببرد السكينة من الثقة والطمأنينة فيخبت لذلك قلبه على عكس قص

الخلق على الخلق. فإن قصص الخلق لا تخلو من غلو يثير الشك في نفوس السامعين، وإذا ثار الشك تشوش الفكر وإذا تشوش الفكر انعكس المراد من القصة، فإن القصة إنما جُعلت لتحدث في النفس عبرة التفكر كما قال تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فالقصة مادة الفكر والفكر قرين الذكر كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ فهم يذكرون ثم يتفكرون ثم يشهدون ثم يسبحون ثم يسألون.

فصل
أثر القصة في النفوس

ألا وإن للقصة أثراً في تربية النفوس.. وما أكثر صفات الناس إلا انعكاسات لما سمعوه أو عاينوه أو عاشوه من القصص. ومن راجع تاريخ نشأته ومراحل حياته علم ذلك. بل لماذا على المراحل نحيل وعندنا الدليل من حديث رسول الجليل وهو قوله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه**» فبماذا يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه؟ هل يفعلان به ذلك بتحفيظه ما عندهم بزعمهم من التوراة والإنجيل ومجوسي الأقاويل..؟ كلا فأكثر اليهود والنصارى والمجوس لا يعرفون شيئاً عن شرائع كتبهم فضلًا عن أن يكونوا لها حافظين. بل ما يغرس الأبوان الكافران في ابنهما غرس الكفر إلا بما يقصان عليه من عجائب القصص الصحيح منها والمكذوب عن الأسلاف الذين يدّعون الانتساب إليهم من النبيين والمرسَلين، أو ممن يسمونهم بالصالحين أو القدّيسين، والشاهد لذلك كله هو في أن نتدبر شيئاً من معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ فهم ما اتخذوهم أنداداً إلا لما ظنوا بهم من قدرة وفعل وتصريف.. وما ظنوا بهم مثل ذلك إلا بما سمعوا عنهم من قصص اختُلقت لهم وافتُري بها

عليهم فتعلّقوا بهم تعلق تأليه. فانظر إلى أثر القصة المفتراة في نفس هذا المغرور الإنسان. فإذا فقهت ذلك فارجع النظر كرة أخرى إلى قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ فقد سمى الله ما يقص على رسوله أحسن القصص، والقصص في اللغة هو الخبر المقصوص الذي يتبع بعضه بعضاً، ومنه تقصص الخبر إذا تتبعه، فالقَاصُّ هو الذي يأتي بالقصة على وجهها الصحيح.. تتوافق فيها ألفاظها ومعانيها وتترابط فيها أحداثها، وكذلك هي قصة يوسف وكل قصة قصَّها أو قَصَص قَصَّه الله علينا في القرآن. فهذا هو معنى القَصَص في لغة العرب.

ولو أننا أحضرنا كل قصّاصي الأمم فعرضنا عليهم هذا المعنى من مفهوم القصة في لغة العرب التي جاء بها القرآن لأقروا جميعاً أن هذا هو الأساس الذي يقوم عليه بناء القصة وأن لا قصة مكتملة إلا به.

وهم يسمون مثل هذا حبكاً، فيقولون: حبك فلان قصته حبكاً جيداً. أو يقولون: إن قصة فلان جيدة الحبك، أو هي محبوكة. فإذا قلنا لهؤلاء جميعاً: ألا فليُحضر كل منكم أحسن ما عنده وليُرِنا كُلٌّ قصَّهُ وحبكه.. ونظمه وسبكه، فأحضروه لنا فوضعناه أمام سورة يوسف ثم تلوناها عليه، فعند ذلك سيتلاشى كل ما قصَّه القصّاصون وحبكه الحابكون كما تتلاشى قطرة ماء في أمواج بحرٍ خضم.

فهذا نوع من أنواع إعجاز القرآن الذي لم ينتبه إليه إنسان حتى الآن.

فصل
معنى قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾

وهو في هذه الكلمة: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ ذلك أن أهل التفسير يقولون: سُميت هذه السورة أحسن القصص لما فيها من العِبَر والحِكَم ولاشتمالها على أصناف الخلق ولإحاطتها بأنواع التدبير والسياسة

ولحسن مآل من ذكروا فيها.. قلت: كل ما ذكروه حق وهم فيه صادقون مصيبون موفَّقون، ولكن لم يذكر أحد منهم إعجاز حبك هذا النظم العجيب المعجز الذي جاء بكل هذه الأخبار التي استوعبت امتداد الزمان وتغير المكان وصراع الإنسان على كل الجبهات النفسية والغريزية والمعيشية وكذلك هي قصة يوسف لمن تدبر، وقد جاء كل ذلك في صفحات معدودات ذات سياق منتظم مترابط حُبك حبكاً يعجز عن مثله الإنس والجن والخلق أجمعون. وحتى ترى الفرق في الحبك بين القرآن وتوراة اليهود فسأبدأ بذكر ما جاء في توراتهم من قصة يوسف وسأذكره لك بحرفه وكذلك إن شاء الله أفعل في نقل كل النصوص حتى يستبين لأولي الأبصار فرقان ما بين الذهب والغبار.

فصل
الإفك الظاهر في توراة اليهود

تقول التوراة التي في أيدي اليهود في الإصحاح السابع والثلاثين مما يسمونه سفر التكوين وهو بدء قصة يوسف عندهم: «وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان، هذه مواليد يعقوب يوسف إذ كان ابن سبع عشرة سنة كان يرعى مع إخوته الغنم وهو غلام عند بني بلهة وبني زلفة امرأتي أبيه. وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم وأما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته، فصنع له قميصاً ملوناً، فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام» فيا أيها القارىء، من أي ملة كنت، افتح خزانة قلبك إن كان فيه خزانة، واستحضر منه ميزان إنصاف إن كان فيه ميزان، ثم زِنْ إن كنت وزَّاناً هذه الكلمات. هل ترى فيها حبكاً أو سبكاً أم ترى خللًا وإفكاً.. وهل يحق لهذا الأسلوب أن ينسب إلى علّام الغيوب أم الأحق له أن ينسب إلى غبي مجذوب أو مؤلف كذوب. ولست الآن في شيء من الرد على المعاني وسأرد عليها قريباً إن شاء الله، كذلك لا أريد أن

أبين هنا نقصان البلاغة فإن هذا لا يحتاج إلى بيان. ولكن ما أريد هنا إلا أن أبين خلل الحبك وعتمة الأسلوب.

ألا ولا يقولن قائل إن الترجمة تذهب بجودة الحبك ورونق الأسلوب كلا فإننا قد قرأنا كثيراً مما ترجم من أدب الأعاجم فوجدنا في كثير منه حبكاً أمتن من هذا الحبك، وأسلوباً أمثل من هذا الأسلوب. ألا ترى إلى نظم هذا النص كيف يخبط خبط عشواء، فهو ما يلحق أن يقول في أوله وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان حتى ينتقل تواً ليقول هذه مواليد يعقوب ثم لم يذكر من مواليد يعقوب إلا يوسف وأنت إذا تلوت الإصحاح كله لتبحث عن وعده لك بذكر مواليد يعقوب فلن تجد وفاء هذا الوعد. فكيف إذاً يكون هذا الكلام كلام الله الذي قوله الحق ووعده الحق. تالله إنه ليتنزه عن مثل هذا من فيه مسكة من عقل من عباد الله فكيف أن ينسب هذا إلى الله حاشا للّه وتعالى الله.

ثم انظر إلى عدم التناسب في قوله: «هذه مواليد يعقوب يوسف إذ كان ابن سبع عشرة سنة» فما المناسبة بين عدة أولاد يعقوب الذين لم يذكروا وبين ذكر عمر يوسف الذي كان على صاحب السياق أن يجعل اسمه منتظماً في عقد إخوته حتى يستقيم له نظم الكلام. ثم انظر إلى التكرار الذي يوحي إلينا أن واضع النص كان في شك من بيانه، فهو يكرر فيه كأنما ليقنع نفسه أن قد أبلغ المعنى وذلك في قوله: «إذ كان ابن سبع عشرة سنة كان يرعى مع إخوته الغنم وهو غلام عند بني بلهة وبني زلفة امرأتَي أبيه».

فقوله: «ابن سبع عشرة سنة» كرر معناه في قوله: «وهو غلام».

وقوله: «يرعى مع إخوته الغنم» كرر معناه في قوله: «عند بني بلهة وبني زلفة».

وقوله: «بلهة وزلفة» كرر معناه في قوله: «امرأتي أبيه».

فإن قيل إنما قال عند بني بلهة وبني زلفة لأن له إخوة من سواهما فحينئذ سيكون قوله الأول: «مع إخوته» لغواً من القول.. وقد

علم كل ذي عقل أن كلام الله أعلى وأجلّ. ثم هو بعد ذلك يتبع فيقول: «وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيه» فأين الوصل اللازم الذي يجب أن يكون بين هاتين الجملتين في مثل هذا الموضع. ثم أين حكاية هذه النميمة التي ذكرت هكذا فجأة من غير ابتداء ولا إخبار ولا تفسير ولا تعقيب، ثم قفز صاحب النص من بعد النميمة قفزة البهلوان ليقول: «وأما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته».

وسأبين إن شاء الله باطل هذا التعليل بعد قليل، وإنما العجب العجاب كيف استطاع المحرف الوثّاب أن يقفز بين هذين النصين من الكتاب اللذين كلٌّ منهما في مرآب.. وما بين المرآبين كما بين بغداد وسنجاب. ثم انظر إلى هذا التكرير المخل الذي يشبه تكرير المعاقين من الأطفال وذلك في قوله: «فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته» وستجد مثل هذا الأسلوب وأضعف منه في التوراة اليهودية كلها وما هذا إلا جزء يسير من ضل كثير مما تزعم يهود أنها التوراة التي أنزل الله على موسى. ولا والله ما هذه التوراة التي أنزل الله على موسى، فقد أخبرنا الله في القرآن أنه جعل في التوراة هدى ونوراً كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ فقد حرفتها يهود، فعلى يهود ما تستحق من غضب الله، وأما موسى فعليه سلام الله إلى الأبد.

فإذا رجعنا إلى معاني هذا النص وتجاوزنا عن بعضٍ منه بقص.. أبى بعض منه غص.. إلا أن يعتلق بشص. وما هذا الذي منه اعتلق إلا سُخْفٌ من إفك مختلق وهو زعم المفتري في أكذوبته: «أنّ يعقوبَ أحب يوسف أكثر من إخوته.. لأنه ابن شيخوخته». فجاء بتعليل عليل يجل عنه كلام الجليل.. فقد علم جميع العالمِين أن ابن شيخوخة يعقوب الأمين ما كان يوسف بل بنيامين. وكانت أمهما راحيل قد ماتت من قبل هذا بسنين. كما هو عندهم في الإصحاح الخامس والثلاثين.

فصل
زيادة بيان معنى قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾

ونعود إلى الآية: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ قال أكثر أهل العلم: إن الله قد خص هذه السورة بهذه التسمية: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ قلت: وقد قال بعضهم إن المراد بقوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ الكلام الذي هو أحسن القصص وهو عام في كل ما قصّه الله، لم يخص به سورة يوسف ولهذا قال: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ ولم يقل بما أوحينا إليك هذه السورة.

قلت: إن كل ما في القرآن يسمى قرآناً من باب تسمية بعض الشيء بكله، وتشهد لهذا آيات منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ ومعلوم أن الذي ينزل من القرآن في كل حين هو بعض القرآن وليس كله وقد قال تعالى حين ينزل القرآن فجاء به بالألف واللام. ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ومعلوم أن الذي نهي أن يعجل به والذي يقضى إليه وحيه لا يكون القرآن كله جملة واحدة وقد أسماه الله القرآن بالألف واللام. ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ ومعلوم أن الذي اتخذوه مهجوراً ليس القرآن كله، فقد نزل بعد ذلك قرآن كثير وقد أسمى الله الذي اتخذوه مهجوراً القرآن بالألف واللام. ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ومعلوم أن الذي استمعوه لم يكن كل القرآن وقد أسماه الله القرآن بالألف واللام. فهذه شواهد من القرآن على أن بعض القرآن يسمى القرآن. وأما قول القائل إن قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ هو عام في كل ما قصّه الله لم يخص به سورة يوسف.

فقد علم أن الله لا يقول إلا الحق وأنه هو العليم الحكيم، والحكيم هو الذي لا يضع الأمور إلا في مواضعها، وقد قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ ولم يسمّ الحكيم العليم ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ إلا هذه السورة.

ثم قال: إن أولي العزم من الرسل وكثيراً من الأنبياء هم أفضل من يوسف وإن قصصهم أعظم من قصة يوسف.

وهنا يقال: لا ريب أن أولي العزم من الرسل هم أفضل من يوسف وأن قصصهم أعظم، ولا ريب أن في القرآن سوراً أعظم من سورة يوسف.

ولكن سورة يوسف هي أحسن القصص باعتبار امتداد نظمها، وترابط أجزائها، وتتابع أحداثها، واتصال أولها بآخرها، والقرآن كله كذلك ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ باعتبار ما فسره القائل من فضل أولي العزم، وأيضاً على كل اعتبار، ولكن أحسن القصص الأحسن هي السورة التي سماها الله القصص الأحسن. وانظر في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ فإن المعنى فيه متوجه، فهو كان من الغافلين عن كل القرآن قبل أن يوحى إليه، كما كان غافلًا عن سورة يوسف قبل أن توحى إليه، وإذاً فقوله تعالى: ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ فيه عموم وخصوص.

فصل
من كنوز معنى قوله تعالى:
﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾

فعد وانظر إلى الإعجاز في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ انظر إلى «إن» فإنها هنا مخففة من الثقيلة والمعنى كأنه يقول: لا ثقل عليك يا محمد فيما كنت فيه من الغفلة من قبل أن نوحي إليك هذا القرآن. والعربي يعلم ويفهم بفطرته معنى كل حرف من لسانه. والنبي ﷺ سيد من علم وفهم من الناس أجمعين. فانظر إلى

لطف الخطاب في تفهيم النبي ﷺ ما كان فيه قبل الوحي، ثم تعلّم منه كيف تخاطب الخلق. ثم أعِد النظر في قوله تعالى: ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ واخرج منه بكنز من كنوز السلوك وهو أن تتعلم أن لا تستكبر على الحق إذا جاءك. . أن تقول إني وإني كلا لا إنَّ لك فدع عنك إني في ذلك المقام واذكر أن سيد الخلق قبل أن يجيئه الوحي كان من الغافلين. ثم عد إلى الآية مرة أخرى واخرج منها بكنز من دلائل النبوة وهو أن الإنسان لا يقدر أن يخاطب نفسه بمثل هذا القول، ولا يقدر أن يتلو من نفسه مثل هذا على الناس. فقل للشاكّين بنبوة محمد ﷺ: «ألا إن القرآن لا يمكن أن يكون من تأليف محمد لموانع كثيرة هذا منها، فإنه لو استطاع إنسان أن يؤلف مثل القرآن ـ وانتبه إلى لو فإنها للامتناع ـ فإن ذلك الإنسان لن يدّعي عند ذلك النبوة بل سوف يدّعي دعوى الألوهية. لأنه لا يقدر أن يقول مثل هذا الكلام إنسان. ألا ترى إلى قوله تعالى في أول الآية: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ وقد ذكرت لك هناك شيئاً من إعجاز الابتداء بـ﴿نَحْنُ﴾ فالذي يستطيع أن يقول بهذه العظمة ﴿نَحْنُ﴾ في بدء سياق كهذا هو الرب الذي ستظهر عظمة ربوبيته في سياق قوله وهو يقول: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ فلو كان محمد ﷺ ابتدأ من ذات نفسه فاستطاع أن يقول بهذه العظمة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ لما قال عقبه: ﴿عَلَيْكَ﴾ يعني نفسه، فيكون قد خرج من عظمة الربوبية إلى حال العبودية من غير فصل ولا سبب. ومن كان هذا حاله لو كان فإنه سيأتي بعد ذلك بكلام مضطرب ولن يستطيع أن يكمل فيقول: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

فصل
عصمة الأنبياء من التحدث إلى أنفسهم

وانظر الفرق بين عز الربوبية وفقر العبودية بين أول الآية: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ وآخرها: ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ لتعلم أن الذي يَقص هو الرب

والذي يُقص عليه هو العبد. وإنما قلت: لو كان الأمر من عند البشر لكان خروج القائل من ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ إلى ﴿عَلَيْكَ﴾ سيعقب كلاماً مضطرباً لأن ذلك لو كان فلن يكون إلا من متوهم مريض يتحدث إلى نفسه وقد نزّه الله الأنبياء عن مثل ذلك. فالأنبياء لا يتحدثون مع أنفسهم. فعل الضعفاء من الناس. وبيان هذا أننا إذا تدبّرنا القرآن وما قصّه الله علينا من أقوال الأنبياء فيه فلن نجدْ في أقوال الأنبياء قولًا يتحدث أحدهم فيه إلى نفسه.

فما في أقوالهم إلا دعاء الله وذكره بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم في أقوالهم دعوة عباد الله إلى الله، وذلك على جميع أحوالهم، من وعظ أو مناظرة، أو بشارة أو إنذار، أو أمر أو نهي، أو تعليم أو تدبير. فإن قيل: إن موسى لما توجه تلقاء مدين: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قلت: قد قيل إن موسى لم يكن وقتذاك نبياً ومع ذلك فإن قوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ يتضمن معنى الدعاء والمناجاة. وكذلك إن قيل: إن موسى لما قتل المصري ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ فيقال كما قيل في الأول: إنه لم يكن صار نبياً بعد.. ومع ذلك فلا حجة فيه على أنه كان يتحدث مع نفسه إذ لم يكن هنالك وحده، بل كان معه ذلك الرجل الإسرائيلي الذي كان قد استغاثه فكان السبب في قتله للمصري. وإن قيل فما أنت قائل في قوله تعالى عن يعقوب: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ فحينئذ أقول: اقرؤوا ما بعدها تعلموا أنه ما كان يتحدث إلى نفسه، بل كان يشكو بثه وحزنه إلى الله. وإنما ذكرت هذه الآيات الثلاث لأنها محل أن يظن بها المُعترض علي حُجة فيما بينته من خصوص أحوال الأنبياء في أنهم لا يتحدثون إلى أنفسهم. أما غير الأنبياء فلا يخلو أحد منهم من التحدث إلى نفسه قلّ مثل ذلك منه أو كثر كل على قدره. مثال ذلك في الرجال من قال تعالى فيه: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ

﴿هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ﴾ ومثاله في النساء قول مريم: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ فهذان رجل وامرأة من خيار المؤمنين وقد تحدث كلاهما إلى نفسه بنص القرآن. أما الأنبياء فحاشاهم من ذلك، ومن راجع سنّة النبي ﷺ وفيها من الأحاديث الصحيحة عشرات الألوف، ومع عظيم عدتها فلن يجد فيها حديثاً واحداً يدل على أن النبي ﷺ كان يتحدث إلى نفسه. ولكنه سيجد في أخبار كبار الصحابة شيئاً من ذلك قليلًا كما في أخبار أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم.

وهؤلاء الأربعة الذين ذكرت هم خير الناس بعد الأنبياء. ويتقارب كثير من الصحابة في الفضل مع هؤلاء الأربعة كما يتباعد كثير من الصحابة عنهم في الفضل. ومع ذلك فإن أدنى الصحابة يزيد فضله ومقامه على أعظم التابعين زيداً عظيماً. هذا على التابعين أما علينا نحن اليوم فنحن أمام الصحابة لا نبين. ولو قلت إن الفرق بين أدنى الصحابة وبين المسلمين اليوم أجمعين كالفرق بين الجبل والذرة لم أبعد فأولئك كانوا أعمدة الإسلام وما نحن أهل هذه الأيام بالنسبة إلى أولئك الأعلام إلا وَهْم أوهام ومضغ طعام. ولكن أولئك على عظيم قدرهم كانوا في نقص كبير عن مقام الأنبياء.



فصل
كمال الأنبياء

وإنما يعرف فضل الأنبياء بأمور كثيرة منها كمال صفات الخير فيهم، ومنها استكمال السكينة التي تنافي التحدث إلى النفس. وهذا أمر يعرفه جميع الناس حتى الجهّال منهم، ألا ترى أنهم يلتمسون الأعذار لشذوذ عظمائهم فيسمونه شرود العبقرية. فهم بهذه التسمية لا يمدحونهم بل هم يعتذرون عنهم بدعوى العبقرية، إذ لو كان ما يدّعونه من شرود العبقرية مدحاً للعباقرة لكان الأحسن للعباقرة أن

يظلوا شاردين ولو ظلوا شاردين لم يكونوا إلا مجانين. فمن هاهنا نعلم أن التحدث إلى النفس صفة نقص وأنه كلما قلّ تحدُّث الإنسان إلى نفسه كلما ازداد قرباً من مقام الكمال.

وهذا أمر مقرر في فطر الناس ألا ترى إلى الملوك والرؤساء والآباء كيف لا يبعثون في المهمات ذات الأعباء إلا من غلب عليهم الصفاء من الأتباع والأبناء.

فصل
من براهين النبوة

وخلاصة المعنى أن يقال إن الناس مجمعون على أن الكمال في الانتباه والوقار وأن النقص في الشرود والاضطراب. وإذ هم أجمعوا على ذلك فيقال لهم جميعاً: أرأيتكم لو كنتم في خلاء من الأرض ليس أمامه إلا ربوة عليها كهف مطل.. ثم قام رجل منكم تعلمون من شأنه أنه كان أصدقكم وأعقلكم وأوقركم فدنا من ذلك الكهف فسمعتموه يتحدث فخلتم أنه قد جن إذ بدا لكم أنه يتحدث مع نفسه، فقلتم له: ما بالك أيها الرجل هل أصابك مس فأنت تتحدث مع نفسك، فقال لكم وهو لا يزال كعهدكم به وقوراً واثقاً: كلا ما بي من مس ولكني أرى هاهنا في الكهف شخصاً لا ترونه فهو يحدثني ويقول لي: إنه رسول الملك إليّ يأمرني أن أبني لكم في هذا الخلاء بناء تستظلون فيه. فقلتم ونظرتم حواليكم: لا نجد هاهنا حجارة تبني بها بناء فما هاهنا إلا رمال الصحراء. فقال لكم: فإن الملك قد بعث إلي بكلام أقدر أن أحول به كل ذرة من هذه الرمال حجراً عظيماً أبني به موضعاً من هذا البناء الذي سأبنيه. ثم أخذ ذلك الرجل يتكلم على الرمال بذلك الكلام الذي كان يتلقاه من جوف الكهف.. وكان كلما تكلم على حفنة من الذرات استحالت لتوها حجارة عظيمة واتخذ كل حجر منها موضعاً مناسباً.. حجر

جنب حجر وحجر فوق حجر حتى ارتفع منها بناء عظيم مكتمل بلغ آفاق السماء.

فما أنتم بعد ذلك قائلون؟ هل ستبقون تقولون إن ذلك الرجل كان يتحدث إلى نفسه أم تقولون إن نتيجة العمل تؤكد صدق الرجل.. وتقولون حقاً كان ذلك الرجل لا يتحدث إلى نفسه لأن الذين يتحدثون إلى أنفسهم لا يبنون إلا الأوهام. ألا فذلك مثل من إعجاز القرآن الذي جاء به النبي الأمي المبارك سيد الخلق صلوات الله عليه وسلامه إلى الأبد فإنه قد بنى به أعظم بناء إيماني في هذا العالم. فلو كان القرآن من تأليف محمد ﷺ أو من تحدثه إلى نفسه لما استطاع أن يبني من أبناء الصحراء الذين كانوا في عين الأمم أقل من رمل الصحراء. هذه الأمة التي أخرج الله بها الأمم من الظلمات إلى النور. فما من أمة من أمم الأرض إلا ودخل منها في الإسلام من كل عرق وجنس ولون ولسان. فهذا وحده نوع من أنواع إعجاز القرآن يشهد للذي جاء به أنه كان لا يتحدث به إلى نفسه ولا تحدثه به نفسه بل كان حديثاً إليه من الله الذي اختاره من بين خلقه فأنزل عليه أحسن الحديث. فالحمد لله على ذلك حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ملء السموات والأرض ثم الحمد لله مثل ذلك. أبداً على كل حال.

فصل
قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ الآية وما بعدها

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

فهذا نص القرآن المبين. وأما نص التوراة المشابه لهذا النص في سياق الحوادث فهو قوله وما زلنا في الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين: «وحلم يوسف حلماً وأخبر إخوته فازدادوا أيضاً بغضاً له فقال لهم: اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت، فها نحن حازمون حزماً في الحقل، وإذا حزمتي قامت وانتصبت، فاحتاطت حُزَمُكُمْ وسجدت لحزمتي، فقال له إخوته: ألعلك تملك علينا ملكاً، أم تتسلط علينا تسلطاً وازدادوا أيضاً بغضاً له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه، ثم حلم أيضاً حلماً آخر وقصّه على إخوته، فقال: إني قد حلمت حلماً أيضاً، وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي وقصّه على أبيه وعلى إخوته، فانتهره أبوه وقال له: ما هذا الحلم الذي حلمت، هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض؟ فحسده إخوته وأما أبوه فحفظ الأمر».

قلت: لم يقص الله علينا في القرآن حلم الحزم ولا ندري هل هو حق أم هو من بعض افترائهم وقد أمرنا نبينا ﷺ أمراً نحن إن شاء الله به ملتزمون، وهو قوله ﷺ: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم فإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه وإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه**» والمعنى: إذا حدثونا بشيء ليس عندنا منه خبر كهذا الحديث حديث رؤيا الحزم، أما إذا حدثونا بشيء عندنا فيه خبر من الله والرسول فعند ذلك ما وافق ما عندنا صدقناهم فيه، وما خالف ما عندنا كذبناهم فيه. فهذا معنى الحديث. ليس معناه أن نتركهم يكذبون ويفترون ويشككون أبناء المسلمين بالإسلام. كلا فإن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه القرآن هدى للناس أجمعين وفي هذا القرآن تبيان لأهم ما اختلف فيه الناس ومنهم بنو إسرائيل، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ فقد بينت هذه الآية أنهم في اختلاف وأن بيان الذي اختلفوا فيه هو في قص القرآن وفي قوله تعالى: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ولم يقل كل الذي هم فيه يختلفون. ففي هذا بيان لأولي الألباب أن بني إسرائيل

يختلفون في أشياء تافهة لا قيمة لها، لذلك لم يأتِ بها تنزيل. قلت: وقد يكون حديث رؤيا الحزم حقاً، وأستنبط لذلك من قول يعقوب ليوسف في القرآن: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ فقد يكون عرف من أمر يوسف أنه رأى رؤيا الحزم، وأنه قصّها على إخوته، وأنهم حسدوه فلما جاءه وقصّ عليه الرؤيا الثانية نهاه أن يقصها على إخوته تحذيراً له من كيدهم. وذلك لأن الأنبياء لا يحرشون بين الناس ولا يثيرون فيهم مكامن العداوة، فضلًا عن أن يفعلوا ذلك بين أبنائهم. فيبدو والله أعلم أن يوسف قد كان رأى رؤيا سابقة، إما هذه الحزم أو سواها فقصّها على إخوته فحسدوه، فعرف أبوه فحذّره. وكذلك الأنبياء يسدون أبواب الشر.

وهنا تتجلى عظمة القرآن، وانتظام قصصه، ووفاء وعده لنا، أنه يقص علينا القصص الأحسن، إذ لم يذكر لنا رؤيا الحزم بل ذكر لنا الرؤيا الأحسن في سورة القصص الأحسن.

وأيُّ شيء هي رؤيا الحزم التي سجدت لحزمة يوسف أمام رؤيا سجود الكواكب والشمس والقمر له.

فهذا الخبر خبر رؤيا الحزم لا نكذبهم فيه لما استنبطنا من احتمال أن يكون خبراً حقاً غير مكذوب. ويبقى في حديث الحزم نص لا نصدقهم ولا نكذبهم فيه.. وهو زعمهم أن إخوة يوسف قالوا له بعد أن قصّ عليهم رؤياه: «ألعلك تملك علينا ملكاً أم تتسلط علينا تسلطاً» فهذا قد يكون حقاً وقد يكون باطلًا.. ونستنبط لذلك من قوله تعالى ليوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾.. فقوله تعالى: ﴿يَجۡتَبِيكَ﴾ أي يصطفيك ويختارك، فيوسف هو المصطفى المختار من أولاد يعقوب، بعلم تأويل الأحاديث، وبإتمام النعمة التي معناها هنا النبوة لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ فقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ وإن كان كلاماً مستأنفاً بعد ﴿يَجۡتَبِيكَ﴾ فهو في أصله متعلق بسبب هو هذا

الاجتباء، وهذا الاجتباء إنما حصل له من بين إخوته أولاد يعقوب، إذ كان يعقوب وأولاده خير أهل زمانهم. فمن هنا أقول: إن زعمهم أن إخوة يوسف قالوا له رداً على رؤياه الأولى: «ألعلك تملك علينا ملكاً أم تتسلط علينا تسلطاً» يوحي بأنهم كانوا على شيء من العلم بتأويل الرؤيا، ومع أن هذا لا ينافي معنى الاجتباء الذي اختص به يوسف، فإننا لا نصدقهم ولا نكذبهم فيه. وأما الذي نكذّبهم فيه فهو قولهم إن يوسف قد قصّ حلمه الثاني على إخوته.. وانظر إلى تناقضهم واضطرابهم فيه. فقد قالوا بدءاً إنه قصّه على إخوته، ثم رجعوا فقالوا: وقصه على أبيه وإخوته. ونحن نعلم من قول الله تعالى وهو الحق المبين أن يعقوب قال لابنه بعد أن قصّ عليه رؤياه: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ ولم يقص الله علينا أن يوسف خالف أمر أبيه. وقد بيّن له أبوه أنه إن قصّ رؤياه على إخوته فسيكون ذلك سبباً لأن يكيدوا له، فالفاء في قوله: ﴿فَيَكِيدُواْ﴾ هي فاء السبب، ثم بيّن له أن هذا الكيد الذي سيكيدونه به إنما هو من عمل الشيطان ذي العداوة المبينة للإنسان، فهو يسعى بتهييج العداوة بين بني آدم. فحاشا ليوسف بعد ذلك أن يكون عوناً للشيطان، كيف وقد قال له ربه بعد ذلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ فالذي يجتبيه الله يهيؤه بالإحسان لا بالعصيان والعدوان، كما يوحي النص اليهودي الذي يريد أن يفهمنا أن يوسف كان يحب أن يغيظ إخوته بأحلامه وبكلامه كما في قوله: «وازدادوا أيضاً بغضاً له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه» فنقول: كلا قد علمنا من خبر القرآن غير هذا وفيما علمنا فرق بيّن.

فصل
افتراء النص اليهودي على يوسف

فإن قيل: فما الحكمة إذاً في ذكر تحذير يعقوب لولده من قَص رؤياه؟ قلت: من حكمتها أن نعلم أنه مع التحذير وقع التقدير. وأما سبب كيد إخوة يوسف له فهو حب أبيه له كما في قولهم: ﴿لَيُوسُفُ

وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ ومن تدبر هذا النص اليهودي كله وجد فيه افتراءات على يوسف منها:

ما يقوله النص إياه من أسلوب خطاب لإخوته فيه استهجان لهم كما في قص الرؤيا الأولى. وحاشا أن يكون ذلك أسلوب يوسف الذي قال الله له بعد الرؤيا: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾.

ومنها: افتراؤهم عليه أنه قصّ الرؤيا الثانية على إخوته مرتين مرة كانوا فيها منفردين من أبيهم ومرة أخرى كانوا فيها معه مجتمعين. فإنهم بهذا ليصورون يوسف على صورة فتى مؤذٍ مستعلٍ فخور، إذ أيُّ شيء أغيظ لأبناء نبي من أن يأتي أخوهم وهو أصغر منهم فينفرد بهم فيقص عليهم رؤيا تشعرهم بفضله عليهم، ثم يعاود فيقصها على أبيهم أمامهم وهم يسمعون. فهل هذه أخلاق يوسف الطاهر الذي اجتباه الله، كلا والله، فحاشا لله أن يجتبي المستكبرين وحاشا لنبيه يوسف من أخلاق المستكبرين، ولكن اليهود قوم يفترون.

فهذا فرق بين الكتابين في وصف أخلاق يوسف وإنه لفرق مبين.

ألا ومن تدبر القرآن علم أن يوسف ما عصى أباه قط، وأنه ما قصّ تلك الرؤيا على إخوته قط بل وما أعلمهم بها قط. ونستنبط لذلك من قوله تعالى في أواخر السورة: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

وسنصل إليها إن شاء الله فخذ منها الآن البرهان على أن يوسف لزم الكتمان وذلك في قوله تعالى عنه: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ فقد أفرد فيها الخطاب لأبيه.. وانظر كأنه قد خاف أن يكون أبوه نسيها فقال: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي اذكر يا أبت تلك الرؤيا التي كنت قصصتها عليك في ذلك الزمن البعيد. ولم يخاطب

بها إخوته لأنهم لا يعرفون عنها شيئاً. . ثم بدأ يحمد ربه على إحسانه إليه أن أخرجه من السجن وعلى أن جاء بأهله من البدو. وانظر هنا كيف خاطب أباه بخطاب الجمع عند قوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾، ولا ريب أنه كان لا يزال يوجه الخطاب إلى أبيه وقد أدخل إخوته مع أبيه في ضمير خطاب الجمع عند قوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ فانظر هنا كيف أدخلهم في الخطاب الذي يعلمون فحواه ولم يدخلهم فيما لا يعلمون من رؤياه. وأما أنه كان لا يزال يوجه الخطاب إلى أبيه فشاهده في سياق الآية وهو قوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ فلو كان يتوجه بالخطاب إليهم لقال من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبينكم وسنصل إليها إن شاء الله.

ثم إننا نكذبهم بترتيب مرئيات الرؤيا إذ ذكروا الشمس والقمر قبل أحد عشر كوكباً وقد جاء ترتيب القرآن على: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ فإن قال قائل: وما يدريك لعل هذا الترتيب التوراتي حق منزل. . وإنما تغير ترتيبها في القرآن احتياجاً إلى تآلف النظم فإن قيل هذا ولن يقوله إلا جاهل فحينئذ نرد عليه بأن كلًا من القرآن والتوراة الصحيحة هو كلام الله. وكلام الله لا يختلف ولا يتناقض فلذلك نحن نوقن أن الترتيب الذي في التوراة المباركة التي جاء بها موسى هو عين هذا الترتيب الذي في القرآن المبارك الذي جاء به محمد ﷺ وهو قوله تعالى: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ وأما دعوى احتياج القرآن إلى تغيير الترتيب لتآلف النظم فحاشا لمن أنزل القرآن والتوراة أن يحتاج كلامه إلى تبديل أو تغيير، أو تقديم أو تأخير، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء وهو على صراط مستقيم. وهو الحق الذي قوله الحق ووعده الحق وهو الذي بكلماته يخلق ويرزق ويمحو ويثبت ويقدم ويؤخر ويفعل ما يريد.

وإنما يحتاج إلى التقديم والتأخير، والتبديل والتغيير العبد الفقير. أما الذي يخلق بكلمته الأشياء. . فإن الأشياء هي الفقيرة إلى كلماته وليست كلماته فقيرة إلى الأشياء. . فقد كتب الله في كتاب عنده كل

شيء وذلك قبل أن يخلق السماوات والأرض التي فيها الكواكب والشمس والقمر ويوسف. فكان مكتوباً عنده ما سيكون قبل أن يكون، وفيه قول يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

فصل
من إعجاز الترتيب في القرآن

فإن قال قائل فما تقول فيما جاء من ترتيب ذكر السحرة لموسى وهارون في موضعين من القرآن حيث جاء الترتيب في الأعراف بتقديم موسى على هارون كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨)﴾ وجاء في طه بتقديم هارون على موسى كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ فإن قال هذا قائل فحينئذ أقول وأستعين الذي يفتح العقول: إن في هذين الترتيبين اللذين في هاتين الآيتين نوعاً من أنواع إعجاز القرآن الذي لن يحصي الخلق أنواع الإعجاز فيه، وفي كل نوع من أنواع إعجازه شاهد يشهد له أنه من عند العليم الخبير. وذلك أن نعلم هنا أن السحرة كانوا جمعاً كثيراً أحضروا من كل المدائن، لم يحضروا من مكان واحد، علمنا هذا من قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)﴾.

وإذ هم كانوا كذلك جمعاً كثيراً جاؤوا من مدائن شتى وإذ نعلم جميعاً أن لكل أهل مدينة عادات وآداب فمن هنا نعلم أنه كان فيهم من يرى تقديم الأكبر في السن توقيراً لسنه فقدموا ذكر هارون وكان هارون أسن من موسى، وفيهم من يرى تقديم الأكبر في المقام توقيراً لمقامه فقدموا ذكر موسى، فكان معنى الترتيبين في الآيتين أن السحرة قالوا كلا القولين فذكر الله قول كل منهم فانظر إلى هذا النوع من الإعجاز الذي تعلم منه أن القرآن من لدن الله المحيط بكل شيء الذي لا ينسى شيئاً ولا يشغله شيء عن شيء فتبارك الله رب العالمين.

ثم عد إلى الآية التي كنا فيها من سورة يوسف لتشهد اتفاق القرآن بين صدق المقال وواقع الحال. فإن صدق المقال أن تعلم أن الله ذكر أحد عشر كوكباً قبل الشمس والقمر وواقع الحال أن إخوة يوسف جاؤوا إليه قبل مجيء أبويه إليه ثلاث مرات وكانوا في كل جيئة له يسجدون، عادة أناس ذلك الزمان وإذاً فقد سبق سجود إخوة يوسف له في ترتيب الواقع، كما سبق سجودهم له في ترتيب الرؤيا في القرآن. فانظر إلى توافق أخبار القرآن بين ما كان في عالمين اثنين عالم الرؤيا وعالم الواقع، توافقاً يعجز عن نظمه قولًا، وعن جعله فعلًا كل مخلوق، فهذا فرق مبين.

كذلك انظر رحمك الله، انظر إلى شيء آخر عجيب، فقد جاء الآن والله شيء جديد يخر له كل رأس عنيد ويشهد أن هذا القرآن من لدن حكيم حميد. وهو أن الابتداء بالكواكب وفحواها إخوة يوسف: أولى من الابتداء بالشمس والقمر وفحواها والداه. فلو ابتدأ القول بما معناه رأيت والدي لي يسجدان لذهبت فجأة العجب من سجود الوالدين بالعجب من سجود الإخوة، ولما عاد لخبر سجود الإخوة بعد سجود الوالدين وقع تأثير. فهذا فرق مبين.

ثم إن النص اليهودي ذكر سجودها بضمير غير العاقل وجاءت في القرآن على ضمير العاقل كما في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ والحكمة في ذلك أنها لما وصفت بأفعال العقلاء ناسب أن تأتي على ضمائرهم، والإعجاز في ذلك أن وقوعها سيكون تأويله في عالم العقلاء، ومن هذا نستنبط أن يوسف عندما كان يقص الرؤيا كان يدرك تأويلها ويعلم أنها تعني سجود إخوته وأبويه له. فهذا فرق مبين.

فصل
افتراء اليهود على الانبياء

وأما قول النص اليهودي إن يعقوب لما سمع حلم يوسف انتهره وقال له: ما هذا الحلم الذي حلمت هل نأتي أنا وأمك وإخوتك

لنسجد لك إلى الأرض. فذلك إفك نكذبهم فيه وما نكذبهم إلا بدليل مبين. فقد قصّ الله علينا غير ما يفترون. وليس افتراء اليهود على الأنبياء عجباً، فهم قوم لا يحترمون الأنبياء، بل هم قَتَلة الأنبياء. لذلك هم يجعلون للأنبياء من الصفات المرذولة ما عصمهم الله منها. كدأبك منهم هنا إذ يختلقون ليعقوب ثلاث صفات مرذولات لا تليق ببعض المؤمنين من غير الأنبياء فكيف بالنبي الكريم ابن النبي الكريم ابن النبي الكريم يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم على نبينا محمد وعليهم الصلاة والتسليم.

فأول هذه المفتريات الثلاث قولهم: «فانتهره» وحاشاه من ذلك فإنه عليه السلام لم ينهر أبناءه الظالمين لدن كانوا بأكثر من ذلك جديرين. بل لم يزل في كل خطابه لبنيه مثال الوالد الرؤوف الشفيق وكذلك كان يعقوب لبنيه على كذب منهم وظلم وخداع مبين. ومن تدبّر القرآن علم أي أب حليم كان يعقوب. فهو لم يغضب منهم لما جاؤوه عشاءً يبكون ويزعمون أن يوسف أكله الذئب ولم يعنفهم وهو يعلم أنهم كانوا يكذبون. ولم ينهرهم ولم يزد على أن يقول: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ كذلك هو لم ينهرهم لما سألوه أن يرسل معهم ولده الأصغر بنيامين بل قال: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وهو لم ينهرهم لما رجعوا إليه من دونه ومن دون أكبر بنيه بل أعاد عليهم قوله عند مصيبته الأولى بيوسف وقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ وهو لم ينهرهم لما زادوا عليه اللوم في استذكاره يوسف بل قال لهم هنالك أرق وألطف مقال يمكن أن يقوله محزون ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ وتابع يقول لهم بألطف مقال أب مبتلى ببنيه وأوثق مقال عبد واثق بربه في الشدائد ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ومن تدبر هذا الموضع من قول

يعقوب علم أنه كان في حال يوحى فيها إليه، وسيمر ذلك معنا إن شاء الله. وهو لم ينهرهم عندما قال لهم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ ففندوه وقالوا: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ وهو لم ينهرهم بعد أن جاء البشير فألقى القميص على وجهه فارتد بصيراً بل قال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهو لم ينهرهم ولم يعيرهم ولم يؤيسهم من رحمة الله لما قالوا بعدما فعلوا كل ذلك: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ فمن كان صبره هذا الصبر وقوله هذا القول مع بنيه الكبار الظالمين الكاذبين المخادعين المفندين، لم يغضب عليهم في مقام، ولم ينهرهم بحرف من كلام، على مر عشرات الأعوام فكيف يمكن أن يقال إنه انتهر ولده الصغير الأحب إليه لما جاءه يقص عليه رؤيا رآها. فانظر الفرق بين خبر القرآن عن يعقوب وبين خبر التوراة المفتراة، فهذا فرق مبين.

وأما المرذولة الثانية التي ألصقوها بيعقوب افتراءً عليه فهي ما قوّلوه إياه من قول ليوسف: «ما هذا الحلم الذي حلمت هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض» فيقال لهؤلاء الأغبياء الذين يسفهون عقول الأنبياء بما يفترون عليهم من مثل هذا الغثاء، وحاشاهم ونفسي لهم الفداء، يقال لليهود الأعداء: كيف يلوم يعقوب ولده على أمر ليس له فيه يدان؟ فهل كان حلم يوسف بيديه حتى يلام عليه، أم كان فضل الله عليه؟ وهل كان يعقوب غافلًا عن هذا أم أنتم عن عقولكم غافلون؟ فهذا فرق مبين.

وأما ثالثة الأثافي فهي قولهم: «وأما أبوه فحفظ الأمر»، والمعنى أن يعقوب علم من شأن يوسف ما سيكون ولكنه كتم هذا الأمر وأظهر له خلافه إذ انتهره وأنكر عليه رؤياه فعلى قولهم هذا يكون يعقوب كاتماً للحق عن أهله، وكان يوسف أهل ذلك إذ آتاه الله إياه ويكون يعقوب أيضاً مظهراً للباطل إذ أنكر على يوسف رؤياه. وحاشا يعقوب من كلا هذين الوصفين فكلاهما من أوصاف المنافقين، وفي

هذا بين القرآن وبين توراة اليهود فرق مبين. ونعود إلى آيات الكتاب المبين.

فصل

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ والآيات التي بعدها

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝١٦ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾ فهذا نص الكتاب المبين.

وأما ما يشبهه في سياق الحوادث من توراة اليهود فهو وما زلنا في الإصحاح السابع والثلاثين قوله: «ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم فقال إسرائيل ليوسف: أليس إخوتك يرعون عند شكيم، تعال فأرسلك إليهم، فقال له: ها أنذا. فقال له: اذهب انظر سلامة إخوتك

وسلامة الغنم ورد لي خبراً، فأرسله من وطاء حبرون، فأتى إلى شكيم فوجده رجل، وإذا هو ضال في الحقل، فسأله الرجل قائلًا: ماذا تطلب؟ فقال: أنا طالب إخوتي، فأخبرني أين يرعون؟ فقال الرجل: قد ارتحلوا من هنا لأني سمعتهم يقولون: لنذهب إلى دِوثان فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم في دوثان، فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه، فقال بعضهم لبعض: هوذا صاحب الأحلام قادم فالآن هلم نقتله ونطرحه في إحدى الآبار. ونقول: وحش رديء أكله فنرى ماذا تكون أحلامه. فسمع رأوبين وأنقذه من أيديهم وقال لهم: لا نقتله ـ وقال لهم رأوبين: لا تسفكوا دماً اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدوا إليه يداً لكي ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه. فكان لما جاء يوسف إلى إخوته أنهم خلعوا عن يوسف قميصه، القميص الملون الذي عليه وأخذوه وطرحوه في البئر وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء. ثم جلسوا ليأكلوا طعاماً فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملةٌ كَثيراءَ وَبَلَسَاناً ولادَناً ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر. فقال يهوذا لإخوته: ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا فسمع له إخوته، واجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه ثم رجع إلى إخوته وقال: الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المعزى وغمسوا القميص في الدم وأرسلوا القميص الملون، وأحضروه إلى أبيهم وقالوا: وجدنا هذا حقق أقميص ابنك هو أم لا فتحققه وقال قميص ابني وحش رديء أكله افترس يوسف افتراساً، فمزق يعقوب ثيابه ووضع مِسْحاً على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه فأبى أن يتعزى وقال: إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية وبكى عليه أبوه وأما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط» انتهى الإصحاح السابع والثلاثون.

قلت: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ السائلون هنا هم يهود المدينة بعثوا يسألون النبي ﷺ عن أمر يوسف وسواء أكان اليهود بعثوا بالسؤال ابتداءً من أنفسهم أم كان ذلك بطلب من المشركين تعجيزاً منهم للنبي ﷺ، إذ قيل: إن المشركين لما عجزوا عن الرد على النبي ﷺ وأعياهم أمره لجأوا إلى اليهود فقالوا لهم: سلوه عن يوسف بن يعقوب وعن إخوته فلن يستطيع أن يخبركم عن ذلك بشيء. فسألوه فنزلت هذه السورة جملة واحدة، فكان في نزولها كذلك معجزة بينة. كانت حجة لرسول الله ﷺ على السائلين. وقد جاء معنى هذا الخبر في التفاسير كالقرطبي وغيره. كما قال تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

فصل
سبب حسد إخوة يوسف له

ومن المقارنة بين هذين النصين اللذين في القرآن وفي توراة اليهود يتبين لنا اختلاف كثير وفروق كبيرة. ففي القرآن يظهر لنا السبب الحق المعقول الذي دفع أولاد يعقوب إلى بغض أخيهم يوسف.. وهو أنهم كانوا يريدون أن يكونوا قوماً صالحين.. كما في قوله تعالى عنهم: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ لقد كان مراد أولئك الأبناء أن يكونوا على نظر من أبيهم يعقوب النبي الذي كان يبدو لهم أنه يختص يوسف وأخاه بحب زائد. ومع قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ فإن أخا يوسف وهو أخوهم الأصغر بنيامين لم يكن حجر عثرة في طريق هذا الحب لأنهم اكتفوا بإزاحة يوسف إذ قالوا: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ ولم يقولوا مثل ذلك في بنيامين. وتوراة اليهود لا تقص علينا شيئاً من مثل هذا القول الذي يبين لنا القرآن فيه السبب النفسي لبغض أبناء يعقوب لأخيهم. فهذا فرق مبين.

وفي قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ بيان لمقام يوسف عند أبيه من أنه كان أحب أبنائه إليه إذ هم أضافوا أخاه إليه فقالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ ولم يقولوا وبنيامين وهذا يعني لهم أن حب يعقوب ليوسف ليس من نوع حب الوالد لأصغر بنيه لما يحتاج إليه الأصغر من عطف وحنان. إذ لو كان بدا لهم أن بنيامين هو الأحب لقبلوا هذا الحب ولسكتوا عنه، إذ هو أمر عادي أن يكون أصغر الأبناء أقرب إلى قلوب الآباء.

ولكنهم وقد رأوا أباهم يحب يوسف أكثر منهم ومن ولده الأصغر، فمن هاهنا شعروا بأن أباهم يرى في يوسف شيئاً لا يراه فيهم.. ولما كان أبوهم نبياً ابن نبي ابن نبي قد ورث النبوة بعد أبيه وجده فقد كان استقر في نفوسهم أن واحداً منهم على الأقل سيرث أباهم في مقام النبوة كما ورث أبوهم مقام النبوة بعد أبويه. فمن هاهنا تعلم خطأ من قال إن حسد أولاد يعقوب لأخيهم كان لسبب دنيوي، كلا بل كان حسداً في الدين لا في الدنيا على قدر ما كانوا يعقلون من معنى الدين. والشاهد لذلك المبين هو قولهم: ﴿وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ ويشهد لذلك أيضاً ما قصّه الله علينا من قولهم لما تعرّفوا على أخيهم آخر الأمر إذ ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ فانظر إلى قولهم: ﴿ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ومعناه اختارك واصطفاك، تجد فيه أنهم ما كانوا يريدون أن يخلو لهم وجه أبيهم إلا ليتقربوا بذلك إلى الله الذي آتى أباهم النبوة فطمعوا أن يرثوها من بعده ليكونوا قوماً صالحين. وهذا وإن كان من نقصٍ فيهم وجهلٍ منهم بقدر النبوة فإن فيه على كل حال أنهم كانوا يريدون أن يكونوا قوماً صالحين على ما كانوا من معنى الصلاح يفقهون.

وبين هذا التبيان القرآني الذي لم تبين مثله التوراة وبين التوراة فرق مبين.

فصل
كيد إخوة يوسف

ثم انظر إلى اختلاف رأيهم في قتل يوسف أو طرحه أرضاً تعلم منه أموراً، منها: أنهم بعد قولهم: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ سرعان ما ترددوا وتراجعوا فقالوا: ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ وهنا يبدو أنه غلب عليهم شيء من التقوى التي تتناسب مع زعمهم أن مرادهم أن يكونوا قوماً صالحين. ثم لا تغفل أن تذكر أن القوم كانوا أبناء الأنبياء وهم يعلمون ما في القتل من طرد من رحمة الله أن كانوا قد سمعوا كثيراً عن مصير قابيل بعد قتل أخيه هابيل.

فانظر إلى ما انفرد به القرآن من خبر يكشف لنا به أغوار النفوس ويصور لنا فيه ما كان من صراع في نفوس أولئك الإخوة بين قتل يوسف أو طرحه أرضاً.

ثم قد تعلم من الآية أن منهم من صرّح بالقتل ومنهم من أشار بالطرح أرضاً.. ليس شرطاً أن يكون كلهم قال: اقتلوا يوسف ولا أن كلهم قال: اطرحوه أرضاً بل قد يكون قسم منهم قال هذا وقسم منهم قال ذاك. فكان مقول قولهم جميعاً: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ وهذا أسلوب اللسان العربي الذي نزل به القرآن. وهو أنه إذا اجتمع قوم على أمر قد اتفقوا على أصله ثم بدا لكل منهم رأي فيه فكلهم شريك كل في كل رأي يرون.. ما لم يختلفوا في أصل ما اجتمعوا عليه. وإذ علمنا من بيان القرآن أن أصل ما اجتمع عليه أولاد يعقوب هناك هو إزاحة يوسف.. فسيان أكان القائل: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ واحداً منهم قال هذين القولين أو اثنين قال أحدهما: اقتلوا يوسف وقال الآخر: اطرحْوه أرضاً أو جماعتين قالت كل واحدة منهما قولًا من هذين القولين فهم على كل حال شركاء في كل قول قيل منهم في ذلك الاجتماع الذي اتفقوا جميعاً على أصله، وهو إزاحة يوسف. ولا ينافي هذا أن يكون إثم بعض أعظم من إثم بعض،

والشاهد لمثل هذا هو في قوله تعالى عن أهل الإفك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ فانظر كيف سمّى الله كل الذين اشتركوا بالإفك تسمية واحدة مع تبيانه أن لكل منهم قدراً من الإثم وأن واحداً منهم قد تولى كبره وهو الذي له عذاب عظيم.

فصل
أحسن إخوة يوسف

فإذا علمنا ذلك ثم رجعنا فتدبرنا سورة يوسف حق تدبرها على قدرنا، علمنا أن واحداً من إخوة يوسف كان معهم على غير أصل نيتهم، وأنه كان على غير رأيهم جميعاً، وأن ذلك الواحد كان كبيرهم لا سواه.

فأما علمنا بأنه كان واحداً فهو في الآية التي تلي هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ ففي إفراد الله تعالى لهذا القائل من بينهم إخراج له من الاشتراك في أصل تلك المؤامرة أو إخراج له من الاستمرار في الاشتراك.. وفيه تبيان: إما لأصل نيته وأنها كانت على غير نية إخوته، أو لتغير نيته في حضرة ذلك الائتمار. وإننا نستطيع أن نستنبط من فحوى كلامه أنه كان خير أولئك المتآمرين نفساً، وأسلمهم قلباً، وأفهمهم للنفوس. وأنه راح يستعمل معهم أحسن ما يستطيع أن يستعمل إنسان مثله في ظرفه ليخلص أخاه من شر إخوته فانظر إلى قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ فإنه لم يقل بعده: ولا تطرحوه أرضاً، فكأنه كان يعلم بأنه لو قال ذلك فسيكون قد وقف وحده ضد كل من أصحاب القولين، أو ضد القولين اللذين يمثلان قصد الجميع.

فأخذ يوحي إلى أصحاب الرأي الثاني أنه على رأيهم أو يوحي

إليهم جميعاً أنه على الرأي الثاني إذ قال: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ فلم يقل فقط: ألقوه في الجب لأنه كان يحتاج إلى أن يشعرهم بأنه يبغض يوسف كما يبغضونه، فقال: في غيابة الجب، التي وإن كان وقعها على نفوسهم كوقع ﴿اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ ولكنها كانت أرحم من ذلك بكثير. فإن ﴿أَرْضًا﴾ هنا منصوبة نصب الظروف المبهمة أي اجعلوه في مكان بعيد مبهم ليس فيه ناس ولا عمران، والمعنى: اجعلوه في أرض ليس فيها إلا الوحوش، فانظر إلى الشيطان كيف يوسوس للإنسان فإنه لما رأى عجزه عن أن يربطهم بقتل أخيهم فوسوس لهم أن يجعلوه في مكان يهلك فيه من غير أن يقتل بأيديهم، فكذلك الشيطان يتسلل إلى الصدور في وسواس المعاصي والآثام. إنه يوحي إلى الشاب الضعيف أن يدخل على العاهرة ليعظها وهو يعلم أن عفة الشاب أضعف من عهر العاهرة وأنه إذا دخل عليها فلن تصير بدخوله عفيفة بل هو الذي سيصير من العاهرين. ويوحي إلى الشويخ العويلم أن يدخل على الطغاة من الملوك والرؤساء ليعظهم ويعبدهم لله وهو يعلم أن تقوى الشويخ العويلم أضعف من طغيان الطغاة وأنه إذا دخل عليهم فلن يعظهم ولن يعبدهم لله. بل هو الذي سيصير عبداً لهم وذنباً من الأذناب.

ألا فذلك فعل الشيطان الكذاب فهو إذا عجز أن يدخل الإنسان من باب أدخله من سرداب.

ألا فدع الشيطان واستعذ بالله منه وعد إلى ما كنا فيه من الحديث عن كبير أبناء يعقوب. فقد جاءهم بفكرة الإلقاء في الجب التي تشبه في ظاهرها فكرة الطرح أرضاً.. حتى إذا تجاوز بهم ذلك ابتدأ يوحي إليهم باستعمال الرحمة وذلك عند قوله: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ فابتدأ بذلك أن يمحو من نفوسهم فكرة قتل يوسف أو طرحه أرضاً إذ راح يحدد لهم أن يلقوه في غيابة الجب التي تدل الألف واللام فيها على أنها كانت معروفة لهم وأنها كانت على طريق يمر عليها الناس. وذلك بأسلوب إيحائي كان في الذروة من التأثير

العبقري.. الفاعل في النفوس إذ قال: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ ولم يقل: ينقذه، ففي الالتقاط معنيان مناسبان لتلك الحال وهما تحقير يوسف في أعينهم إذ كان بغضهم له من شعورهم باستعلائه عليهم، واختصاصه بأبيهم من بينهم.. فإذا صار هذا العزيز الأثير ذليلًا في قعر جب ولقيطاً في رحل سيارة فعند ذلك سيزول من نفوسهم شعورهم باستعلائه واختصاصه. وإذ زال ذلك أو مهد لإزالته بهذا الأسلوب فبعد ذلك يبدو المعنى الثاني من قوله: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ وما هو إلا استرحام مبطن يوحي لهم فيه أن الغاية جعل يوسف في جب على طريق الناس ليمر به بعضهم فيخرجه منه.. حتى إذا استقر شيء من هذا المعنى في نفوسهم وأشربت بعضاً منه عقولهم.. فعند ذلك ضرب ضربته الأخيرة التي حاول فيها أن يشككهم في فعلهم ليثنيهم عن عزمهم وهو قوله لهم: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ لقد كاد هنا يظهر خبيئة نفسه من أنه ليس شريكاً لهم في أي أذىً يلحقونه بيوسف إذ قال: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ فليس محذوف جواب «إن» هنا على معنى: إن كنتم تريدون أن تفعلوا صواباً فهذا هو الصواب.. كلا ولكن محذوف الجواب هنا على معنى إن كنتم حقاً مصرين على الفعل. والشاهد لذلك هو أن هذا القائل سيعود إلى لومهم على فعلهم هذا في موضع آخر من السورة حيث نعلم أنه لم يفرط في يوسف تفريطهم وأنه كان كبيرهم لا سواه. وموضع ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فانظر إلى تذكرته إخوته بما أخذ عليهم أبوهم من موثق الله ثم انظر إلى معرفته بالله إذ يشهد أنه خير الحاكمين.. ثم ارجع النظر في كل من أقوال إخوته الآخرين خلا يوسف تجد أنه ليس في كل السورة لأحد من إخوته الآخرين مثل هذا القول المبين. بل لا تجد الآخرين يذكرون الله إلا مقسمين به أو سائلين أو معترفين وذلك في كل موضع فيه اسم الله يذكرون. وأما تلك المواضع فهي:

في قوله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ (٨٥)﴾ فهم هنا ذكروا الله مقسمين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٥٩)﴾ كذلك هم هنا يقسمون.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ (٩٥)﴾ وهم أيضاً به يقسمون. ثم ذكروا الله وهم يسألون وهو قولهم: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ثم هم يقسمون ويعترفون ليوسف وذلك في قوله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ (٩١)﴾.

فبهذا الربط تعلم أن كبيرهم كان أعلم بالله منهم وأتقى له. فإن قيل فما الحكمة في تعريفنا به هناك أنه كان كبيرهم وترك تعريفنا به هنا في أوائل السورة لما قال لهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ قلت: فإن الحكمة في ذلك والله أعلم أنه هناك عند قوله تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ ذكر الله فذكره الله وإن هذا لفي عموم المعنى من قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ فقد ذكر الله بحق فجازاه الله أن ذكره في كتابه الحق في هذه السورة التي أنزلها الله بالحق. ألا وإن هذا من بعض إعجاز القرآن المتفق المؤتلف الذي تنزهت آياته عن كل تعارض واختلاف.

ثم الحكمة في ذكره هناك أيضاً والله أعلم أنه اتخذ هناك موقفاً فعلياً فقال: لن أبرح الأرض ففارق إخوته وحفظ جزءاً مما أخذه عليه أبوه من ميثاق. وأما هنا فلم يتخذ موقفاً فعلياً بل انفرد عن إخوته بكلام فأفرد الله ذكره بما انفرد به من كلام كما قال تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ ثم إنهم غلبوه على أمره إذ سكت في النهاية على باطلهم فحق عليه بسكوته أن صار شريكاً لهم بسكوته عنهم وإن كان غير فاعل شراً

ولكن سكت، وكذلك الساكتون على الباطل وإن كانوا لا يحبونه فإنهم ما لم يبادروا بقول أو فعل يحاربون به الباطل فهم شركاء فيه كل على قدره، ونعلم ذلك يقيناً من قوله تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَأَجْمَعُوٓا۟﴾ فإن فيها لما ذكرت الدليل.

فهذا بيان القرآن فإذا قارنا به النص اليهودي تجلى لنا فرقان بون مبين.

وذلك أن القرآن ذكر لنا اجتماع إخوة يوسف على مؤامرة فصَّل لنا حوادثها من لدن تشاورهم فيما بينهم إلى خداعهم لأبيهم ثم إلى أخذهم لأخيهم، أما النص اليهودي فقد جعل المؤامرة حدثاً فجائياً عن غير سابق تصميم وفي هذا فرق مبين.

إذاً فنحن نكذبهم في خبر نصهم الذي يقول إن إسرائيل أرسل يوسف إلى إخوته ونقول إن هذا الخبر عن ذهاب يوسف إلى دوثان هو كذب وإفك وبهتان فقد قصّ الله علينا في القرآن غير ما يفترون. ومن تدبر نص القرآن ونص اليهود علم أن الفرق الذي بين النصين ليس نوعاً واحداً من الفروقات بل بينهما أنواع فروقات كثيرة وذلك في كل موضع خبر واحد جاء به كلاهما. كذلك ليست الفروقات بين القرآن والتوراة المفتراة من مثل ما نجد من فروقات في أخبار الجرائد والمجلات التي إذا روت كلها خبراً واحداً فإن كلًا منها تروي جانباً مناسباً لها من جوانب ذلك الخبر تزيد فيه أو تنقص منه حسب انتمائها. ولا هي كالفروقات بين اثنين شهدا حادثاً فأخبر به أحدهما خبر الصدق على ما تراءت عيناه وأخبر به الآخر خبر الكذب فزاد فيه وأنقص منه. كلا ليست الفروقات بين القرآن والتوراة المفتراة على شاكلة هذه الأمثال ولكن الفروقات بين القرآن والتوراة المفتراة أن القرآن هو كلام الله الحق المبين، الذي يعلم أحسن من كل عالم وهو العليم بكل شيء ويخبر أصدق من كل مخبر وهو الخبير بكل شيء

ويفصل أحسن من كل مفصل وهو المحيط بكل شيء. فهذا خبر القرآن.

فصل
من تناقض أخبار التوراة المفتراة

أما خبر التوراة المفتراة فهو أخلاط شتى فيها شيء من صدق وفيها أشياء من كذب وفيها إفك وافتراء وخيال كثير.

ولو أننا أحضرنا من الناس قوماً ليسوا بمسلمين ولا يهود ولا نصارى وكان فيهم شيء من فطنة أو فهم أو تدبر ثم قرأنا عليهم ما في القرآن وما في التوراة من سياق في قصص الخبر الواحد لوجدناهم يقولون إن خبر هذا القرآن ذو اتفاق وائتلاف، وإن خبر هذه التوراة ذو تناقض واختلاف، ذلك أنهم سيرون تناقض خبر اليهود في كل إصحاح بل في كل صفحة بل هم كثيراً ما يتناقضون في سطر واحد. ألا وإن من تناقضهم هنا أنهم أخبروا بدءاً أن يوسف كان يرعى مع إخوته الغنم ثم أكدوا أن هذا كان دأبه إذ جعلوه يقص أحلامه على إخوته قبل أن يقصها على أبيه، ثم جعلوه منفرداً عنهم مع أبيه، ثم جعلوا أباه يرسله إليهم، ثم جعلوا هذا الإرسال للتفقد فقط لينظر سلامة إخوته وسلامة الغنم، إذ جعلوا أباه يأمره أن ينظر ثم يعود إليه بالخبر، مما يوحي أنه لم يكن دأبه الذهاب عكس ما كانوا جعلوه من قبل. ثم جعلوه يضيع في الحقل مما يوحي أنه كان لا يعرف الطريق إلى إخوته حتى في الحقل. ثم جعلوا رجلًا يخبره خبر إخوته، ثم جعلوه يذهب وراء إخوته مسافة بعيدة إلى دوثان مما يوحي أنه هكذا فجأة صار خبيراً بالطريق البعيد.

ثم جعلوا إخوته لما أبصروه آتياً من بعيد يهتاجون لجيئته ويجدونها فرصة لهم للتخلص منه مما يوحي أنه ما كان يرعى معهم الغنم، ولا كانوا ينفردون به من قبل، ولا كان من عادته أن يبتعد عن

أبيه، فانظر إلى ما استخلصناه من تناقض نصهم من أن يوسف ما رعى معهم غنماً قط ولا لحق بهم أرضاً مما يوافقنا على استخلاصه كل فطن بصير. ثم إنا مع ذلك لا نثبت كذب نصهم بما استخلصناه من تناقض فيه، كلا، بل ما نكذبهم إلا بحجة ما معنا من آيات الكتاب المبين ألا وإن الشاهد القرآني على كذبهم في نصهم الذي جعل يعقوب يرسل يوسف إلى إخوته للتفقد هو في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣)﴾ فإذا كان ذهابه معهم يحزنه، ويخاف أن يأكله الذئب فكم بين هذا الذي في القرآن وبين الذي في التوراة المفتراة التي جعلته يبعثه وحده ليتفقدهم من بيته إلى شكيم إلى أرض دوثان. من فرق مبين.

فما للمستشرقين لا يخجلون من أنفسهم إذ يقولون إن القرآن مثل التوراة فأين هذه المثلية أيها المفترون وفي كل من الكتابين عن كل فرق بعيد.

ثم إننا لا نصدقهم في عدة أعوام يوسف ذلك الحين، إذ جعلوا عمره سبعة عشر عاماً من لدن أن جعلوه يرعى الغنم مع إخوته بني بلهة وبني زلفة ثم مر على ذلك زمن ثم ألقي في الجب مما يعني أنه كان قد تجاوز سبعة عشر عاماً.. فكل ذلك لا نصدقهم فيه بل نقول إن عمر يوسف عند إلقائه في الجب كان أقل من عدة ما جعلوه بكثير، نعلم ذلك من قولهم لأبيهم في القرآن: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢)﴾ ولا يقال مثل هذا القول لوالد ولد تجاوز ولده سبعة عشر عاماً فإن قولهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾ يدل على أنه كان في سن أدنى من أن يروح فيها وحده ويجيء وكذلك قولهم: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ فلو كان في ما جعلوه فيها من سن لما قالوا يرتع ويلعب بل لكانوا جاؤوا بقول أنسب فإن يرتع ويلعب إلى عمر الأطفال أقرب. كذلك قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ لو كان في السن التي

جعلوه فيها لم يحتج إلى حفظهم ولم يحتج أبوه أن يقول: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ فإنهم لن يغفلوا عنه إلا إذا كان في سن صغيرة جداً، لا يصلح له فيها أن يكون معهم في شؤونهم. فهذا فرق مبين. ثم إننا نكذبهم بكل حرف في نصهم من لدن جعلهم يعقوب يرسل يوسف إلى إخوته إلى جعلهم إخوة يوسف يقولون هوذا صاحب الأحلام قادم. فكل ما بين هذين الموضعين كذب كذبوه وإفك أفكوه جاء القرآن الحق بغيره وهو أنهم كانوا يستشعرون أن أباهم لا يأمنهم على يوسف كما في قوله تعالى عنهم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ فخادعوه عنه ليأخذوه فأخذوه. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ﴾ فهذه من الفروقات المبينة بين الكتابين تشهد للقرآن بفرقان مبين.

ألا وإن من الفروقات المبينة بين الكتابين أن القرآن يأتي إلى كل من حوادث القصة فيفصله لنا تفصيلًا يزيل تساؤلنا ويريح أعصابنا ويبينه لنا بياناً يشهدنا إياه حتى كأننا نحياه ونراه. وهو في كل حادث يذكره لنا يعبر بنا إلى هدف مراد. مما نعلم منه أن الذي يقص علينا هذا القرآن هو عليم حكيم، وأنه عظيم كريم يريدنا أن نعتبر بما يقصه علينا، فنعبر به من الجهل إلى العلم، ومن الضل إلى الهدى، ومن الظلمة إلى النور. فهذا شأن الحوادث في قصص القرآن مهما كان حجمها أو نوعها.

أما النص اليهودي فإنه على عكس من ذلك إذ هو يخبط بنا في حشو من جمل لا يدرى أولها من آخرها ولا معبرها من مستقرها. وأدنى مثل قريب لهذا هو في ذكر كل من هذين النصين قميص يوسف. فبينا نجد أن القرآن لا يذكر قميص يوسف في هذا الموضع إلا مرة واحدة كانت كافية للعبور بنا بين مرحلتين من مراحل السورة كلها.

فانظر إلى موضع ذكر القميص هنا فإن فيه حداً بين فصلين بين

انتهاء وابتداء فقد انتهى به تسلط أبناء يعقوب على أخيهم فما تسلطوا عليه بعد ذلك قط.

وابتدت به أحزان يعقوب. فأربط هذا بما تعلم من قميص يوسف الآخر الذي سيكون البشرى لأفراح يعقوب. تجد إعجاز النظم في جعل قميصي يوسف حدين بين فصلين جرت فيهما حوادث أثرت في المجتمع الإنساني من كل وجه وستعلمك السورة ذلك. . حيث تعلم من خلاصة الحوادث أن الغاية امتحان الخلق بعضهم ببعض. وما ذلك إلا لغربلة النوع البشري ولإيصال الأحسن منه إلى الكمال كما وصل يعقوب بالصبر الجميل الذي لا يتحقق إلا بالاستعانة بالله، حيث ترى سعة رحمة الله في إكرام الوجدان البشري الصابر المحتسب، أن رد على يعقوب بصره بذياك القميص العابق بأنفاس الطاهر يوسف حيث يسلم العقل لقدرة الله الذي يخرج الدواء من الداء، ويظهر النعماء من البلواء ويتم نعمته على المتقين الصابرين. فذلك ما يحدثه مجيء ذكر القميص في قصص القرآن.

فإذا رجعت إلى النص اليهودي فإنك تجده يذكر القميص هنا سبع مرات وانظر إليها في جملها التي جاءت فيها إذ تقول: «خلعوا عن يوسف قميصه القميص الملون» «فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً» «وغمسوا القميص في الدم» «وأرسلوا القميص» «حقق أقميص ابنك هذا» «قال قميص ابني» فها هو القميص يذكر هاهنا سبع مرات ليس في واحدة منها عبرة ولا اعتبار بل كانت عاقبتها أن جعلوا يعقوب يمزق ثيابه ويديم النواح ويأبى التعزي ثم يحكم على نفسه وعلى ولده يوسف أنهما من أهل النار وسنبين إفك ذلك في موضعه إن شاء الله. ولكن انظر الآن الفرق بين ذكر القميص في القرآن وذكره في توراة اليهود حيث يأبى كل ذي عقل إلا أن يقر ويعترف ويقول هذا فرق مبين. وانظر إلى البلاغة في الآية: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾ فقد وصفت الدم نفسه بالكذب، والمعنى أن الدم نفسه كان يقول عن نفسه إنه دم كاذب فاعقل هذا المعنى ثم

انظر كيف ناسب أن يقول يعقوب بعده: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فانظر إلى التوافق والتناسب في ذكر القميص مرة واحدة في هذا السياق من القرآن. فهذا فرق مبين. ثم انظر الفرق بين النص القرآني الذي كنا استنبطنا منه نفسية كبيرهم وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ وبين ما يشبهه عندهم وهو قول نصهم: «فسمع رأوبين وأنقذه من أيديهم وقال لا نقتله وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دماً اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدوا إليه يداً لكي ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه» فهذان نصان يبدوان متشابهين فإذا ما قرأهما غير المتمعن سيقول ما أشد الشبه بين هذين النصين. أما المتمعن فغير ذلك سيقول.

فنص القرآن يقول: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهذا يعني أنه كان فيهم وبينهم ومعهم.

والنص اليهودي يقول: «فسمع رأوبين» وهذا يعني أنه كان في غفلة عنهم ثم انتبه إليهم. ونص القرآن يقول: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ وهذا يعني أنه أخرج نفسه من إرادة فعل القتل من بينهم لو فعلوا.

والنص اليهودي يقول: «لا نقتله» وهذا يعني أنه أدخل نفسه معهم في إرادة الفعل نفياً أو إثباتاً فعلى قول النص اليهودي لو قتلوه لكان رأوبين مشتركاً في قتله وعلى قول القرآن لو قتلوه لكان ذلك القائل غير مشترك في قتله وانظر ما بين الكلمتين تجد فرقاً عظيماً. فعلى النص القرآني تبدو لنا نفس القائل: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ نفس إنسان بعيد عن فكرة القتل في الأساس. فهو ينهى عنه إخوته لاحتياجهم إلى ذلك النهي ولا ينهى نفسه لأنه أساساً لم تقع فكرة القتل في نفسه. وأما النص اليهودي «لا نقتله» فإن قائله ينهى فيه نفسه وإخوته جميعاً وهذا يعني أن فكرة القتل كان لها في نفسه أساس، كما كان لها أساس في أنفس إخوته فكان أن نهى نفسه عنها كما نهاهم.

أو يقال: لو كانوا قرروا قتله لوافقهم وكان شريكاً معهم، وهي على كل معانيها تدخله معهم في فعل واحد سيان أكان ذلك الفعل نفياً أم إثباتاً فمعناها أنه يفعل ما يفعلون على كل حال فإن قيل: فما يمنع أن يكون قال ذلك على نية أن يوافقهم في ظاهر القول ليخلص أخاه فنقول: يأبى ذلك قول القرآن فقد أخبر تعالى عن ذلك القائل أنه قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ ولم يخبر أنه قال: «لا نقتلهُ».

فإن قيل: فكيف ستُقنع بهذا من لا يؤمن بالقرآن من يهود ونصارى يعتقدون أنه قال: «لا نقتله» فأقول وأستعين الذي لا تدركه العقول: إن الشاهد على كذب نصهم «لا نقتله» هو في سياق النص نفسه وذلك بعد حرف واحد ليس إلا، وهو حرف الواو. فارجع النظر في هذا السياق كله ثم أربط واستنبط وسأكرر لك النص «فسمع رأوبين وأنقذه من أيديهم وقال لا نقتله وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دماً» فهو هنا في قوله: لا تسفكوا دماً يخرج نفسه من إرادة الفعل معهم كما في قول القرآن المبين: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ وفي هذا نقض لما جعلوه يقول من قبل: «لا نقتله» فانظر كم من تناقض في كلام السطر الواحد الذي لا يفرق بين القولين فيه إلا واو الاستئناف وانظر كيف احتاج النص لإعادة ذكر رأوبين. كأن رأوبين قد انقسم في هذا النص إلى قسمين أو كأن هذا النص اجتمع على تأليفه اثنان لكل واحد منهما رأوبين. فرأوبين أحدهما يقول لا نقتله ورأوبين الآخر يقول لا تسفكوا دماً. ثم كأن الاثنين اتفقا على أن يرأبا صدع رأوبينيهما فرأباه فاختلط من كل في معناه، فجاء خليطاً يتنزه عن مثل فحواه كلام إنسان تاه، فضلًا عن تنزه ذي الانتباه فضلًا عن تنزه كلام الله. فهذا فرقان مبين.

فإن قيل فإن جاءك يهودي أو نصراني فقال لك أحدهما أو كلاهما بين لنا ما ترى من فرق بين هاتين الكلمتين من هذا النص اليهودي وهما «لا تقتلوه» و «لا تسفكوا دماً» فأقول وأستعين الله الذي

لا يستعان سواه: إن الفرق بين هاتين الكلمتين يثبت أمرين أحدهما التناقض وقد بيناه وثانيهما عدم التناسب إذ يضع القول في غير موضعه وبيان ذلك أنه كان الأولى لذلك المفتري لو كان فطناً أن يقول «لا نسفك دماً» في موضع قوله «لا تسفكوا دماً» وأن يقول «لا تقتلوه» في موضع قوله «لا نقتله» لأن إخراج نفسه من إرادة الفعل في موضع قتل أخيه أنسب من إخراج نفسه من إرادة الفعل في موضع سفك مطلق دَم. فهذا فرق مبين فهذا بيان من دقيق الفروقات بين القرآن الحق المبين والتوراة المفتراة.

ثم عد فانظر إلى التخبط في هذا النص إذ يقول: «فأنقذه من أيديهم» مما يعني في كل لغة أنه كان قد وصل إليهم وأحاطوا به فاستله من بينهم وكفهم عنه فإنه قال من أيديهم ولم يقل من مؤامرتهم أو من شرهم أو من كيدهم.. وليس في هذا شيء مما يسمى مجازاً، بل إن المجاز نفسه على جهالة من يقول به ليأنف من هذا المعنى هذا إذا قيل إن النص هنا مجازي، وما هو بمجازي بل هو تلفازي جمبازي، إذ كان يوسف عند مقولة هذا النص لا يزال آتياً ولم يكن وصل إليهم بعد، فارجع إلى النص فإنه بين يديك. ثم إننا نكذبهم في قولهم إن رأوبين قال: لا تمدوا إليه يداً لكي ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه، فقد قصّ الله علينا في القرآن أن غاية إرادة ذلك القائل كانت أن يلتقط يوسف بعض السيّارة، ولو كانت إرادته أن يعود إلى إنقاذه في نفسه لكانت خيراً كثيراً، ولو كانت حقاً في نفسه لذكر بها في القرآن. فقد ذكر في القرآن بأقل من ذلك إذ قال: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ ليخلصه من القتل فذكرها الله له. وقد طالما علمنا من قصص القرآن أنه يذكر المحسنين بأحسن أعمالهم. ولكن كلا ما كان في نُفس ذلك القائل ما يفترون فقد كذب النص اليهودي القائل مثل ذلك، وصدق الحق المبين القائل: ﴿وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ فقد والله أجمعوا وصدق الله والله أصدق القائلين وفي هذا فرقان مبين.

فصل
عناية خبر القرآن بيوسف في كل حال

ثم انظر الفرق بين خبر القرآن عن حال يوسف قبيل إلقائه في الجب إذ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ فهذا خبر من الله الذي يعلم السر وأخفى، يخبرنا فيه أنه أوحى في ذلك الوقت إلى يوسف تثبيتاً له على الصبر، وتبشيراً له بالنصر والنجاة، والعلو على إخوته الظالمين. وليس في التوراة من هذا الإيحاء إلى يوسف شيء. فهذا فرقان مبين.

فانظر إلى خبر القرآن الذي يبين لنا عناية الله بأحبابه في البلاء فما من مقام كان يوسف محتاجاً فيه إلى التثبيت كهذا المقام، إذ هو غلام صغير يوقف على شفا جب عميق فليتخيل كل منا كم خطر على قلب ذلك الغلام الطيب الحساس المرهَف الشعور من أسباب الفزع من الإلقاء في ذلك الجب الذي تغمره الظلمة وقد تسكنه الأفاعي، إذ هو يوقف على شفيره يراد له أن يلقى فيه، هنالك كم كان ذلك الغلام محتاجاً إلى الشعور بالأمان، هذا الأمان الذي لم يذكره إلا القرآن الذي أنزله الله على قلب النبي الأمي محمد ﷺ سيد بني الإنسان، يبين لنا فيه عنايته بعبده في الشدائد والأهوال. فأين ضمير التوراة اليهودية عن مثل هذا الاهتمام بحال ذلك الغلام في ذلك الوقت العصيب، وما لها لم تذكر من ذلك شيئاً تلك التي تابعت في نفس السياق تذكر أن إخوة يوسف قعدوا للطعام، بل هي بعد سطر واحد من إلقاء يوسف تذكر قافلة الإسماعيليين وتذكر أنواع ما تحمل جمالهم من كثيراء وبلسانٍ ولادنٍ فكيف يمكن أن يقال إن هذا كلام الله الذي أنزله على موسى، وهو يذكر فيه أحمال جمال البضائع ولا يذكر شيئاً عن حمل تلك النفس الطاهرة المقذوفة في غيابة جب عميق. حاشا لله والله أكبر فقد والله كذبت التوراة المفتراة التي ألفها اليهود وصدقت التوراة المباركة التي

أنزلها الله على عبده موسى والتي لا نعرفها، ولا نشهد لها إلا من خلال القرآن المبارك الذي أنزله الله على عبده محمد خير المرسَلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فهذا فرقان مبين.

ثم إننا نكذبهم في قولهم إن البئر التي ألقي فيها يوسف كانت فارغة ليس فيها ماء. ونقول: إن الله أخبرنا في القرآن أنهم ألقوه في الجب والجب في اللسان الذي نزل به القرآن هي البئر التي يكون فيها ماء.. ونعلم من قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ بأن الجب كانت موضع ورود معهود وفيها للماء وجود. وهذا فرق مبين.

كذلك نكذبهم في قول نصهم إن يهوذا بعد أن ألقوا يوسف وجاءت قافلة الإسماعيليين قال لإخوته: ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه تعالوا نبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا فسمع له إخوته إلى قولهم... ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف ليس في البئر فكل ذلك من قولهم نكذبهم فيه ونقول إن الله قد قصّ علينا في القرآن أنواع إراداتهم التي كانوا بينها يترددون، فأخبرنا أنهم قالوا: ﴿اقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ فهاتان إرادتان.. وأخبرنا قول القائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ فهاتان أيضاً إرادتان اثنتان إرادة الإلقاء في الجب وإرادة أن يصير يوسف لقيطاً. فهذه أربع إرادات كانت منهم في يوسف علمنا من خبر القرآن أنهم أجمعوا على واحدة منها وهي أن يجعلوا أخاهم في غيابة الجب. ولا ندري هل هم لما أجمعوا على ذلك أجمعوا عليه لأن يلتقطه بعض السيارة أم كان فيهم من يريد ليوسف أن يهلك في الجب فذلك شيء لا نعلمه.. ولكننا نعلم يقيناً أن إرادتهم انتهت إلى إرادة واحدة وهي إلقاء أخيهم في الجب، ولم يخبرنا الله عن أي إرادة كانت منهم في يوسف بعد ذلك الذي فعلوه بإجماع. ومن هذا نعلم أن كبيرهم الذي لم تكن له إرادة في قتل يوسف قط ولا في طرحه أرضاً انتهى إلى إرادة إلقائه في الجب مع إخوته أجمعين.

وأما قول النص اليهودي: «واجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر» فإنهم هم أنفسهم سيكذبون هذا الخبر ويأتون بغيره وذلك بعد تسعة أسطر فقط إذ سيقولون: «وأما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط» فمن تسعة أسطر كان الإسماعيليون هم الذين أحضروه إلى مصر وباعوه ثم ها هم هنا صاروا مديانيين فيا ليت شعري أين عقولهم وكيف يكون مثل هذا وحياً من عند الله.

فصل
الذين استخرجوا يوسف من الجب كانوا عرباً

وانظر إلى خبر القرآن إذ لم يذكر إسماعيليين ولا مديانيين بل ذكر روح الحادث وأثره إذ قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ ويمكن أن نستنبط من خبر القرآن أن الذين استخرجوه كانوا عرباً لأمور منها:

أن العرب يفرحون بالغلام ويستبشرون به أكثر من غيرهم من الأمم.

ومنها: أنهم كانوا فيه من الزاهدين مع ما كان فيه يوسف من جمال، ولا نعلم أمة تزهد في جمال الغلمان إلا العرب.

ومنها: أنهم سرعان ما باعوه فكأنهم خافوا أن يأخذوه معهم إلى أهلهم فتفتتن به نساؤهم فغاروا على نسائهم منه وليست هذه الصفة لأحد إلا للعرب.

فانظر كيف تقوى الأدلة على أن مستخرجيه كانوا عرباً لا مديانيين ولكن يبدو أن كره اليهود وحسدهم لأولاد إسماعيل دعاهم إلى تغيير سياق الخبر الذي غفلوا عن محو أثر التغيير فيه فظلوا على رغم أنوفهم يقولون: وأما المديانيون فباعوه في مصر.

وهذا كما قلنا يعني أن الإسماعيليين هم الذين استخرجوه من البئر وهم الذين زهدوا فيه فباعوه في مصر أو باعوه لمن باعه في مصر. وفي هذا الاستنباط يظهر فضل الله على العرب وفضله بالعرب الذين جعلهم سبباً لنجاة عبده يوسف الذي ظهر فضل الله عليه بأن جعله سبباً لنجاة الخلق من الموت جوعاً.. ولكن أبغض شيء إلى اليهود أن يعترفوا بفضل أبناء إسماعيل عليه السلام عليهم ألا إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وفي هذا الذي بين القرآن وتوراة اليهود فرق عظيم.

ثم لا نصدقهم في إخبارهم عن مرور جماعتين بالجب وأن إحدى الجماعتين استخرجته فباعته للأخرى بل نعلم أن الذين استخرجوه لم يبيعوه مباشرة وسيان في ذلك أكانوا هم الذين باعوه في مصر أم كانوا باعوه لمن نقله إلى مصر فباعه فيها.

فقد ظل يوسف مع مستخرجيه بعد استخراجه فترة لا نعلمها ولكن نعلم منها أنه لم يكن وقتذاك جماعتان على الجب بل كانت هناك جماعة واحدة هم الذين استخرجوا يوسف فأخفوه حتى باعوه، علمنا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ فهذا فرقان مبين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ تأكيد ذلك فمعنى ﴿وَشَرَوْهُ﴾ هنا باعوه فإنه يقال في لغة العرب شريت بمعنى اشتريت وشريت بمعنى بعت ونفهم هنا من كلام الله الذي أنزل أحسن الحديث أن الله أكرَمَ نبيه يوسف عن لفظ يقال فيه باعوه وفي هذا الذي في القرآن عن قول نص اليهود وباعوه فرق مبين.

ونحن لا نصدقهم ولا نكذبهم في قولهم إن إخوة يوسف ذبحوا تيساً من المعزى وغمسوا القميص في الدم. ولكننا نكذبهم في قولهم: «وأحضروه إلى أبيهم وقالوا وجدنا هذا حقق أقميص ابنك هو أم لا فتحققه وقال قميص ابني وحش رديء أكله افترس يوسف» إلخ النص. ففي هذا النص أكاذيب تخالف قول الحق فقد قال تعالى وقوله هو

الحق المبين: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ ففي هذا البيان القرآني إظهار لحال النفس الخاطئة التي تلجأ إلى الليل لستر خطيئتها خوفاً من ظهور ضعفها وانكشاف أمرها لا سيما مع الوالد ولا سيما أيضاً إذا كان ذلك الوالد من أهل النبوة. وهم يعلمون أن أباهم نبي، وأنه متصل بالله الذي لا يخفى عليه شيء. فجاؤوه عشاء في زمن لم تكن المصابيح فيه تظهر من علامات الوجوه كما تظهر الكهرباء اليوم. فأين هذا من قول نصهم الذي لم يذكر وقت مجيئهم، ليلًا كان أم نهاراً، وأين هذا من وقاحة قول نصهم الذي قولهم إفكاً أنهم قالوا: «حقق أقميص ابنك هذا أم لا» فانظر إلى القرآن كيف ينفرد بذكر الأحوال النفسية، والزمن المناسب، ففي هذا فرق مبين.

فصل
من صفات إخوة يوسف في القرآن والتوراة المفتراة

ثم انظر إلى اتفاق سياق القرآن في قوله تعالى عن حوار يعقوب وبنيه: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾ فقد أخذوا من فيه ما خادعوه فيه، إذ رجعوا إليه يقولون: ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ وانظر إلى قولهم: ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ مما تعلم منه قِدَم رياضة العَدْوِ في الناس، وتعلم أن أولاد يعقوب كانوا شباناً لا كهولًا مما تقيس به الفرق بين أعمارهم وعمر يوسف، وإن كانوا إخوة من أمهات شتى، فإن توراتهم تقول إن أم يوسف وبنيامين ما ولدتهما إلا بعد زمن طويل. ونحن نصدقهم في هذا لأن الله أخبرنا أن يعقوب كان يخاف على ولده أن يأكله الذئب، مما يعني أنه كان صغيراً جداً بالنسبة إلى إخوته الآخرين. وفي هذا

التحديد لعمر يوسف، وفي ذكر القرآن لرياضة الاستباق، وفي الحوار الذي خادعوا فيه أباهم، وردّ عليهم فيه في كل ذلك فروقات كثيرة بين القرآن والتوراة التي ليس فيها من ذلك شيء. فهذا فرقان مبين.

ثم انظر إلى خوفهم من علم أبيهم وإلى هيبتهم منه وإلى تشكيكهم بأنفسهم، وذلك كله في قولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ فبين هذا وبين نص التوراة الذي جعلهم يتوقحون فيما قولهم إياه من قول يقول: «حقق أقميص ابنك هذا أم لا» فرق للناظرين مبين. فقد جعلهم نص التوراة المفتراة في منتهى الجرأة والوقاحة بعد الذنب.

وقد بيّن القرآن المبين غير ذلك منهم إذ هم في قولهم لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ كانوا ضعفاء بل كادوا بقولهم هذا أن يكونوا معترفين. فانظر واعقل وازدد علماً بهيمنة الكتاب المبين. ثم انظر إلى قول يعقوب في القرآن: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ فهذا خبر حق متفق مع مقام نبي يعلم من الله ما لا يعلم بنوه، وإذا كان الوالد العادي من الناس يكشف أكاذيب بنيه، فكيف بنبي مبارَك وحي الله يأتيه، وكيف في ابتلائه بأحب أهليه. فهذا الذي يناسب مقام النبوة من العلم... وليس في التوراة من هذا شيء فهذا فرق مبين. ثم انظر إلى ما يناسب مقام النبوة من الصبر والاستعانة بالله وذلك في قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ وليس في التوراة من مثل هذا حرف واحد فهذا فرق مبين.

فصل
من صفات يعقوب في القرآن والتوراة المفتراة

فأين هذا الحق الذي تطمئن له القلوب من النص اليهودي الكذوب، الذي جعل يعقوب على صورة لا تليق ببائع عليق، وارجع إلى نصهم إذ يقول: «فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه فأبى أن

يتعزى وقال إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية» وتالله إن اليهود إذ يُقوّلون يعقوب هذا القول وحاشاه منه، ليجعلونه جاهلًا بربه، وجاهلًا بنفسه، وجاهلًا بمصير يوسف، وجاهلًا بخداعهم له. أما في القرآن فهو عالِم بخداعهم إذ يقول: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ويتضمن هذا القول معرفته بسلامة يوسف وهو عالِم بنفسه إذ يقول: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وهو عالِم بربه إذ يقول: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ثم إنهم في نصهم جعلوه يحكم على ولده يوسف أنه في الهاوية أي في جهنم نعوذ بالله منها ونعيذ بالله منها أولادنا والمؤمنين. ثم جعلوه يحكم على نفسه أنه هو أيضاً صائر إليها في النهاية لا محالة، ولكن بما أنه فقد يوسف فإنه سيصير إليها نائحاً هذا عين معنى نصهم قاتلهم الله أنى يؤفكون. فانظر كم بين القرآن وبين هذه الضلالات من فرق مبين.

فصل
يوسف في مصر

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)﴾ فهذا بيان القرآن المبين.

وأما الذي يظن به الشبه بهذا من توراة اليهود فهو في بدء الإصحاح التاسع والثلاثين إذ ليس في الإصحاح الثامن والثلاثين عن يوسف شيء، بل فيه قصة عن يهوذا تخبر أنه زنا بكنته زوجة ابنيه على التوالي وأنها ولدت له فأعرضنا عن ذلك إذ لا شأن لنا به ونحن لا نصدقهم ولا نكذبهم فيه ونقول: الله أعلم بما يصفون.

يقول الإصحاح التاسع والثلاثون: «وأما يوسف فأنزل إلى مصر واشتراه فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط رجل مصري من يد

الإسماعيليين الذين أنزلوه إلى هناك، وكان الرب مع يوسف، فكان رجلًا ناجحاً، وكان في بيت سيده المصري ورأى سيده أن الرب معه وأن كل ما كان يصنع كان الرب ينجحه بيده فوجد يوسف نعمة في عينيه وخدمه فوكله على بيته ودفع إلى يده كل ما كان له وكان من حين وكله على بيته وعلى كل ما كان له أن الرب بارك بيت المصري بسبب يوسف وكانت بركة الرب على كل ما كان له في البيت وفي الحقل فترك كل ما كان له في يد يوسف ولم يكن معه يعرف شيئاً إلا الخبز الذي يأكل وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر».

قلت: انظر الفرق بين هذين النصين اللذين يبدوان بدءاً متشابهين.. وبلى إنهما متشابهان في أنهما يذكران من حياة يوسف زمناً واحداً.. ولكن هل يقصان نفس القصص كلا وانظر إلى النص اليهودي أين يدندن إذ ما يفتأ يدور في دوّامة بيت المصري الذي يذكره هنا خمس مرات «كان في بيت سيده المصري» «فوكله على بيته» «وكان من حيث وكله على بيته» «بارك بيت المصري» «على كل ما كان له في البيت» فإذا ذهبت تبحث عن البركة التي يريد النص أن يعلمك أنها نزلت بسبب يوسف على بيت سيده المصري فإنك لن تجد لها نزولاً إلا على متاع البيت والحقل فكأن الذي افترى هذا النص لم يعلم أن البركة تكون بالدين والإيمان قط وكأنه يخشى عليك أن تظن أن يوسف كان جائعاً أو كان عبئاً على سيده المصري فهو يطمئنك أن يوسف لم يجع وأنه لم يكن عبئاً بل كان رجلاً ناجحاً وحيث النجاح عند اليهود لا يكون إلا في مجال النقود فقد جعل النص من يوسف خادماً في بيت سيده المصري ثم رقّاه فجعله وكيلاً على ماله وجعل سيده يترك في يده كل شيء. فإذا عددت كلمات هذا النص وجدتها مئة كلمة وخمس عشرة مِن الكلمات، وقد علمت في أي معنى تدور.

فاخرج من بيت هذا النص اليهودي البائت وارقَ إلى سماء نص القرآن حيث ترى عدة كلمات الآية اثنتين وثلاثين كلمة فقط أي هي بعدتها أدنى من ثلث كلمات النص اليهودي فإذا أنت تدبرت كلمات

الآية وجدت فيها بحراً من المعاني. تعلم من بدايتها أنها تريد أن تكتم اسم ذلك الرجل الذي اشترى يوسف والذي فضحه النص اليهودي وزعم أنه كان خصياً، وسنرد على هذا في موضعه إن شاء الله. وإنك تفهم من الآية لعلمك بسياق السورة أن الله لم يرد أن يذكر اسم الرجل الذي راودت امرأته يوسف عن نفسه ستراً عليه وعلى امرأته وفي ذلك ستر على حرمات الناس وتعليم لهم أن يستر بعضهم على بعض. فإن للناس أنساباً وإن لهم أبناء يتعارفون على أنسابهم كل حين. فالحكيم العظيم الذي أنزل هذا القرآن هو رب الناس أجمعين. فهو يغار عليهم أن يعير بعضهم بعضاً، أو يطعن بعضهم بنسب بعض. فهذا فرق مبين.

ثم ارجع إلى الآية تجدها لا تحدثك عن بيت ولا عن حقل ولا عن خدمة ولا استخدام، بل هي تبين لك معدن نفس ذلك الرجل المصري الذي اشترى يوسف...

إن يوسف من الأطهار أحباب الله وليس الخوف على الأطهار أن تجوع بطونهم ولكن الخوف عليهم أن يدنس طهرهم.. لا سيما من كان منهم في مثل حسن يوسف وسنه وفي مثل ظروفه وهو غريب في بلد هي مصر التي لم يكن فيها شريعة إلهية تحمي أو تمنع أو تصون.

فهذه الآية تطمئنك على يوسف في هذه المرحلة التي هو الآن فيها كما طمأنتك عليه من قبل الآية: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ فاطمأننت.. ألا إن هذه الآية تقول لك لا تخف على يوسف فإن رب يوسف قد صيّر يوسف في بيت رجل أمين. وفي مثل هذا التفهيم الذي تفهمناه آيات القرآن فرق عما سواه مبين. وانظر إلى قول الرجل لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ فإن في هذه الآية بينات عن نفس ذلك الرجل وعن نفس تلك المرأة وعن حال ما بينهما وعن جو البيت المصري في ذلك الحين. ثم إن فيها فوق ذلك بياناً لما كانت عليه نفس يوسف.. ولما أحدثه من أثر في نفس ذلك الرجل الذي اشتراه.

فقد ابتدأ الرجل بأجمل الكلمات التي تدل على أجمل الصفات، ابتدأ بالكرم ﴿أَكْرِمِي مَثْوَنٰهُ﴾ وما الكرم.. إنه مفتاح القلوب.. وإنه الذي تحتاج إليه النفوس في كل حال ـ لا سيما نفوس الغرباء، ولا سيما أيضاً نفس غلام غريب كان كريماً على أهله فَأُبْعد وكان حراً فاستُعْبِدَ. فقال الرجل لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَنٰهُ﴾ والمثوى في اللسان الذي نزل به القرآن هو الموضع الذي يقام فيه. والثَّوِيُّ في لسان العرب هو البيت المهيأ للضيف ولا يكون إلا في جوف البيت تكرمة لمن يثوي فيه. والمعنى أن الرجل أمر زوجته أن تنزل يوسف في أحسن مسكنه وأن منزل يوسف هناك كان منزل ضيف كريم.

ألا فقارن بين هذا المعنى الذي ابتدأ القرآن فأعطاناه وبين قول النص اليهودي الذي ابتدأ فجعل يوسف خادماً في بيت المصري تجد كل فرق مبين.

وفي مثل هذا باب فروقات عظيم لأن الإكرام في اللسان الذي نزل به القرآن يعني غير الاستخدام فدع عنك قول اليهود.. وعد إلى بحر الجود.. من كلام الودود. فإن قول الرجل: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَنٰهُ﴾ يدل على كرم الرجل وكرم أنثاه.. إذ لا يأمر بالإكرام غير ذويه وهم لا يأمرون به غير أهليه. ويدل على أن الرجل كان يفوض إلى امرأته أمر منزله وأن في يديها فعل الإكرام.. وإنه ليدل أيضاً على أن يوسف كان في عيني الرجل أهلًا للإكرام. وفي قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أمور نعلم منها ما بدا للرجل من صفات في يوسف أثرت فيه. فهو لو لم يرَ من صفات يوسف ما يرجو معه نفعاً في عقباه لما قال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ ولو لم يثر فيه يوسف عاطفة الأبوة التي حرم منها،وحرمت من مثلها امرأته لما قال: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ ألا وإن في تعليق رجاء الانتفاع به بالمضارع دليلًا على أنه كان في سن لا ترتجى لانتفاع.

ثم يمكن أن نستنبط من قوله: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ معنى مراداً

متوجهاً آخر وهو أنه لما رأى من حسن يوسف فخاف على امرأته الفتنة فأوحى إليها بمعنى الولد ليكف عنها وسواس السوء. ألا وإن بين هذه المعاني القرآنية وبين التوراة المفتراة سياقاً من فروق بينات.

فعد الآن إلى الآية واتبع سياقها: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تجد أنه بسبب ما ذكرناه آنفاً مما أعطتناه بداية الآية أن تعلق قلب الرجل المصري بيوسف حصل التمكين ليوسف في أرض مصر ابتداء، فاربط هذا ثم اتبع سياق الآية: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ تجد لام التعليل هنا تبين أن ذلك التمكين ليوسف كان لتعليمه من تأويل الأحاديث.

فاخرج منها بكنز من فهم فحواه أن التمكين سبب لعلم التأويل فإذا أردت أن تبحث عن معنى هذا التمكين فلن تجد إلا عكس ما يقول النص اليهودي الذي جعل يوسف خادماً في بيت المصري إذ لا تجد يوسف في النص القرآني إلا في منزل إكرام. فاربط هذا بما كان يوسف فيه في حجر أبيه من راحة وإيثار أن كان لا يذهب مع إخوته كما يذهبون ولا يعمل كما يعملون. إذ هو في ابتداء الاجتباء كما مر معنا من قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ فإذا استحكم في قلبك ربط ما ذكرته لك فانظر في علم التأويل تجد أهله ليبرعوا فيه يحتاجون مع مقدماته من المواهب وأسبابه من الفتوحات إلى أوسع مجال من سكينة النفس وراحة البال.

فصل
علم يوسف بالتأويل

فإن قلت.. إن علم يوسف بالتأويل كان وحياً من الله إليه وما كان وحياً لا يحتاج إلى مقدمات وأسباب. قلنا: صدقت فإن كل ما كان متعلقاً بقدرة الله فهو كذلك ليس محتاجاً إلى مقدمات ولا إلى أسباب فإن الله قادر في أقل من طرفة العين على أن يجعل الأعمى

بصيراً، والجاهل خبيراً، فهو على كل شيء قدير. ولكنه سبحانه قدير حكيم إن شاء فعل بأسباب وإن شاء فعل بغير أسباب، وهو في كل ما يفعل حكيم قدير. ألا ترى أنه سبحانه جعل لنطق الأطفال بعد الولادة أسباباً من أمد زمان وحضانة إنسان، فالطفل الذي لا ينشأ بين الأنام لا يعرف الكلام، فهذه حكمة الله اقتضت وجود الأسباب. ولو شاء الله لأنطق بقدرته الأطفال عند ولادتهم بأفصح مقال كما أنطق في المهد عبده عيسى بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام. ونحن نعلم من كتاب الله أن الله آتى موسى حكماً وعلماً لما بلغ أشده واستوى كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ فهذه حكمة الله.

ثم نعلم من كتاب الله أن الله آتى يحيى الحكم صبياً كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ فهذه قدرة الله وهو سبحانه في قدرته حكيم، وفي حكمته قدير، لا ضد في صفات ذات الله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وقد شاء سبحانه أن يمكن ليوسف في الأرض ليعلمه من تأويل الأحاديث والله حكيم عليم ولو شاء لعلمه من غير تمكين وهو على كل شيء قدير. ألا فاعقل هذا ثم ارجع إلى الآية فاقرأ فيها: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ والمعنى لا يستطيع أحد أن يمنع مشيئة الله بل ما شاء الله كان. وانظر إلى مناسبة الآية في موضعها من السورة إذ هي فصل بين وصلتين من حياة يوسف بين ما مضى وما هو آت وهي في موضعها هنا تعطي السكينة للقارىء الذي يقرأ القرآن وإن كان يقرأ القرآن أول مرة حيث هو لا يدري ما سيكون في سياق السورة من بعد.. فإذا قرأ أو سمع ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ نزلت عليه السكينة التي تعطيه الثقة بقدرة الله الغالب على أمره.

ألا إن هذا القرآن لا يربط قلوب البشر بالثقة ببشر بل ما يربطها إلا بالثقة بالله.

وإذ نزلت السكينة على القارىء المبتدىء فقد تابع القراءة مطمئناً إلى حسن النهاية. كالضيف الذي جاء إلى جنينة الملك بإذن الملك وقد قيل له سترى في ممرها روضات ذات ثمار وأطيار لم تخطر لك على بال فيسير فيها مطمئناً واثقاً برؤية ما وعد. مشوقاً إلى الاكتشاف. ولكن الفرق بين آيات القرآن وبين جنينة الملك أن جهنينة الملك سيمل منها المتجول فيها بعد مرة أو مرتين أو مرات لأنها ذات حدود وانتهاء.

فصل
السلوك في القرآن

أما القرآن فلا ملل منه ولا حدود له ولا انتهاء فهو في كل مرة يهب سلوكاً وعبرة واحتواء. فسوف يربط السالك في روضات القرآن وقائع حياته في كل ما يراه أو يسمعه أو يحياه. فهو هاد يهديه وشافٍ يشفيه وكاف يكفيه. ففي كل آية من آيات هذا القرآن هداية وكفاية وشفاء كما أن في بعض آياته شفاءً خاصاً للمؤمنين. وحيث أن الله أرسل محمداً بهذا القرآن إلى الناس أجمعين وحيث الناس أجمعون يحتاجون في كل وقت إلى هداية وكفاية وشفاء، وحيث ضلالات الناس وحاجاتهم وأمراضهم على عدتهم إذ لكل منهم ضلة وحاجة وداء، إذاً ففي هذا القرآن هداية لكل ضلة وكفاية لكل حاجة وشفاء لكل داء.

وحيث كل إنسان يحتاج في كل وقت إلى الاهتداء والاكتفاء والشفاء إذاً ففي كل مرة يعطي هذا القرآن كل سالك هدىً جديداً واكتفاءً جديداً وشفاء. لأنه ما دام في الدنيا فهو في سلوك خطر، ولا نجاة من خطر هذا السلوك إلا بكتاب ذي صراط مستقيم يعطي في كل خطوة كل سالك مدداً جديداً للسلوك، ووقاية من خطر جديد في هذا السلوك. ولا كتاب يعطي ويقي في كل وقت كل سالك إلا هذا القرآن الذي يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم. وقد أنزل الله في هذا

القرآن آيات كل واحدة منها فيها لكل سالك على كل وقت وحال هدى وكفاية وشفاء. ومنها هذه الآية المعجزة المهيمنة: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ التي تُشهِدُ العبد قدر الله الغالب، فيسلم العبد لربه ويفوض أمره إليه، فيهديه ويكفيه ويشفيه، حيث لا يهدي ولا يكفي ولا يشفي إلا الله. فتبارك الذي أنزل هذا القرآن وأنزل فيه هذه السورة وأنزل في هذا الموضع من هذه السورة هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهذا الموضع الذي أنزل الله فيه هذه الآية هو حد فاصل في حياة يوسف. وإن فيه تعليماً لنا في حدود فواصل الحياة. ففي حياة كل منا محطات انتقال يتغرب فيها كما تغرب يوسف على شمول معنى الغربة في حياتنا أجمعين. حيث نرى أنفسنا في تلك الحدود الفواصل غرباء عن كل الأشياء حتى عن طاقاتنا التي كنا أعطيناها، فظننا أننا نملك بها القدرة على التصريف والتقدير. ولكن كلا فها قد زالت عنا تلك الطاقات وزلنا عنها ووصلنا إلى حيث لم نكن نعلم أو نقدر إذاً فلا مناص من التفويض والتسليم إلى الذي له الأمر والذي هو غالبٌ على أمره على كل حال.

ولا يعني هذا أن لا نعمل أو نحذر، كلا بل علينا أن نعمل وأن نحذر، بل لن يمكننا إلا أن نعمل ونحذر ولكننا نعمل ونحذر متوكلين مستعدين واثقين متوكلين على الله، لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله. ومستعدين إلى التسليم لأنه لن يغلب إلا أمر الله، وواثقين من العدل لأن الله لا يقضي إلا بالحق ولأنه هو الحق المبين. ألا فارجع الآن إلى الآية واقرأها من جديد: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ها أنت الآن تطمئن بأن أمر الله غالب لا محالة، وها أنت الآن تشهد التوافق المحكم بين ما مرَّ معك من غلَبَة أمر الله في أول السورة إلى حيث بُلغت من هذه الآية الكافية الهادية الشافية إلى حيث تواصل في اتباع. . فأعد النظر واسترجع واربط فقد أمر يعقوب يوسف أن لا يقص رؤياه على إخوته حذراً أن يكيدوا له فأطاع ولم يقص ومع ذلك كادوه وأرادوا قتله فنجاه الله من القتل وألقوه في

الجب فأخرجه الله منه ووقع في أيدي قوم سيّارين في الأرض، وهو غلام جميل، فكانوا فيه من الزاهدين، فنجاه الله من الهوان وأحضر إلى مصر، حيث كان يمكن أن يشتريه أي شرير فيفعل به الأفاعيل، ولكن الله غالب على أمره، فلم يَشْرِ يوسف إلا عزيز مصر فآواه الله. وقد كان يمكن أن يكون عزيز مصر جباراً أو ذا بنين فإذا هو عطوف عقيم فوقع منه موقع الولد من نفس أبيه فمكّن به له الله. ثم ها أنت تسلك من بعد هذه الآية في أحوال يوسف من بلوغه أشده وإيتائه حكماً وعلماً إلى مراودة المرأة له إلى استعصامه إلى تآلب النسوة عليه إلى السجن وأحوال يوسف فيه إلى الخروج منه إلى إعلان براءته إلى إيتائه الملك إلى قيامه بأمر الاقتصاد الغذائي في الأرض إلى مجيء إخوته ثم إلى مجيء والديه وأهله فإلى تحقق رؤياه حيث ترى غلَبَة أمر الله الذي وعده من قبل أنه سيتم نعمته عليه فأتمها وله الحمد كما وعد، والله لا يخلف وعده.

ألا فقارن أيها القارئ بين ما أعطتك إياه هذه الآية من الاتفاق بينها وبين كل سياق السورة وبين ما أشهدتك إياه من تصريف حق تشهده وتعلمه في نفسك وفي الناس وبين ما نفحتك به من ثقة وتسليم مما تعلم منه أنها تنفح بمثله كل إنسان. فقارن بين كل هذه الخيرات وبين ما ذكرته لك من نص التوراة المفتراة فماذا تجد؟ تجد أن هذه الآية هي شمس الروح وسلم الوصول ومعراج الجنان وتجد أن نص التوراة المفتراة حجر في ظلمة قبر عتيم. ثم ارجع إلى الآية الحق، والنص اليهودي فقارن بينهما مرة أخرى من باب القصص والتقسيم تجد أن الآية القرآنية قد استوعبت الصورة والصفة والحال والزمان والمكان والشعور والوجدان والعاطفة والانفعال والرجاء والتمكين والسبب والسبيل والغاية والقدرة والمآل. وتجد أنها نفخت فيك روحاً تخترق بها الأهوال، مفوضاً مسلماً إلى ربك ذي الجلال على كل مقام وحال.. فهذا نص القرآن الذي يُقْنِع العقول ويُطَمْئِن القلوب ويُفْهِم الأسماع ويُنْزِل السكينة ويُحْدِث الاعتبار.

فإذا رجعتَ إلى النص التوراتي اليهودي وجدتَ التكرير والاضطراب، وحصر النعمة في الطعام والشراب، ومداراً بين حقل وبيت وباب. فأين أنت أين.. من الفرق بين النصين إن كنت ذا عينين.. فهذا فرقان مبين.

فصل
قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ الآية كلها

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

هذه آية فارقة ليس لها في نصوص التوراة شبيه. فليس في التوراة أنه بلغ أشده في مصر وأن الله آتاه فيها حكماً وعلماً ولا أن الله كذلك يجزي المحسنين.

ما في التوراة اليهودية إلا أن يوسف كان يحسن الخدمة والوكالة في بيت سيده المصري. مع قولهم وكان الرب مع يوسف فلم يجعلوا معية الرب مع يوسف إلا في دائرة الخدمة والوكالة والأموال وفيما بين هذين فرق مبين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ دحض لدعوى اليهود أنه كان ابن سبع عشرة سنة وأزيد لما ألقي في الجب فإن هذه الآية تبين أنه حتى تلك الساعة التي كان بلغ أشده فيها لم يكن بلغ سبع عشرة سنة، إذ بلوغ الأشد في القرآن هو الإدراك وسن البلوغ وشاهده من القرآن وهو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ وقد قال أكثر أهل العلم: هو أن يدرك الاحتلام. فإن قيل: فإن بعض أهل العلم جعلوا بلوغ الأشد بعد الاحتلام. فأقول: ما جعلوه إلا فيمن لم يؤنس منه الرشد وحجتهم في ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾.

واقرأ الآية من أولها تعلم أن زمن استئناس الرشد هو بلوغ

النكاح وهي قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾.

فصل
الفرق بين اشد يوسف واشد موسى واستوائه

وقد نعلم أن من الناس من يبلغ القدرة على النكاح في سن العاشرة ولا نعلم أن أحداً يتأخر بلوغه النكاح إلى سن سبع عشرة سنة. ثم قد علم العالمون بكتاب الله أن الأنبياء ليس فيهم من لا يؤنس منه الرشد حتى قبل الاحتلام. ثم إن الله ذكر يوسف ببلوغ الأشد وبلوغ الأشد يكون في أول مراحل البلوغ فهو الزمن الأول الفارق بين الطفولة والفتاء كما تقول في سفر تقصد فيه إلى بلد فتقول: لدى مدخل ذلك البلد بلغنا البلد. فكذلك معنى بلوغ يوسف أشده وانظر الفرق المعجز بين الخبر عن يوسف وعن موسى عليهما السلام فقد قال تعالى عن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ فجمع لموسى بين أشد واستواء ولم يجمع مثل ذلك ليوسف فإذا ذهبتَ تفكر في حال كل من السيدين الكريمين عليهما سلام الله وجدتَ إعجاز القرآن المتفق الذي تشهد به الفطر والعقول. وهو أن يوسف كان غريباً يستشعر غربته، فهو كاليتيم الحساس ألمنتبه الذي يهيؤه يتمه إلى النضج المُبكر. أما موسى فقد كان بين أهله وذويه إذ أعاده الله إلى أمه وإذ كان له من زوجة فرعون حنان أم أخرى إذ نشأ بين دارين دار أمه ودار فرعون فمن هاهنا كانت نفس موسى مغمورة بالحنان والحب فاحتاج ليؤتى حكماً وعلماً إلى بلوغ أشد واستواء. فانظر إلى تناسب آيات القرآن في الخبر عن صفة كل إنسان. فإن قيل إن الله تعالى ذكر عبده المؤمن بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قلنا في هذه الآية هنا بلوغان اثنان: بلوغ أشد وبلوغ أربعين سنة. فهذه الآية تعلمنا أن مرحلة بلوغ الأشد تمتد إلى بلوغ الأربعين ثم تبدأ مرحلة أخرى هي

بلوغ الأربعين. واعلم أن هذه الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ليست في الأنبياء بل هي في المؤمنين الذين تكون لهم سيآت فيتوبون في مرحلة مداها ما بعد بلوغ الأشد إلى بلوغ الأربعين فهم خير من الذين يتوبون من بعد ذلك.

ألا ترى أنهم قد مدحوا لأنهم تابوا في مرحلة كان أقصاها بلوغ الأربعين بلى وستعلم ذلك من تلاوة الآية واتباع تلاوة ما بعدها وهو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وإنما احتجنا إلى هذا التبيان لكف وساوس الأذهان أن يقول إنسان: أين البرهان؟ ألا فهذا البرهان. ونعود إلى ما كنا فيه من بلوغ يوسف أشده في مصر وأن معناه بلوغ الاحتلام وأنه حتى ذلك الزمان كان في سن لم تبلغ سبع عشرة سنة خلاف ما يقول النص اليهودي وفي هذا فرق مبين.

فصل
الامتحان العظيم

ألا فارجع إلى الآية التي كنا فيها والتي تخبرنا أن يوسف كان قد أوتي حكماً وعلماً، ارجع إليها و انظر كيف تهيؤنا إلى الآيات التي تليها في انتظام متفق إذ هي تعلمنا أن يوسف قد بلغ أشده وأنه محصن بحكم وعلم وأنه من المحسنين فهي مثل المحطة لنا في سلوكنا إلى الله فيها ارتياح واستعلام واعتبار لأن الانطلاق منها سيكون انطلاقاً إلى امتحان عظيم قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا

بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ فهذه آيات الحق المبين.

وأما ما يظن أنه يشبه عموم هذا الخبر من توراة اليهود فهو قولهم وما زال السياق من الإصحاح التاسع والثلاثين: «وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت: اضطجع معي فأبى وقال لامرأة سيده هوذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت وكل ماله قد دفعه إلى يدي ليس هو في هذا البيت أعظم مني ولم يمسك عني شيئاً غيرك لأنك امرأته فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطىء إلى الله وكانت إذ كلمت يوسف يوماً فيوماً أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت فأمسكته بثوبه قائلة: اضطجع معي فترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة انظروا قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا دخل إليّ ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم وكان لما سمع أني رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج إلى خارج فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة دخل إلي العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبني وكان لما رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب إلى خارج. فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به، قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك أن غضبه حمي فأخذ يوسف، سيده ووضعه في بيت السجن المكان الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه وكان هناك في بيت السجن» فهذا كلام توراة اليهود. فإذا رجعت إلى

ابتداء هذا النص تجده يقول: «وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف» إلخ.. فقوله رفعت عينيها إلى يوسف لا يتناسب مع كون يوسف عبداً كما في سياق النص نفسه فإنما يصح أن يقال: رفعت عينيها إلى من هو أعلى منها منصباً أما يوسف فكان أدنى في عينيها منها. فكان حق الكلام أن يقال: مدت عينيها ليتناسب. فهذا ابتداء النص اليهودي... ألا ومن تدبر الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾ وبين قول اليهود: «ورفعت عينيها» وجد أن كلمة راودته قد تجاوزت معنى النظر إذ علم من سياق الحوادث أن المرأة كانت قد رأت يوسف كثيراً إذ هو في بيتها.

فإن كان معنى لأن يقال رفعت عينيها إلى يوسف فلا معنى لأن يجعل هذا القول مدخل ابتداء كما جعله النص اليهودي. ألا ولا يظنن ظان أننا نريد هنا أن نقارن بين بلاغة القرآن وتوراة اليهود كلا فقد علم العالِم والجاهل أن كل بلاغة لسان تزول أمام القرآن ولكننا نقارن بين لفظين من نصين في سياقين لو وجد مثلهما في كل لغة لعلم أن راودته أنسب من رفعت عينيها إليه حسب سياق الحوادث في كلا النصين. ألا وإن بين ما تلونا من الآيات البينات وبين هذا النص من التوراة المفتراة فروقات فارقات بينات ولو أن قائلًا قال لنا دع الآن المقارنة والفروقات وحدثنا عن هذا النص اليهودي بالذات فأين ما ترى فيه من عثرات.. لقلنا إذاً للأسماع إن الحق ذو إقناع وإن الباطل ذو قناع وما نص هذي الرقاع إلا كأطلال قاع فَعِ القول واع واسكت صوت وعواع.

وإنا نبدأ فنقول: لو لم يبعث الله إلينا الرسول وينزل عليه الذكر الجليل الذي هدانا به إلى سواء السبيل ثم جاءنا هؤلاء اليهود فقالوا: هذه توراتنا جاءنا بها موسى من عند الله.. فأخذناها منهم فقرأناها لقلنا لهم: حاشا أن تكون هذه من عند الله. فإن قالوا وما يدريكم أنتم أنها ليست من عند الله وليس معكم كتاب ولا برهان؟ فحينئذٍ نقول: إننا لما نظرنا في نظام هذا الكون علمنا أن له خالقاً عظيماً لا

شريك له لأنه ليس في خلقه خلل ولا نقصان. فلما قرأنا توراتكم رأينا فيها خللًا ونقصاناً، فعلمنا أنها لو كانت من عند الله خالق هذا الكون لانتظمت وتآلفت كما انتظمت وتآلفت كل ذرات هذا الكون. ونقول لهم: إما أن يكون موسى كذب عليكم وإما أن تكونوا أنتم على موسى تكذبون. فكذلك كنا سنقول لأصحابِ التوراة المفتراة لو لم يبعث الله إلينا محمداً ﷺ فأما وقد بعث الله محمداً ﷺ والحمد للّه على ذلك كثيراً فإننا نقول: لقد صدق موسى وبآبائنا وأمهاتنا وأنفسنا نفتديه على محمد وعليه صلوات الله وسلامه إلى الأبد.

فقد علمنا مما جاءنا به محمد ﷺ أن موسى كان صادقاً، وأن اليهود هم الذين على كتاب موسى يفترون.

أما هذا النص الذي أطلنا مقدمة القول فيه فإننا إن أردنا أن ندافع عنه فسنبقى ندور في أطلال أنقاض ودوّامة افتراض. وقد اشترطنا على أنفسنا أن لا نحتج عليه الآن بسواه. ألا فارجع إليه وتدبر في فحواه.. فإنه جعل المرأة تصرح برغبتها مباشرة إذ تقول ليوسف: اضطجع معي هكذا من غيرما مقدمات وليس هذا من طبيعة السيدات.. لا سيما بين امرأة وشاب عاش في بيتها سنوات، فإن قيل: فافترض أنها قد قالت ذلك وأنها من ذلك النوع من النساء اللائي لا يصبرن عن الشهوات.

فحينئذ نقول: بل إنّ النص يجعلها أصبر الصابرات إذ يزعم النص أن زوجها كان خصياً وأي صبر أعظم من صبر امرأة زوجها خصي. ومع أننا لا نعلم كيف يكون الخصي زوجاً لكننا نعلم حسب قول هذا النص أنها كانت عذراء، وإذ هي عذراء فما من عذراء تبدأ أن تقول لرجل اضطجع معي هكذا من غيرما مقدمات. فإن قيل: فافترض وجود عذراء تقول مثل هذا المقال فحينئذ نقول: إن الذي يكون وحياً منزَلًا من الله فإنه يكون على قياس المعلوم المشهور الذي يقنع عقول الناس لأن الكلام هنا يتعلق بحال من أحوال النفس

الإنسانية، وما كان متعلقاً بأحوال النفس فلا بد له من دليل يعلمه الحس. فلو افترضنا وجود عذراء على شاكلة تلك المرأة فإنها ستكون في خيال الروايات لا في وحي ذي آيات بينات أنزله رب الكائنات فإننا نعقل من الوحي الحكمة والتمام ليكون حجة على الأنام. ثم لو كانت عذراء وزوجها خصي ووقع منها ما قيل فإثمها قليل، ومن كانت كذلك فهي أحوج إلى أن ترحم وأن تلتمس لها الأعذار لا أن تنزل فيها الآيات وتفضح على رؤوس الأشهاد حاشا للّه الحليم الكريم أن يظلم العباد.

فإن قيل: دع قول عذراء هذا وافترض أنها كانت غير عذراء فهي زوجة رئيس الشرط فما يمنع أن تكون لها علاقات واتصالات مع بعض شرط زوجها أو خدم قصرها ثم رأت يوسف فأعجبها فأحبت أن تنال منه. قلنا: فإنه يمنع من هذا الوهم المفترَض سياق النص اليهودي نفسه.. فإنه يجعل يوسف يقول للمرأة إن سيده دفع إلى يده كل ما له وكل ما في البيت حتى صار يوسف أعلم بمال سيده من سيده نفسه وأن سيده لم يمسك عنه شيئاً سواها لأنها امرأته وهو من قبل يقول إنه وكله على كل بيته والوكيل لا يكون إلا أميناً وكذلك النص يثبت ليوسف. والمعنى وإن كان سيد يوسف أمسك عنه المرأة أن ينالها ولكنه لم يمسك عنه أن يكون أميناً عليها، فهو يساكنها في بيتها يراها وتراه، فلو كانت تلك المرأة عاهرة من قبل تحرشها بيوسف لكان بدا ليوسف شيء من حالها بعد تلك العشرة لا سيما وأن النص يقول وكان الرب مع يوسف والذي يكون الرب معه يبصره بالحقائق وينطقه بالصواب أم لا يريد النص اليهودي أن يفهم من معية الرب إلا مدد النجاح في الخدمة والأموال. فلو رأى يوسف منها عهراً فلن يقول لها بعد ذلك ما قوله النص إياه «هوذا سيدي لم يمسك عني شيئاً غيرك لأنك امرأته» لأنه لا يأمن حينئذ أن ترد عليه فتقول: إنك تعلم أن سيدك لم يستطع أن يمسكني عن غيرك من شرطته وخدمه فكيف يمسكني عنك وأنت أعز عليه من أولئك إذ أنت من وكلك على بيته

وماله. فإن قيل: دع قولك لو كانت عاهرة لبدا ليوسف حالها وافترض أنها كانت عاهرة في السر لم يعلم بعهرها يوسف ولا زوجها. قلنا: لو كانت عاهرة في السر لكانت صبرت على يوسف لما خرج من عندها رجاء محاولة أخرى ولما كانت نادت على أهل بيتها كما قولها النص فإن عاهرة السر لا تكون إلا خائنة، والخائن لا يكون إلا جباناً، والجبان لا يوقع نفسه في مزالق التهم والظنون. ثم إن أهل بيتها ليسوا إلا خدماً عندها فكيف تدعوهم لتشكو إليهم تحرش عبدها بها وهي سيدتهم جميعاً. . ثم لو كانت عاهرة في السر واستطاعت أن تخفي عهرها عن زوجها وعن يوسف فلن تستطيع أن تخفيه عن خدمها لحاجتها إليهم في التستر عليها، فهم يدخلون إليها سراً من تريد، أو يذهبون بها سراً حيث تريد، والمرأة في تلك الحال لا تستخدم إلا الخدم الذين تثق بهم فهم يكتمون. ولو كانت كذلك فلن تناديهم لمثل ذلك ولن تقول ما قولها النص إياه من كلام العفيفات الطاهرات. فإن قيل: فهب أنها استطاعت أن تخفي حالها عن كل من في بيتها أو لم تستطع ومع ذلك فقد توقحت وقالت ما قالت من كلام العفيفات وهي تعلم أنهم في باطن من أنفسهم يسخرون منها، وإنما كان مرادها أن تستر نفسها أمام زوجها خوفاً من يوسف أن يفضحها فسارعت هي فاتهمته قبل أن تنكشف.

قلنا فيمنع من ذلك أن النص يقول إنها كلمت يوسف يوماً فيوماً ولم يسمع لها فيضطجع معها ومع ذلك فقد بقي يدخل عليها فلا هو فضحها أمام زوجها ولا هو امتنع عن الدخول عليها فقد علمنا من النص أنها كانت من يوسف في أمان إذ علمت أنه لن يفضحها ولن يثير الشكوك حولها بترك الدخول عليها. فإن قيل: فهب أنه لما ترك ثوبه وخرج خافت أن يرى زوجها الثوب فافترت عليه لتخلص نفسها من زوجها إذا سألها عن شأن الثوب. قلنا: فما كان أيسر عليها أن تتخلص من الثوب لو كان هو ما تخشاه لا سيما أن النص يقول إنها بعد خروج يوسف وضعت ثوبه بجانبها حتى جاء زوجها وهذا يعني

أنها كانت في متسع من الوقت لتتخلص من الثوب. فإن قيل: دع كل هذا وافترض أنها كانت قد يئست من يوسف أن يطاوعها من بعد إبائه عليها يوماً بعد يوم فأرادت أن تنتقم منه، فلما رأته وقد ترك ثوبه فانقدحت في رأسها فكرة الاتهام. قلنا: فيمنع من هذا أنه لا يمكن أن ينزع المغصوب ثوب الغاصب وإن كان يمكن أن يمزق شيئاً منه. أما الغاصب فيمكنه أن ينزع ثوب المغصوب كما يمكنه أن يمزقه كله. فإن قيل آخر الأمر: فهب أن مغصوباً قدر أن ينزع ثوب غاصبه قلنا: فحينئذ سيكذبها زوجها والناس أجمعون إذ سيقولون إن من تجرأ على أن يهجم على مولاته لاغتصاب فلن يجبن عن أخذ ثوبه في إياب. وهكذا كلما افترض افتراض اعترض اعتراض يحكم على هذا النص النضناض أنه خالي الوفاض إلا من الأنقاض. فهذه ثغرات هذا النص المثقوب الذي يدعي كل يهودي كذوب أنه بيد الله مكتوب. فدع هذا الإسفافْ إلى حيث لا خلافْ إلى ذكر ذي ألطافْ.. فيه الأحقاف وقافْ.. والحج والأعراف.. وجنات ألفاف، مخضرة الأكناف.. ضوءها كشاف.. ومعانيها قطاف.. وينبوعها صاف.. كافٍ شافٍ وافْ.

فصل
مراودة المرأة ليوسف

تبدأ الآية القرآنية بقوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ والمراودة في اللسان الذي نزل به القرآن من الإرادة برفق ولين. ومنه الرَّوْدُ وهو في اللغة التأني ومنه قول العرب مشى رويداً أي برفق ولين فالمراودة هي الترفق والتأني في الطلب. أي مهدت إلى ما تريد منه برفق.

وانظر إلى تناسب المعنى في قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ فحيث هو في بيتها إذاً فلتبتغِ ذلك منه برفق وتأنٍّ فليس هو كعابر سبيل تعجله على ما تريد. بل هو في بيتها أي تحت يدها وأمام

عينها إذاً فلتترفق في بلوغ مرادها منه ولتدن منه بأناة.. فهذه الجملة من الآية: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ تمثل لنا أسلوب تلك المرأة وتحسسنا بمشاعرها عندما عزمت أن تنال يوسف. فهذا ابتداء الآية القرآنية وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ زيادة توكيد على تمكنها منه وتنزهه عن المعصية. وفي قوله تعالى: ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ بيان أن لو أعطاها مرادها منه لكان أعطاها نفسه. فانظر إلى خطر المعصية على النفس، واذكر أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، فليس للمؤمنين أن يتصرفوا بأنفسهم أو أموالهم إلا في طاعة الله. وانظر من الآية إلى استطاعة المرأة فإنها تستطيع أن تراود وأن تأخذ النفوس. ثم انظر من الآية العبرة التي تحدثها في الأسماع إن فيها تنبيهاً وتحذيراً لأولئك الذين يدخلون على نسائهم الرجال الأجانب ويخلون بينهم وبينهن الذين يزعمون أن نساءهم فوق الافتتان أو أن أولئك الرجال فوق العصيان. كلا فها هي امرأة تراود من دخل بيتها غلاماً صغيراً فشبّ فيه وبلغ أشده وهو في مقام الولد منها وقد دُعيت إلى أن تكون أماً له.. وها هو نبي كريم ما منعه أن يهمّ بها إلا أن رأى برهان ربه. فيا ليت شعري إن قال الرجال اليوم إن نساءنا أطهر من تلك المرأة فهل يجترىء أحد منهم أن يقول إنه مثل يوسف. فما لكم أين تذهبون. فلا والله ما يخرب بيوت الناس اليوم شيء كمثل دخول الرجال الأجانب على النساء فذلك الداء الذي ليس له دواء إلا العف والكف والمتاب.

بينا هما عيشهما توافُقُ ... ليست تُرى بينهما فوارقُ
كلاهما مُعَشَّقٌ وعاشقُ ... والحب شيءٌ فيه لا يُنافَقُ
إذ طرق الباب دخيلٌ طارقُ ... يقول إني صاحبٌ مُصادقُ
والمرءُ ضيفاً أو مضيفاً حاذِقُ ... وكُلُّ مرءٍ فيه شيءٌ بارقُ
إذاك قامَتْ مُقَلٌ روامقُ ... تَفَتَّحَتْ أمامها غلائقُ
والحب في القياس عبد آبقُ

فأفصحت عن الهوى نواطقُ — ألسنةٌ فواعلٌ خوارقُ
فزايل الزوجية العلائقُ — وانفصمت من بينها الوثائقُ
حينئذ والأمر حق صادق — تشهده بأسرها الخلائقُ
إما امرؤ قرونه شواهقُ — أو مرأة يقال أنتِ طالقُ
وللبنينَ الخنقُ والمشانقُ

فدع هذا وعد إلى قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ ثم انظر إلى هاتين الكلمتين فإن فيهما صورة لمن تدبر.. فقد قال تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ﴾ ولم يقل وأغلقت ولو قال وأغلقت لاحتمل القول معنى أن تكون أمرت أحداً أن يغلق لها الأبواب أما: «غلقت» فمعناه أنها غلقتها بيديها لا بيد غيرها فإن بين «فعل» و «أفعل» فرقاً في لغة العرب وقد يأتي بعض بمعنى بعض ولكن أكثر ما يأتي فعل بمعنى باشر الفعل بنفسه. فلا ريب أن المرأة صرفت هنالك الخدم وانفردت بيوسف وغلّقت بيديها الأبواب. فإن حاجنا أحد في ذلك أن يقول من أين استنبطت ذلك؟ فأقول: إني والحمد لله استنبطته من قوله تعالى في أول السورة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ فحيث قصص هذه السورة هو القصص الأحسن.. وحيث مجيء (فعل) بمعنى باشر الفعل بنفسه هو الأكثر والأكثر أحسن.. وحيث يراد ليوسف أن يكون في الامتحان الأحسن.. وحيث معنى غلقها الأبواب بيديها يعني أنها صرفت الخدم والحشم وفي هذا شدة إغراء ليوسف واطمئنان أحسن. فكان امتناع يوسف من خشية الله وحده لا من خشية أحد سواه وفي هذا المقام الأحسن.

ثم ارجع النظر في قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ ألا ترى كيف يقول لك هذا القولِ الحق إنها هي غلقت الأبواب لا سواها لأنها أبواب عدة وليست باباً أو بابين. فلو أنها أمرت غيرها أن يغلق لها الأبواب فلن يستطيع أن يغلق لها إلا آخر الأبواب ثم هي ستغلق الأبواب الأخرى. فإن قلت: فيمكن أن تكون أمرت أحداً بإغلاق

الأبواب فابتدأ من الباب الأول الذي يليها ثم ارتجع يغلق سائرها. فنقول: إن هذا لا يفي بالغرض الذي تريده إن كانت تريد طمأنة يوسف فهو لن يطمئن حتى يرى بعينيه إغلاق كل الأبواب ولا سبيل إلى ذلك إلا بالابتداء بإغلاق آخر الأبواب ثم رجوعاً إلى الذي يليهما باباً من بعد باب. فهذا شرح مبين. ثم انظر إلى التناسب في خبر القرآن إلى تناسب ذكر الأبواب مما يتناسب معْ كونها زوجة العزيز فهي تسكن في بيت فخم مما يتناسب مع ما تعلم من أن مصر كانت في ذلك الزمن أم العمران والقصور مما يتناسب مع ما مر معك من قول زوجها: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ أي نزله مما يعني أن البيت قصر ذو غرف بعضها أحسن من بعض، وإذ هي أكرمت مثواه فهذا يعني أنه كان في غرفة قريبة من غرفتها أي في صدر البيت وإذ هو كذلك فهذا يتناسب مع كونها كانت تراه كثيراً وتحس بوجوده قربها وتحلم به مما يتناسب مع معنى المراودة التي معناها التمهل والترفق والتأني. ونكاد هنا نتراءى أن غرفته كانت لصق غرفتها.. وأنها دعته إلى غرفتها من قبل أن تغلق الأبواب بحيث أرته أنها تغلقها ليطمئن. ويمكن أن نرى من خلال هذه الآية صورة لأشكال دواخل البناء عند المصريين القدماء وهو أن غرفة السيد تكون في صدر البيت ويمتد أمامها ممر ذو أبواب وصحون إذا فُتحت كلها تراءى منها فناء الخدم أو الباب الخارجي للدار..

فمن هاهنا نكاد نرى والله أعلم أن يوسف كان في غرفتها أو على باب الغرفة وهي تغلق الأبواب أمام عينيه باباً باباً وهو يقف حيث كانت دعته فاستوقفته لا يدري كيف يفعل إذ لم تكن صرّحت له بمرادها منه حتى تلك الساعة وإنه ليمكننا أن نستشف شيئاً من شعور ذلك الشاب الخجول المبارَك وهو يراها تغلق الأبواب. فهو في حيرة معها من أمره يمنعه الخجل أن يبدأها بكلام، وهو بين ظن ويقين من علمه بمرادها من إغلاق الأبواب إذ أنبأنا الله سبحانه أنها كانت قد راودته ولكن طبع يوسف إحسان الظن وكذلك طبع المرسَلين. فهو

ينتظر على تربص وقلق حتى إذا انتهت من آخر الأبواب جاءته تقول: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ هنالك ثمة لما أيقن من مرادها فقال: معاذ الله.

فإن قال قائل: سلمنا لك أنها أنزلته في غرفة قريبة من غرفتها لقول زوجها: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ ولأن المثوى يعني ما تقول.. ولكن من أين استنبطت أنها استدعته إلى غرفتها وأنها لم تذهب هي إلى غرفته؟ فأقول: إن ذلك في قولها له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ فهي على كل قراءة لا تحتمل إلا هذا المعنى الذي ذكرته لك. فعلى قراءة ابن مسعود وهي أقوى القراءات ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بمعنى هلم وتعال وأقبل ولن تقول له مثل ذلك إلا وهي تدعوه إليها. ولن تدعوه إليها إلا إذا كانت في غرفتها أو إذا كان هو واقفاً على باب غرفتها منجفلًا متردداً لا يدري حقيقة ما تريد من غلق الأبواب. وهي على قراءة من قرأ: «هِئْتُ لك» أي جئت وهذا يناسب انتهاءها مما كانت فيه من غلق الأبواب ومجيئها إليه. وهذه القراءة فُسرت تفسيراً آخر لا تقبله اللغة وهو على معنى تهيأت لك ولكن حتى على هذا التفسير الشاذ الذي لا تعرفه العرب يبقى المعنى مناسباً أن تقوله له بعد إغلاقها الأبواب أمام عينيه. وأما على قراءة من قرأ «هِئْتَ لك» بفتح التاء فمعنى «هئتَ» أي حَسُنْتَ ومعنى «لك» أي لك أقول وإياك أعني ومجمل المعنى على هذه القراءة أنها تقول له: حسنت هيأتك أي ما أجملك فهي تغازله، وهذا أيضاً يناسب مرجعها إليه من بعد إغلاق الأبواب أمام عينيه فكأنها وقد رجعت لاهثة الأنفاس لقيامها بما لا عادة لها به من عمل الخدم فرأته أمامها فاستخفها حسنه على ما فيها من خفة العشق فلم تملك نفسها إلا أن تغازله وهي تريه أنها لم تعمل كل هذا إلا من أجله.. فهذا معنى ما ذكرت من القراءات وما بقي منها فلا يخرج عن معنى تلك.

ثم إنه يشهد لهذا الاستنباط ويؤكده قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ فقد بيَّنت الآية أنه هرب منها وهو لن يهرب منها إلا إذا كان هو في غرفتها. فإن قيل: فما يمنع أن تكون هي جاءت إليه في

غرفته فلما رأى منها ذلك ترك لها الغرفة وولى؟ فأقول: يمنع من ذلك أن الباب الذي ألفيا سيدها لديه هو باب غرفتها لأنه لو كان باب غرفة يوسف فلن تستطيع حينئذ أن تقول: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ لأنه سيقال لها عند ذلك: بل أنتِ ما شأنكِ هنا وماذا تفعلين في غرفة هذا الشاب..؟ فلما كان هوَ في غرفتها فناسب ذلك أن تدّعي أنه أراد بها السوء. ثم إن هذا كلهُ يناسب طبيعة المرأة لا سيما إن كانت أسن ممن تروم ولا سيما إن كان مَن تروم شاباً خجولًا أعزب وهو يساكنها في بيتها فإنها لن تبهره في غرفته كما تبهره في غرفتها التي يمكن لها أن تصول فيها وتجول.

فانظر إلى ما أعطتنا الآية القرآنية في ألفاظ يسيرة من صور كثيرة جعلتنا من حال يوسف والمرأة على بصيرة. فأين من هذا نص اليهود الذي لا يعرف منه الباب من العمود فهذا فرق مبين.

فصل
من صفات المرأة في القرآن والتوراة المفتراة

ثم انظر الفرق المبين بين ما يمكن أن نستخرج لتلك المرأة من صورة من القرآن ومن توراة اليهود. فتصوير النص اليهودي لها يريناها امرأة شهوانية كاذبة ظالمة حمقاء ضعيفة الرأي تستنجد بأهل بيتها ليس وراء هذه الصفات حرف واحد لتلك المرأة في توراة اليهود.

وأما الصورة التي يمكن أن نستخرجها لتلك المرأة من القرآن المبين فهي امرأة عزيزة على زوجها حاكمة في بيتها لقوله لها: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ وهي من اللائي يحتاج الرجل معهن إلى الإقناع لقول زوجها لها: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وهي لا ولد لها وترجو الولد إذ كأنه يقول لها إن لم تلدي اتخذنا هذا ولداً وانظر كيف قدم رجاء الانتفاع به وأخر رجاء اتخاذه ولداً.. وهي تمهد لمرادها إذ راودته

وقد كان له في بيتها زمان بلغ فيه أشده.. وهي إذا عزمت اجترأت إذ غلّقت الأبواب وهي تصرّح برغبتها بألطف مقال إذ قالت ليوسف: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ وانظر إلى قولها هذا فإنه خمسة أحرف ثلاثة منها من أحرف الهمس وفي هذا بيان لما كان منها من غنج وصوت رخيم. وهي رشيقة القوام خفيفة الحركة إذ ما أن ولى منها يوسف جارياً حتى لحقت به وجارته في سرعة جريه وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ فلو لم تكن رشيقة خفيفة لما وصلت وإياه إلى الباب.

وفي هذا أمران آخران أحدهما: أنها كانت من سنها في شباب. والثاني: أنها كانت من ردة الفعل لدى يوسف في احتساب. فإنه مهما طالت مسافة ما بين الغرفة والباب فلن تعطي الغافل فرصة أن يلحق بمن فر منه فجأة في وِثَابْ. فمن هاهنا نعلم أنها كانت على حذر من يوسف أن يفر. فكأنا نراها في موقفها هناك إذ هي تحصر يوسف وإذ عيناها عليه مسلطتان.. وإذ هي تقرأ في عينيه إباءً لما تدعوه إليه فلما قال ما قال وغلب التقى والحمد لله وعلمت منه نية الفرار هنالك كانت متحفزة للوثوب عليه فما أن تحرك للفرار حتى لحقت به فأدركته فانقضّت عليه فقدّت قميصه. فما فاجأها من يوسف فعل هنالك أو قول كلا بل كانت تنتظر منه مثل ذلك أن كانت تعلم عفته وتقواه.. فانظر إلى تناسب القرآن في إثبات الصفة والفعل والحركة والانفعال.

فهذا فرقان عظيم.. وهي من الدهاء على قدر تعجز عنه النساء وسيمر معنا من دهائها وهي نشطة الفكر حاضرة البديهة عبقرية اللسان يستحضر لسانها من فكِرها من القول ما يقلب به الأمور وهي فطنة خبيرة بالنفوس وهي ذات نفس فيها وجدان من الخير يغلب على ما فيها من وجدان الشر عاقبة الأمر وهي فوق ذلك آية في الجمال والدلال وسترى كل ذلك إن شاء الله في موضعه من هذا الكتاب ببرهان. فانظر الآن كم بين القرآن وتوراة اليهود من فرق مبين.

فصل
الشمس والشمعة

فقاتل الله الكاذبين الذين يقولون إن محمداً ﷺ أخذ من التوراة. وأي توراة هذه التي عند اليهود حتى يأخذ محمد ﷺ منها والذي جاء به محمد ﷺ أضوأ من الشمس والذي عند اليهود من النور مثل الشمعة فكيف تأخذ الشمس ضوءها من الشمعة فكيف يقيس الكاذبون.

ألا فليمت أعداء محمد ﷺ بغيظهم موتاً من بعد موت وليمت أعداء القرآن.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هذا قول الكتاب المبين. إن قيل هنا: أين الفرق بين قول يوسف في القرآن: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ وبين ما جاء في النص اليهودي إذ قال للمرأة: «هوذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت وكل ما له قد دفعه إلى يدي ليس هو في هذا البيت أعظم مني ولم يمسك عني شيئاً غيرك لأنك امرأته فكيف أصنع هذا الشر وأخطىء إلى الله» قلنا: إذا تدبرتم يسيراً رأيتم بين القولين فرقاً كبيراً، فهو في القرآن يبدأ بذكر الله متعوذاً به وهو في النص اليهودي يذكر الله آخر الأمر. ثم هو في القرآن يشكر الله وفي النص اليهودي يشكر سيده المصري. وهو في القرآن يتعوّذ بالله معاذاً وحتى تزداد علماً بالفرق بين القولين فافهم معنى التعوذ الذي ثبت ليوسف في القرآن والذي ليس في التوراة منه شيء. فإنه لما قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ جاء بمصدر الفعل وحيث أن المصدر أصل الكلمة التي يصدر عنها صادر الفعل ففي حذفه الفعل واستكفائه بالمصدر أعظم توكيد للعوذ. والمعنى أن عوذ الله هو الذي يعيذني وهذا أقوى هنا من توكيد المصدر بإثبات الفعل لنفسه كأن يقول: أعوذ بالله معاذاً. . إذ أنه بحذفه الفعل هنا إنما هو يحذف فعل نفسه ويعلن عجزه عن الفعل ويقول إن معاذ الله أي عصمة الله وحماية الله وكفاية الله هي التي تعيذني وتعصمني وتحميني وتكفيني لا فعلي. فهذا فرق مبين.

فصل
لم يرد يوسف بقوله ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ إلا ربه الحق الله رب العالمين

ثم ابتدأ بعد ذلك يقول وهو في عوذ الله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولا يجوز هنا أن يقال إن الضمير في ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ يعود للرجل الذي اشتراه كلا بل هو لله لأنه هو ربه لا سواه وحاشا ليوسف أن يتخذ ربين ومن تدبر آيات السورة استبان، فارجع إلى كل آية جاء فيها ذكر رب يوسف تجد أن لا رب له إلا الله.

وذلك من لدن قوله تعالى في أوائل السورة: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ إلى آخر السورة. فرب يوسف هو الله الذي اجتباه لا سواه هو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين. وهو ربه الذي أراه البرهان الذي صرف به عنه السوء كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ وهو ربه الذي استغاث به من كيد النسوة لما قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وهو ربه السميع العليم الذي استجاب له كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ وهو ربه الذي دعا إليه صاحبَيْ السجن وكل أهل السجن إذ سفه ما كانوا يعبدون من دونه كما في قوله تعالى عنه: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ وهو ربه الذي اعترف له بأنه علَّمه كما في قوله تعالى عنه لما دعاه صاحبا السجن إلى التأويل إذ قال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ﴾ وهو ربه الذي شهد له بالربوبية لما أرجع رسول الملك كما في قوله تعالى عنه: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وهو ربه الذي شهد له بالربوبية لما قال لأبيه إذ هو عزيز مصر وقد

سجد له والداه وإخوته فلم يقل إن ملك مصر ربي وقد ناله من الخير بسبب ملك مصر أكثر مما ناله بسبب من اشتراه فقد أعلن وهو في ذلك المقام بقوله لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهو ربه الذي شهد له بالربوبية عليه في إيتائه الملك والتأويل وفي خلقه السماوات والأرض وفي أنه لا يرضى بغيره ولياً في الدنيا والآخرة، وفي أنه يدعوه أن يتوفاه مسلماً ويلحقه بالصالحين. كما في قوله تعالى عنه: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ فهذا برهان مبين أن يوسف لم يتخذ رباً إلا الله رب العالمين. ألا فاصفع بهذا وجوه الجاهلين الذين يجعلون أنفسهم مفسرين وما هم بمفسرين بل هم في جهال مبين. فحاشا ليوسف وحاشا للنبيين وحاشا للمؤمنين بل حاشا والله لأدنى المؤمنين أن يدعو أحداً رباً إلا الله رب العالمين.

وأما معنى قول يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي أن الله أنزلني منزلا حسنا في أرض مصر، وحق لهذا المنزل الحسن أن أجازيه بالإحسان لا بالظلم والتعدي على من جعله الله سبباً في إحسان مثواي لأنني عند ذلك أكون ظالماً ولأنه لا يفلح الظالمون. فإن قال قائل فإني أرى بين قول الرجل لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ وبين قول يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ مناسبة إذ أنها ما أكرمت مثواه إلا بأمر زوجها فيكون الزوج هو الفاعل الحق ويكون المعنى في قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ متفقاً مع قول من قال إنه عنى به الذي اشتراه. قلت: إن قال هذا أحد فعند ذلك سنقول له: إنك أعور ترى بعين واحدة وفي قولك عليك حجة. فإنك إن كنت وأنت دون مقدار يوسف قد فهمت من قول الرجل لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أن الرجل هو الفاعل أصلًا لذلك الإكرام لكونه كان بأمره.. فكيف لا يرى يوسف وهو البصير المنور أن المحسن الحق

الذي أحسن مثواه هو الله الذي اجتباه وهو الذي خلق الذي اشتراه وخلق التي أكرمت مثواه وخلق المثوى الذي أكرم فيه وخلق ذلك الإكرام وخلق كل شيء وهو على كل شيء قدير. فهذا برهان مبين. وأنا والله لا أعلم أحداً يقول بهذا القول ولكني خشيت أن يربط من لا يحسن الربط بين قوله تعالى: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ وقوله: ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ فيتراءى له ما ذكرت فيقع في ضلال فمن أجل ذلك نبهت.

فإذ قد استبان لك بحمد الله ذلك فعد إلى النص اليهودي الذي قول يوسف ما قوله تجد فحوى معناه أنه لا يريد أن يخطىء إلى الله لأجل ذلك الرجل الذي أحسن إليه فقد قلب النص اليهودي الأمور فجعل من الرجل المصري محسناً إلى يوسف وجعل الله هو الذي يتأذى بخطأ يوسف فانظر الفرق الكبير بين النصين ثم قل في القرآن: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ (١)﴾ وقل عن النص اليهودي: سبحان الله عما يفترون فهذا فرقان مبين. ثم دع عنك قول اليهود وعد إلى قول الغفور الودود: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ما أعظم هذا الكلام وما أعظم فضل الله على من قاله في ذلك الموقف العظيم. أيها المبارك يا يوسف فداؤك روحي فلأنت والله أهل أن تفدى بأرواح الرجال. بأبي أنت وأمي ما أطهر روحك وما أعظم ما آتاك الله من صبر في ذلك الموقف الرهيب. أيها القائل في حمى الشهوات ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ للّه أنت وللّه أبوك. وتالله إنك لتعلم أنك ما قلت ذلك بقوة منك بل بقوة من الله مولاك الذي بفضله تولاك. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم فالحمد للّه ثم الحمد للّه. ونسأل الله من فضله العظيم لنا وللمؤمنين والمؤمنات. فيا من هو في كتاب الله حجة على الملائكة الأطهار لما قالوا: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فسبحان الذي يعلم ما لا يعلمون. فهو سبحانه يعلم ما خلق يعلم أنه سيكون في ذرية هذا الإنسان الذي خلقه من تراب أناس أطهار، يعلم أنه

سيكون فيهم إبراهيم الخالص لله الذي سيذبح وحيده بيده طوعاً لأمر الله.. ويوسف الخالص لله الذي سيذبح شهوته خوفاً من معصية الله. ومحمد الأخلص لله الذي سيترك الخلود في الدنيا ويختار الموت شوقاً إلى لقاء الله. فطوبى لك يا إبراهيم فمَنْ مثلك بين الآباء وطوبى لك يا يوسف فمَن مثلك بين الشبان وطوبى لكم معشر المرسَلين جميعاً فمَنْ مثلكم بين جميع العباد.

أما أنت يا أمير الروح يا سيدي يا محمد يا رسول الله فطوبى لطوبى بك وطوبى بك للطيبين وصلوات الله وسلامه وبركاته عليك وعلى آلك وصحبك وأتباعك أجمعين وما أتباعك إلا الذين يتبعون سنتك ويحبون أصحابك أما الذين لا يتبعون سنتك ولا يحبون أصحابك فأولئك أعداؤك يا محمد بل أولئك أعدى الأعداء لأنهم يشككون بأصحابك الأمناء الذين نقلوا لنا الدين الذي بلَّغتنا إياه عن رب العالمين. اللهم بأنك أنت الله لا إله إلا أنت سبحانك وأن بيدك الخير وأنك على كل شيء قدير اجعلني من أتباع محمد حقاً وصدقاً أنا ومن يقرأ هذا الكتاب بحق فإنك لطيف لما تشاء وأنت العليم الحكيم وإنك أنت الأكرم وسبحانك وبحمدك الحمد لله رب العالمين.

فصل

معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ قلت: هذه الآية ليس لها شبيه في التوراة من كل وجه. ولقد منعت «لولا» وجود فعل الهم من يوسف فإن قال قائل: فما هي الحكمة إذاً في مجيء فعل الهم في الآية قلت: إذا تدبرت وجدت فيه حكماً منها إثبات الفحولة ليوسف لأنه لو لم تبين الآية أن برهان ربه هو الذي منعه من الهم لشكك الملحدون بفحولة يوسف ولقالوا: وأي قدر

لتعففه عن المرأة وهو لا يشتهي النساء ثم نعلم من ذلك أن تلك المرأة كانت ذات جمال عظيم وأنها كانت تستطيع أن تغري بجمالها حتى يوسف وأن تجعله يهم بها لولا أن رأى برهان ربه ثم إن في ذلك ذكرى لنا جميعاً أن نعتبر فها هو يوسف قد عاش مع تلك المرأة فترة وهو بمقام الولد منها أو على رجاء ذلك ومع ذلك لم تستطع أن ترى فيه إلا فحلًا تشتهيه. وكذلك كاد يوسف يرى فيها امرأة يشتهيها لولا أن رأى برهان ربه. فاعتبروا أيها الأغبياء الذين يختلون بالنساء بدعوى الصداقة والإخاء.

فصل
معنى ﴿برهان ربه﴾

وأما معنى برهان ربه فقد قيلت فيه أقوال وحُكيت فيه حكايات محال. ما أنزل الله بها من سلطان.. ومنها زعم بعضهم أن المرأة كانت تعبد صنماً فقامت إليه فسترته بثوب فقال لها يوسف: ما تصنعين.. قالت: أستحي من إلهي هذا أن يراني في هذه الهيئة - أي وهي عارية - وهذه الحكاية تجعل يوسف عارياً معها والمعنى أنه كان قد تعرى لذلك.

فقال يوسف: أنا أولى أن أستحي من الله ثم قالت الحكاية فهذا كان برهان ربه.

قلت: حاشا للّه والله أكبر فإن هذه الحكاية فيها من الجهل والضل ما يعلم أنها من توليد من عقله قل. أفيكون الصنم أقوى تأثيراً في نفس عابده من تأثير الله في نفس عبده سبحانك هذا بهتان عظيم. أم يكون الذي يعبد الصنم أشد مراقبة لمعبوده ممن يعبد الله حاشا للّه. أم يكون ما حصل بين الصنم وعابده هو برهان الله. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وأما برهان ربه فهو موجود في السورة وهو في الآية التي كنا

فيها قبل هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وبيان ذلك أن تعلم أن البرهان في اللسان الذي نزل به القرآن هو الحجة البينة فإذا علمت ذلك علمت أن يوسف لما قال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ كان يشهد برهان ربه وأن هذا البرهان هو ما صنع الله له من الخير، وفضل عليه من الفضل، ووعده به من الوعد فحققه له وأراه إياه. فهو كأن يرى صدق وعد الله سبحانه أن كان وعده بالاجتباء فاجتباه، ووعده بالتعليم فعلّمه، ووعده بإتمام نعمته عليه فهو منذ ذلك يرى النِعَم تتوالى عليه من لدن أن أوحي إليه إذ هو يلقى في الجب أنه سينبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون وهذا يعني نجاته مما أرادوه به من الشر ومما بعده من بلاء، فنجّاه الله من الجب ثم نجّاه من شر السيّارة الذين أخرجوه فباعوه في مصر ثم نجّاه الله من عيش الذلّة فعاش مكرماً في بيت من اشتراه ثم مكّن الله له في الأرض وعلّمه من تأويل الأحاديث وهذا هو التمكين الأول ثم لما بلغ أشده آتاه حكماً وعلماً كما في الآيتين اللتين قبل هذه الآية، ثم هاهو ينتظر نعمة الله عليه وعلى آل يعقوب. فهذا كله في معنى قوله: ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ وهذا برهان ربه والحمد للّه رب العالمين.

قلت: ويشهد لهذا الاستنباط قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ (٢٠١)﴾ والمعنى أنهم يبعدون طيف الشيطان إذا مسّهم بالتذكرة التي تجعلهم مبصرين. فهم يتذكرون ما علموه من نعم الله عليهم ويتذكرون أمر الله ونهي الله ولقاء الله فإذا تذكروها صاروا مبصرين فيخشعون وينتهون. وانظر إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ فالمعنى أنهم يصيرون رائين فاربط هذا بقوله تعالى عن يوسف: ﴿رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ فإنك في ذلك تجد القرآن يفسر بعضه بعضاً. فالذي أرجع الذين اتقوا عن المعصية بعد طيف الشيطان هو الذي جعل يوسف لا يهم بالمعصية قط لأن الذين اتقوا هم عامة المؤمنين وليسوا الأنبياء صفوة المؤمنين يدلك على هذا

أنهم ذكروا بفعل التقوى لا باسمها أما الأنبياء فلا يذكرون بفعل التقوى فقط بل لهم إسمية التقوى فهم الأتقون المتقون. فالمؤمنون من دون الأنبياء يحتاجون أن يتذكروا لأن الشيطان قد يمسهم ويجعل طيفاً على قلوبهم فتأتي تذكرتهم فتفتح بصيرتهم وتمحو عنها طيف الشيطان فيبصرون الحق فينتهون ويتقون. أما الأنبياء فلا طيف على قلوبهم فقلوب الأنبياء معصومة من طيف الشيطان لذلك ما همّ يوسف بالمعصية قط وإنما منعه من الهم أنه ما أن دعته المرأة حتى رأى برهان ربه. فإن قلت فإن الله ذكر عن يوسف أنه «رأى» وذكر عن المؤمنين أنهم «مبصرون» ولا بد من وجود فرق بين الرؤية والإبصار. قلنا: صدقت. إن بينهما فرقاً وهذا الفرق هو أيضاً من إعجاز القرآن الذي جعل لكل إنسان فعلًا يناسب ما هو فيه من مقام. فأما المبصرون فهم الناظرون المدركون فإن لم يدركوا لم يكونوا مبصرين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ وقال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فلم ينفِ عنهم العين التي هي حاسة النظر ولا النظر.. وإنما نفى عنهم البصر الذي هو إدراك ما ينظرون.

فالبصر هو إدراك المبصر لما يبصر ولا يكون مبصراً إلا بذلك الإدراك. والتبصر في اللغة معناه التأمل والتعرف والتبصير هو التعريف والإيضاح فالمبصر هو الذي يعرف حقيقة الشيء بعد تأمل وتعرف ووضوح فانظر الآن إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ فإن «إذا» هنا فجائية أي بينا كادوا أن يقعوا في المعصية فإذا هم فجأة وقد حصل لهم من التذكرة إبصار صاروا به مبصرين فإبصارهم هو انتقالهم من حال تعمية الطيف عليهم إلى حال الإبصار فهم مبصرون. فهذا معنى المبصرين.

وأما الرؤية فإنها إدراك الرائي للمرئي لحظة رؤيته وهذه صفة يوسف عليه السلام فإنه لم يحتج أن يستبصر حتى يرى بل كان بصيراً رائياً من قبل بما آتاه الله من النبوة والحكم والعلم. فإن قال قائل فإن

البصر في اللغة قد يكون بالعين والقلب قلنا: وكذلك الرؤية في اللغة تكون بالعين وبالقلب فلا فرق بينهما من هذا الوجه وإنما الفرق بينهما فيما كنا آنفاً بيناه. وإنما أحوج إلى هذا الشرح خشية الالتباس على بعض الناس.

ثم إن الذي دعانا إلى هذا الاستنباط حاجتنا إلى الرد على الحكايات الموضوعة في تفسير معنى (بُرهانِ ربه) كتلك الحكاية الصنمية التي أطلعناك آنفاً عليها.

ألا وإن حجتنا في هذا الاستنباط علمنا بأن الله فصّل لنا في هذه السورة كل شيء كما قال تعالى في آخرها: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وإذ كان (بُرهانُ ربه) شيئاً من أشياء هذه السورة فقد علمنا أنه مفصل لنا في نفس السورة وإذ كان المعلوم من تفصيل الخبر أن يكون في دائرة سياقه فقد بحثنا عن تفصيل برهان ربه في سياق الخبر نفسه فوجدناه بحمد الله ملازماً له ملتصقاً به ليس بين قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي حرف من كلام. وحيث وجدنا أن برهان ربه هو في قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ وأن هذا القول هو الذي فيه حقيقة الرؤية لبرهان ربه وأن قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ هو خبر عن رؤية ذلك البرهان ليس هو عينه، وحيث أنه أخبر عن فعل ماض «رأى» وأن هذا الفعل كان في أقرب ماض مضى إذ هو في الآية التي مضت تلاوتها فمن هاهنا رأينا إعجازاً على إعجاز ونوراً على نور. ثم إنا من حيث علمنا أن ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ هو أيضاً صفة للقرآن كله فبحثنا عن تفصيل آخر يشهد للتفصيل الأول فوجدناه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١)﴾ فرأينا اتفاقاً بيناً بعضه شاهدٌ لبعض لا يعمى عنه إلا عميان القلوب. ثم نزيد بفضل الله قولاً فيه بيان للسامعين وهو أنه إذا كان برهان ربه رؤية جعلها الله له من نفسه أذكره بها فضله عليه

فانحجز بها عن أن يقع منه فعل الهم فلم يهم قط. فإن ذلك يكون أعظم في فضله وقدره من أن يكون لم يكف عن المعصية إلا برؤية جبريل أو رؤية آية كف بها.

فإن الله قد جعل الأنبياء قدوة ليقتدي الناس بهم. فلو كانوا لا يكفون عن الشهوات إلا برؤية جبريل والآيات. فكيف سيقتدي بهم من لا يرى جبريل والآيات وأي فضل يكون لهم بعد ذلك على أهل الطاعات الذين ما منعهم عن الخطيئات إلا الخوف من جبار السماوات. فهذا شرح مبين. والحمد لله رب العالمين.

وليس في التوراة اليهودية شيء من مثل هذا قط فهذا فرق مبين.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾.

كذلك نعت لمصدر متضمن أي مثل تلك الإراءة أريناه لنصرف عنه السوء والفحشاء والسوء في اللغة هو المنكر والفجور ومنه السوأة وهي العورة فرج الرجل والمرأة. قال تعالى: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ فكأنما سمي الفرج سوأة لأنه يسوء صاحبه أن يظهره. وفي قوله تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ ﴾ رد على من زعم أنه عليه السلام نزع ثيابه وقعد منها مقعد الرجل من المرأة والفحشاء مباشرة المعصية أو ركوبها أو التلبس بها وكل ذلك بحمد الله صرف عن يوسف فالحمد لله على ذلك كثيراً. وليس في توراة اليهود ما يشبه هذه الآية من أي وجه ففيها فرقان مبين.

ألا إن هذه الآية تحدث في نفوس المؤمنين حال الذكرى كلما هموا بسوء أو فحشاء فيرجعون خوفاً ألا يكونوا مخلصين. لقد وصف الله هذا القرآن بأنه كريم كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ والكريم هو الذي يعطي كثيراً.. وتالله إن هذا القرآن ليعطي كثيراً وإنه ليعطي في كل آياته وإنه ليعطي ولا ينفد عطاؤه وإنه في هذه الآية يعطي مدداً لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً.

إنه يقول لكل إنسان إذا أردت أن تكون من عباد الله المخلصين فلا تظهر سوأتك ولا تركب طريق الفحشاء. أيها الرجل أيتها المرأة أيها الشاب أيتها الصبية استروا عوراتكم ولا ترتكبوا الفواحش ولا سبيل لكم إلى ذلك بقوتكم بل سبيل ذلك بقوة الله وحده فاستعيذوا بالله عند المحن فإن المحن امتحانات فاستعيذوا فيها بالله معاذاً كما استعاذ أخوكم يوسف قال معاذ الله.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وهذه أيضاً آية ليس لها مشابه في توراة اليهود وفي هذا فرقان مبين.

فصل
سبيل المخلصين

وانظر كيف بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ جاءت ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ فاربط بين آخر الآية الأولى وأول الثانية؛ اربط بين المخلصين واستبقا تجد أن سبيل الإخلاص في تلك الحال الفرار. أن تفر من المعصية كما فر منها يوسف.

فيا أيها المختلي بامرأة بالحرام قم أيها المسكين وأسرع إلى الباب.. فإنك إن تسرع إلى الباب.. عند ذاك المصاب.. تكن من أُلِ الألباب. اخرج من باب ذاك الحريق.. إلى شارع الطريق. اخرج من باب غرفة الحرام إلى شريعة الحلال. اخرج ويحك ولا تبع ولاية الرحمٰن بشهوة تندم عليها بعد ثوان. افعل كما فعل يوسف زين الشباب واخرج من باب ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ الحمد لله الذي أنزل هذا

القرآن الفرقان الذي فيه النعماء كل النعماء ومنها طريق النجاء من الفحشاء.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نعلم من هذا الكلام الكريم أنهما وجداه حيث هما لا يتوقعان وأنه جاء في غير موقت مجيئه فإنه يقال في لغة العرب ألفيت الشيء ألفيه إذا وجدته مصادفة، واللَّفَاء هو الشيء اليسير. وتحرير المعنى أنهما وجداه لدى الباب في وقت نادراً ما يكون موجوداً فيه. وانظر هنا إلى القرآن كيف أفرد سيادته عليها فقال: ﴿سَيِّدَهَا﴾ ولم يقل سيدهما مما يتناسب مع ما قلنا من قبل إن يوسف لم يعنِ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ إلا ربه الحق الله رب العالمين.

وما كان يوسف عن حقيق إلا حراً قد سرق من أهله وما كان استعباده غير ظلم. فإن يك النص اليهودي يرى المصري سيداً عليه لما اشتراه به من ماله فصار ملكاً له كذلك إن كانت النسوة يرين يوسف فتى أي عبداً لمولاته كما أخبر تعالى من قولهن: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ فإن الله الذي هو الملك الحق مالك الملك لم يجعل في القرآن سيادة لمخلوق على يوسف وإنما كان قوله تعالى: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ حكاية عن قول النسوة اللاتي قلن هذا. وهذا يعني أن يوسف كان في نظر الناس مملوكاً للمصري وزوجته ولكن رب يوسف لم يثبت هذا في خبر من لدنه إلا حكاية عمن قال هذا وفي هذا فرقان مبين.

فصل
دهاء امرأة العزيز

ثم انظر إلى جزء من دهاء تلك المرأة إذ هي في اللحظة الحرجة إذ قدت قميص يوسف، وإذ ألفيا سيدها لدى الباب. وإذ هي مع كل ذلك لم تضطرب ولم تتلعثم بل كانت أول مَنْ مِنْ أولئك تكلم وتالله لقد تكلمت بكلام فيه من الدهاء ما يكفي النساء، فإن بدء قولها: ﴿مَا

جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ كان استفهاماً إنكارياً حتى إذا اجتازت به فحولته نفياً استثنائياً ثم أوغلت في دهائها إذ تكني عن نفسها بقولها: ﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ ﴾ ولم تقل بي وفي ذلك إغراء لسيدها بيوسف أن ينتقم منه أكثر مما لو قالت أراد بي سوءاً. ألا فارتجع سياق الآية واقرأها متمهلًا تجدها ابتدأت أن توحي إليه بأمرين اثنين براءتها واتهام يوسف ثم كأنها استشعرت ضعف قولها وكذلكُ الكاذب فغيرت معناه من الاستفهام إلى النفي إذ لو وقفت عند قولها سوءاً لاكتمل القول ولفهم المعنى أن يوسف أراد بها سوءاً ولكن عند ذلك سيبقى يوسف متهماً ليس إلا وذلك سيحتاج إلى إثبات والبحث عن الإثبات سيُذهب صدى تلك الكلمات فكأنها أرادت أن تشغل سيدها عن طلب الإثبات فغيّرت في معنى كلامها وانتقلت بأسرع من الخاطر من أسلوب اتهام إلى أسلوب إثبات وتقرير وهي لم تزل تتابع في سياق واحد لم تتلعثم فيه قط وما كان إلا أن أتت بإلا التي هي أداة حصر حصرت بها جزاء يوسف فكانت بتحويلها «ما» الاستئنافية إلى «ما» النافية بـ«إلا» الحاصرة توحي بأمور تعجز أن تأتي بمثلها في موضعها الشياطين، فقد كانت تشغل زوجها عن استبانة حقيقة الأمر وتوحي إليه أنها تقرر القول تقريراً وتؤكد أن دعواها حق لا شك فيها وتحصر تفكير زوجها بأمر واحد وهو ما يستحقه من أراد بأهله سوءاً من جزاء ثم استلبت منه الفكر استلاباً، وهي تقسم الجزاء الذي جعلته كحكم مقرر. ثم كأنها وقد ذكرت السجن فزعت من فكرة سجن يوسف أن تُحرم منه فجاءت بأيسر منه لها جاءت بعذاب فكأنها هنا قد اطمأنت أنها أمنت ثم لئلا تنكشف رغبتها في إبقاء يوسف في بيتها فجاءت لما أوحت به من عذاب بصفة «أليم». فانظر إلى دهاء تلك المرأة التي تفهم النفوس وتوحي إليها وتؤثر فيها. وتستطيع بحرف واحد أن تغير مجرى الكلام. وانظر كم بين هذه الصورة التي جاء بها القرآن عن تلك المرأة وبين التي جاءت عنها في التوراة المفتراة فالتي في توراتهم هي امرأة كاذبة ضعيفة تستنجد بأهل بيتها لتثبت كذبتها فهذا فرق مبين. وانظر

إلى أدب يوسف إذ يكني عنها بضمير الغائب إذ قال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ ولم يوجه إليها الخطاب. واربط هذا بما مر معنا من قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ثم اربط بين ذلك وبين كل موضع جرى فيه الكلام بين يوسف والنسوة تجد أنه لم يوجه إليهن الخطاب في كل موضع فهو إما أن يخاطبهن بضمير الغائب أو يسمعهن القول إسماعاً دون خطاب. مما تعلم منه أنه كان لا ينظر إليهن مما يتناسب مع حال نبي يعلم أنه أوتي جمالًا يفتن النساء فهو يصرف عنهن بوجهه كدأبك منه في السورة كلها مما يتناسب فيه قصص السورة المعجز بعضه مع بعض ومما يتناسب مع خلق يوسف ومما ينفرد به القرآن عن التوراة اليهودية بفرقان مبين.

فصل
خلق يوسف في القرآن

وحيث لا شبيه لهذه الآية في توراة اليهود ألا فاعقل هذا وانظر الفرق بين حالي يوسف في الكتابين. فحال يوسف في القرآن عزة نفس وقول فصل وترك خطاب النساء. حيث يتفق ذلك مع الصورة التي أعطاناها الوحي عن نفس يوسف الطهور الخجول. فإذا رجعت إلى النص اليهودي تجد نصاً يتناقض مع نفسه إذ يجعل يوسف يتكلم مع المرأة بما لا يتناسب مع دعواه أنه كان عبداً في بيتها. فهو ينزل من قدرها ويخاطبها بما لا ينبغي له ولا يستطيعه إذ يقول لها إن سيده قد دفع إلى يده كل ما في البيت سواها إذ هو في ذلك يجعلها كشيء من أشياء البيت. وليس له ذلك بل حقه حسب سياق النص لو احترم النص نفسه أن يكون هو ملكاً لها لأنها مولاته وزوجة مولاه حسب أصل النص في دعواه. فهذا فرق مبين. ثم انظر الفرق أيضاً في أن القرآن يثبت ليوسف دفاعاً عن نفسه إذ ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ وليس في نص اليهود من ذلك من شيء فهذا فرقان مبين ولو قرأ التوراة محايد ملحد لا دين له فسيقول: ما أكثر تناقض هذا الكتاب أفليس يقول: إن

سيد يوسف رأى أن الرب مع يوسف وأن كل ما كان يصنع كان الرب ينجحه بيده وأن يوسف وجد نعمة في عينيه وإذاً فهذه صورة عن نفس ذلك الرجل المصري أنه كان فطناً حكيماً عادلًا. فكيف إذاً لم يسمع دفاع يوسف عن نفسه وما كان منه كما قال النص إلا أن حمي غضبه فأخذ يوسف من يده ووضعه في بيت السجن. فأين ما ينبغي أن يكون من تناسب وصف بوصف وفعل بفعل وحال بحال.

قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ قلت: كل هذه الآيات ليس لها في التوراة شبيه من أي وجه. فها هو القرآن يصدق بعضه بعضاً. بأنه هو الكتاب المبين لا سواه.

فقد جاء القرآن بتفصيل كامل فيه تبيان لما جرى من حوادث ولو أن ملحداً قرأ القرآن بحق لعجب من اتفاق معانيه إذ يثبت للذي اشترى يوسف كرماً في أحسن موضع الكرم مع غريب اشتراه إذ قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ ثم يثبت له رفقاً في أحسن موضع رفق مع متهم بأهله فهو يسكن ويسمع إلى قول الشاهد، ثم يثبت شيئاً من العدل لذلك المجتمع المصري الذي قدّر الله أن يكون فيه إتمام وعده ليوسف أن يتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب حيث ظهر في ذلك المجتمع وفي بيت الحاكم رجل يحكم بالعدل وهو من أهل المرأة نفسها.

فانظر إلى هذا الاتفاق الذي يشهد بعضه لبعض. ثم قس بين قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وبين قوله تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ واربط ذلك بما أعطتناه كلمات المرأة من صورة علمنا منها أنها جاءت بكيد تعجز عنه الشياطين. ثم سيان أكان القائل: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى

لِذَنۢبِكِۖ ﴾ الشاهد أم الزوج فإن كلًا منهما شاهد لصاحبه لتناسب ما بينهما من الصحبة والائتلاف. . . وإن في أمر الآمر منهما ليوسف بالإعراض وللمرأة بالاستغفار اتفاقاً مع قياس الحكم الذي لا يصدر إلا عن رجل فيه شيء من عدل مما يتفق مع سابقه من صفات. فانظر إلى اتفاق القرآن المتضمن كل فرقان مبين.

فصل
يوسف ونسوة المدينة

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ما زلنا في سياق آيات ليس لها في التوراة شبيه بحرف.

انظر كيف يدلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ على مدينة مصر في ذلك الزمن وعلى مستواها من الترف أن كانت نساؤها ذوات مجالس للتحدث والغيبة شأن المترفات اللاهيات في كل زمان. وانظر كيف يخرج القرآن بالقصص من جو الحادث في بيت العزيز إلى صداه في أجواء المدينة. ليعلم أن السر قد ذاع وملأ الأسماع ـ ونسمع قول النسوة فنعلم منه طبيعة ذلك المجتمع القديم من أنه كان يأبى الخيانة ونفهم من قول النسوة أن العزيز كان رجلًا كالرجال ليس خصياً كما يقول نص اليهود. ولو كان خصياً لوجدت لها عذراً في بعض من القول، قول الشاهد الذي هو من أهلها أو قول النسوة اللائي هن من جنسها فإنهن يتعاضدن في مثل تلك الأمور. ولكن كلا فقد قال الشاهد العدل من أهلها: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ وقالت

النسوة: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وفي كلا القولين معنى أن زوجها لم يكن خصياً كما يفتري نص اليهود. كذلك في كلا القولين معنى رفض ذلك المجتمع المصري القديم للخطيئة والخيانة. هذا وإن كان قول النسوة قول مكر فإنهن ما كان لهن أن يمكرن بدعوى الغيرة على العفاف لو لم يكن الظاهر في المجتمع حب العفاف. وانظر إلى عظمة القرآن في الإتيان بهذه الكلمة في هذا الموضع وهو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ ولم يقل بقولهن واعلم أن أحداً من الخلق لن يقدر أن يقول في مثل هذا الموضع من مثل هذا السياق مثل هذه الكلمة إلا العليم الحكيم الذي لا يستطيع أن يأتي بكل هذا السياق أحد إلا هو.
وحتى تفقه هذا فاعلم معنى المكر في لغة العرب التي نزل بها القرآن. فالمكر في اللغة هو المُغْرَةُ وهو طين أحمر تُصبغ به الثياب فإذا صُبغ به الثوب صار لونه إلى الحمرة وليس هو بأحمر وإنما هو بين الأحمر والأصفر وهو في الخيل والإبل بين الأحمر والأصفر والأشقر يخدع الناظر إليه عن حقيقة لونه فكذلك المكر هو خداع يتخفى في ألوان من صفات وأقوال وأفعال فالنسوة اللائي كن يغتبن امرأة العزيز كن ماكرات لم يردن بقولهن ما أوحين به من إنكار منكر كذلك لم يردن به إظهار دعوى تعففهن عن مثل حال امرأة العزيز. كلا ما أردن إلا التشفي من امرأة يحسدنها أن كانت أعلى منهن منصباً وصفات، إذ قلن: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فهن في ظاهر قولهن ينفين عن أنفسهن أن يكن مثلها ويوحين بإنكار عليها شديد. وحيث المرأة كما علمنا من قصص القرآن كانت ذات كيد عظيم. فأرسلت إليهن لتريهن أنها أعلى منهن على كل حال. لأنها قدَّرت من معرفتها بهن ما سيكون من أمرهنّ من لدن أن يرين يوسف أول مرة من أنهن لن يصبرن على كتمان ما سيُحدثه فيهن من أهواء وكذلك كان حيث أظهرن له عشقهن جهاراً وفضحن أنفسهن وهن مجتمعات بعضهن أمام بعض.

فأين حال امرأة العزيز من أحوالهن وهي التي لم يزل يوسف

يساكنها في بيتها من سنين وهي تراه في كل يوم بل في كل ساعة من نهار وهو في الليل قريب المثوى من مثواها وقد خلت به آلاف المرات ومع ذلك صبرت وصارعت هواها ولم تُظهر من الضعف أمامه كل تلك المدة ما أظهرن هن من أول مرة أن ذهبت عقولهن وقطّعن أيديهن وفضحن أنفسهن أن نطقت ألسنتهن عما أحدث في قلوبهن أن قلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فكذلك كان منهن من مرة واحدة أما هي فما كان منها كل تلك المدة إلا أن همّت به تلك المرة الوحيدة التي أدّت بها إلى الافتضاح.

فانظر إلى زيادة البيان في إثبات ما استنبطناه من القرآن من فهم تلك المرأة للنفوس أن كانت تعلم بنفوس النسوة اللائي أرسلت إليهن. وانظر إلى زيادة البيان في إثبات عظيم كيدها أن أعتدت لهن متكأ أي مقاعد مريحة ذات وسائد يتكئن عليها وانظر إلى بلاغة القرآن في تحريك الأذهان إذ اكتفى بأن قال: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ فأعلم عن وجود نمارق وُضعت أمامهن عليها من أصناف الفواكه التي تُقطع بالسكاكين. وفهمنا من قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أنها تخيرت مكاناً مناسباً لما تعده لهن من مفاجأتهن بإخراج يوسف عليهن. إذ لا ريب أنه كان في بيتها صرح للضيوف فكأنها أرادت مكاناً يكون أنسب لانفعال النسوة وفي هذا فهم منها لتأثير الحال والمكان في النفوس ودهاء عبقري وذكاء عظيم. وفي قولها له: اخرج عليهن تأكيد على بقاء سيطرتها على بيتها ومن فيه. وانظر هنا إلى إعجاز القرآن وتناسبه في أنه لم يقل فخرج عليهن فلم يثبت ليوسف فعل الخروج على النساء أن كان مكرهاً على الخروج. وقد عذر الله المكرَهين في آيات أخرى من القرآن منها قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ فانظر إلى اتفاق آيات القرآن في كل موضع منه مع سائر مواضعه اتفاقاً لو اجتمعت عقول الإنس والجن على أن يجعلوه لعجزوا فكيف يجترىء ذو عقل يحترم نفسه أن يقول إن بشراً واحداً استطاع أن يؤلف هذا القرآن، حاشا لله أن يكون هذا

القرآن من تأليف مخلوق فلا قدرة للخلق أجمعين على تأليف مثل هذا القرآن المبين.

: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ ثم انظر هاهنا في موضع خروج يوسف تعلم أن النسوة ما رأينه من قبل فيفيدك ذلك بأن تعلم كذب النص اليهودي الذي جعله يذهب إلى الحقل، فلو كان كما يقول لرآه بعض الناس.. ولو رأوه لأذاعوا عن جماله لا سيما في مصر التي لا يطيق أهلها السكوت.. ولو أذاعوا لاشتهر أمره لا سيما في أهل مصر الذين لم يؤتوا نصيب جمال كبير. ثم انظر كيف يدل مجيء لما الحينية معطوفة بفاء التعقيب في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ﴾ على فترة زمانية مرت بين أمر المرأة ليوسف بالخروج على النسوة وبين رؤيتهن إياه. ولو كانت رؤيتهن إياه عقب أمر المرأة له بالخروج لما دخلت لما على فاء التعقيب هاهنا ولا يصح أن يقال إنه احتاج أن يسير مسافة حتى وصل إليهن فرأينه أو أن المرأة قد جعلت خروجه عليهن من حيث لا ينتبهن إليه إلا بعد حين كلا فإن اتصال على بضمير هن يدل على قرب المسافة بين موضع خروجه وبينهن ويعني الأمر بالخروج المباشر عليهن فإن قيل: فما السبب في دخول لما هنا؟ قلت: هي والله أعلم تعلمنا أن يوسف كان يتردد في الخروج.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ أي عَظَّمْنَه وبجّلنه ودُهِشْنَ من حسنه وما أحسَسْنَ بأنفسهن وهنَّ يُقطعن أيديهن أي يحززنها ويجرحنها ومعنى قولهن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ أي تنزه الله عن أن يكون قد جعل من له هذه الصورة الجميلة بشراً بل ما هذا إلا ملك كريم. وإنما قلن ذلك لظنهن أن خلقة الملك أحسن من خلقة الإنسان، فهن ما كن في عهد نزول القرآن الذي بيّن الله فيه أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم. فكذلك كان حالهن.

فلما رأت امرأة العزيز ما وقع لهن من الافتتان بيوسف: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ وفاء فذلكن هي الفاء الفصيحة والمعنى أنها أفصحت عن عذرها في حبها ليوسف ثم استرسلت تقول وقد استخفها العشق: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ فاعترفت بأنها هي التي راودته وأنه هو الذي امتنع. ثم تابعت تقول: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ فألقت بذلك نقاب الحياء وفضحت نفسها أمام النساء وانظر هنا ما كنت ذكرته لك من خداعها لزوجها في استدراكها على نفسها الحكم بالسجن، بالحكم بالعذاب الأليم لتصرف هنالك زوجها عن أن يفكر بسجن يوسف لتبقيه معها - فكذلك كانت قد فعلت. أما الآن فهي تهدده بالسجن حقاً إذا أيأسها من نفسه وبهذا تعلم أن السجن عندها كان أعظم من العذاب الأليم، وأنها ما تجاوزته إلى العذاب الأليم إلا خداعاً منها لإبقاء يوسف معها. فانظر إلى ما في القرآن من اتفاق بين كل موضع وموضع وبين كل سياق وسياق.
ولكي تفهم هاهنا شيئاً من نفس تلك المرأة وتفهم من خلالها شيئاً من نفوس النساء فارتجع بدء أحوالها مذ أحضر زوجها يوسف إلى بيتها وقال لها: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ تجد أن الله لم يقص علينا هنالك أنها ردّت بحرف، وإذاً فنحن نعلم أنها هنالك لم ترد فإذا ربطنا بين ما علمنا بعد من طلاقة لسانها وبين سكوتها بدءاً عن الرد علمنا أنها كانت مأخوذة بالنظر إلى يوسف عن الرد. فمن هنا افهم حالاً من أحوال المرأة وهو حال الصمت. فذلك هو أقوى أحوالها وهو أخشى ما يخشى منها ويخشى عليها. فإنه لا خطر على المرأة التي تتكلم ولا خطر منها وإنما الخطر على النساء في السكوت. واعلم أن أجهل الرجال وأبلدهم حساً هو ذلك الذي يظل يتكلم مع المرأة ولا يسمح لها بالكلام. كلا وويحك أيها الغبي أما ترى في عينيها حاجة إلى البث والشكوى فما عليك أن تنصت لها ساعة من زمان. فإن المرأة إذا تكلمت أبدت سرها ولو غلّفته بشمع أحمر فإنه سبين. واعلم بأن الرجل أدهى من المرأة وأكذب منها وأخدع وأن المرأة أبرأ من الرجل

وأصدق منه وأصرح. وهذا على نِسَب متفاوتة بين رجل ورجل وامرأة وامرأة. فإذا جئنا بأدهى النساء وأدهى الرجال كان دهاء الأدهى من النساء إلى دهاء الأدهى من الرجال كقطرة ماء في إناء. فإن قيل: إن الله أثبت قول الشاهد الذي قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ولو كان باطلًا لرد الله عليه.

فصل
كيد الرجال أقوى من كيد النساء
ودموع النساء أطهر من دموع كثير من الرجال

قلت: إن معنى قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ إنما هو على قياس طاقة كيد النساء لا على قياس كل كيد وهو في موضعه كان كيداً عظيماً قياساً إلى براءة المكيدين به وهم يوسف ذو القلب السليم وزوج المرأة ذو الغفلة والشاهد الذي لا يعرف كل أبواب الكيد ولا يحسن أن يكيد.

فعلى قدر أولئك المكيدين به كان كيداً عظيماً وهو كيد عظيم إذا قيس به كيد النساء وكيد كثير من الرجال ولكنه ليس الكيد الأعظم فإن في كيد الرجال ما يعظم عليه ويزيد. فأين كيد تلك المرأة وهي أكيد النساء من كيد من قال تعالى فيهم: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ فجعل لهم كيداً لا يغلبه إلا كيده سبحانه. بل أين كيد تلك المرأة التي لم تصل إلى مراد من كيد إخوة يوسف ليوسف إذ بلغوا منه مرادهم بإبعاده عن أبيه.. فبهذا تعلم أن كيد المرأة يكون عظيماً إذا قيس إلى أمثالها وليس إذا قيس إلى كل كيد ولا أنه الكيد الأعظم الذي ليس بعده كيد.

وأما أن المرأة أصدق من الرجل والمقصود هنا قياس نسبي لا أن النساء عموماً أصدق من الرجال حاشا لله أن يظن ذلك مسلم فإن في الرجال سادة الخلق من الرسل والأنبياء وإن كلًا منهم هو أصدق من جميع النساء والرجال. وحتى تعلم مثال ما ذكرت فانظر في حال

إخوة يوسف إذ جاؤوا أباهم عشاءً يبكون. فقد كذبوا في دموعهم، وكذبوا في قولهم أكله الذئب، وكذبوا بما جاؤوا به على قميصه من دم كذب ثم ازدادوا كذباً أن قالوا وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين فقد أوهموا بعد ذلك كله أنهم كانوا صادقين وفي هذا الإيهام بالصدق بعد ذلك الكذب زيادة كذب عظيم. ألا فخذ من كذبهم صورة حالهم إذ هم يبكون فقارن بينها وبين حال تلك المرأة التي ألفت سيدها لدى الباب تجد أنها لم تبكِ أحوج ما كانت إلى البكاء فبهذا تعلم خطأ من يتهم دموع المرأة بالكذب وتعلم أن دموع الرجال أجدر أن تتهم بالكذب من دموع النساء.

وأما في الخداع فإن إخوة يوسف خادعوا أباهم بأخذ أخيهم ثم خادعوه بما أخلفوه ما وعدوه من حمايته من الذئب لما قالوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ ثم خادعوه بأن جاؤوا عشاءً لئلا تظهر له علامات وجوههم أنهم كانوا يكذبون. ثم خادعوه دهراً من الزمان سنين طويلة ظلوا فيها حياة يوسف يكتمون وكانوا فيها أباهم يفندون كما في قوله تعالى عنهم من قولهم لأبيهم: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ وقولهم له: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ فأين هذا الخداع المستمر من صراحة تلك المرأة التي هي أدهى النساء أو من أدهاهن.

ومع ذلك غلبت عليها صراحة القول فاعترفت أمام النساء أنها راودت يوسف عن نفسه وأنه استعصم ثم اعترفت أنها لا تزال تشتهيه وأنه إن لم يطاوعها فستفعل به وتفعل ثم إنها بعد ذلك فضحت نفسها أمام الملك على ملأ من القوم واعترفت أنها هي التي راودته وأنه من الصادقين مما سيمر معنا في موضعه إن شاء الله. فبهذا تعلم أن خداع المرأة مهما عظم فهو دون خداع المخادعين من الرجال. ألا وانظر هنا إلى اتفاق التفصيل بين حوادث فيها الكثير والقليل مما يكمل القصص أحسن تكميل فتهدي القارىء في كل خطوة إلى سواء السبيل مما ليس في توراة اليهود منه مثيل.

فهذا فرقان مبين.

فصل
يوسف في السجن

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ لا نزال في سياق الآيات القرآنية التي ليس عند اليهود من مثلها شيء.

انظر إلى دعاء يوسف واعلم أنه جواب لسؤال مقدّر بيانه أن النسوة دعَوْنَهُ إلى أنفسهن فظهر الحال في دعاء يوسف ولا حجة لمن قال إنهن دعونه إلى موافقة المرأة فيما كانت تأمره بل شغلن به عنها وراحت كل واحدة منهن تدعوه إلى نفسها والشاهد لهذا في قوله: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ فجاء بضمير جمع المؤنث مرتين ثم جاء ذلك الضمير مرة ثالثة أخرى في الآية التي تليها وهي قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾.

ونعلم من سياق الآيتين أن كلًا من تلك النسوة كانت تراود يوسف وأنه كان في كل منهن ما هو جدير أن يغريه لولا أن استجاب له ربه فصرف عنه كيدهن. فإنه سبحانه هو السميع الذي يسمع دعاء العبيد وهو العليم الذي يعلم صدق نية الداعين فمَن علم الله صدق نيته استجاب له وصرف عنه الابتلاء ومَن تدبَّر معنى السميع العليم هنا في هذه الآية بالذات فهم معنى ما قلناه من آنف الكلمات. ثم استرجع الآن نظرة إلى هذه الفروقات الكثيرة بين القرآن وتوراة اليهود حيث تجد يوسف في توراتهم لا يتعرض للإغراء إلا من مولاته حسب نصهم..

وحيث هنالك تجد مولاته كاذبة ظلوماً تدعو الخدم وتضع

القميص وتنتظر الزوج، وحيث تجده يسجن على غير رغبة منه ومن غير أن يُسأل أو يدافع عن نفسه أو يُستبان منه أو يُبين. فهذا خبر التوراة المفتراة. أما خبر القرآن وهو الحق المبين المتفق بعضه مع بعض فإنه يعطينا تفصيلًا كاملًا يبدأ بمراودة المرأة ليوسف، ثم بتغليق الأبواب، ثم بدعوته بأغرى كلمة إغراء، ثم بهروبه منها فلحاقها به فقدها قميصه فإلفاء الزوج لدى الباب فابتداء المرأة بالكلام، فاتهامها ليوسف وتلاعبها بالقول وتبرئة نفسها والإيحاء بترك يوسف في بيتها. ثم بشهادة الشاهد من أهلها وبالحكم عليها بالقياس ثم بأمر يوسف بالإعراض وأمرها بالاستغفار، ثم بانتشار الخبر في المدينة ومكر النسوة وإشاعتهن أنها تراود فتاها عن نفسه وأنه قد شغفها حباً وأنها في ضلال مبين. فعلمها بمقالتهن إلى إرسالها إليهن وإعداد المتكأ لهن وإيتائهن السكاكين، فإخراج يوسف عليهن فدهشتهن من حسنه وتقطيعهن أيديهن وقولهن فيه مقالتهن ثم بإفصاح امرأة العزيز عن واقع الحال واعترافها على نفسها وتبرئتها ليوسف. ثم تهتكها و فضحها لنفسها ثم بوقوع النسوة في حب يوسف ولجوئهن إلى الكيد ومراودتهن إياه حيث أظهرن من الرغبة به من أول مرة ما اتفق معه السياق في إثبات المكر لهن فيما كن فيه يخضن أن أقيمت الحجة عليهن أن وقعن فيما وقعت فيه التي كن يلمنها وكن أسرع منها إلى ذلك مما جرأها على فضح نفسها أمامهن ثم ازدادت جرأة إذ هي تنذر يوسف بالسجن أو يفعل ما تأمره به. فلما رأينها تهتكت فتهتكن وتهالكن على يوسف وراحت كل واحدة منهن تدعو يوسف إلى نفسها وهو وحده أمام تلك النسوة ذوات الجمال المنوع والدعوات المغرية والرغبات المفضوحة والأحوال العجيبة من تقطيع أيديهن وإسماعه من رقيق كلامهن وهو شابٌ عزب تجري في عروقه دماء الشباب وهو محوط به منهن. يسمع من أصواتهن ويفهم من كلامهن ويرى من جمالهن هنالك خشي العبد المبارك الطاهر على نفسه وعلم أنه أضعف من أن يقف وحده أمام تلك النسوة الفاتنات ذوات الكلمات الحارات

والدعوات السافرات فآوى إلى رب الكائنات الذي يسمع الدعوات ويعلم النيات ويفرج الكربات ويمحو البليات فأناله الغوث وصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم. فانظر كم من فروقات بينات بين خبر القرآن وخبر التوراة وكم من مسافات بين تلك الآيات البينات وين ترهات التوراة المفتراة فهذا فرقان مبين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾﴾.

أي ظهر للعزيز ولأهل مشورته من بعدما رأوا الآيات الدالة على براءة يوسف أن يسجنوه إلى زمن انقطاع الإشاعات في المدينة فهذا سبب سجنه في القرآن. سجنوه كتماً للفضائح وهم على علم ببراءته مبين وانظر كم بين هذا القول الحق الذي في القرآن وقول التوراة فقد مر معنا من قبل قول النص اليهودي الذي جعل المرأة تشكوه إلى زوجها فحمي غضبه على يوسف وأخذه فوضعه في بيت السجن فهذا نص يهود، فانظر الفرق بين النصين فإنه فرق مبين.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ

ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ فهذه آيات الكتاب المبين.

وأما ما يظن أنه يشابهه من توراة اليهود فهو في سياقه من آخر الإصحاح التاسع والثلاثين من سفر التكوين وهو قوله: «ولكن الرب كان مع يوسف وبسط إليه لطفاً وجعل نعمة له في عيني رئيس بيت السجن فدفع رئيس بيت السجن إلى يد يوسف جميع الأسرى الذين في بيت السجن وكل ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئاً البتة مما في يده لأن الرب كان معه ومهما صنع كان الرب ينجحه» انتهى الإصحاح التاسع والثلاثون.. وابتدأ الأربعون وهو: «وحدث بعد هذه الأمور أن ساقي ملك مصر والخباز أذنبا إلى سيدهما ملك مصر فسخط فرعون على خصييه رئيس السقاة ورئيس الخبازين فوضعهما في حبس بيت رئيس الشرط في بيت السجن المكان الذي كان يوسف محبوساً فيه. فأقام رئيس الشرط يوسف عندهما فخدمهما وكانا أياماً في الحبس. وحلما كلاهما حلماً في ليلة واحدة كل واحد حلمه كل واحد بحسب تعبير حلمه ساقي ملك مصر وخبّازه المحبوسان في بيت السجن فدخل يوسف إليهما في الصباح ونظرهما وإذا هما مغتمان فسأل خَصِيَّي فرعون اللذين معه في حبس بيت سيده قائلًا: لماذا وجهاكما مكمدان اليوم فقالا له: حلمنا حلماً وليس من يعبره فقال لهما يوسف: أليست للّه التعابير قصا علي فقص رئيس السقاة حلمه على يوسف وقال له: كنت في حلمي وإذا كرمة أمامي وفي الكرمة ثلاثة قضبان وهي إذا أفرخت طلع زهرها وأنضجت عناقيدها عنباً وكانت كأس فرعون في يدي فأخذت العنب وعصرته في كأس فرعون وأعطيت الكأس في يد فرعون. فقال له يوسف: هذا تعبيره الثلاثة قضبان هي ثلاثة أيام في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك ويردك إلى مقامك فتعطي كأس فرعون في يده كالعادة الأولى حيث كنت ساقيه وإنما إذا ذكرتني عندك حينما يصير لك خير تصنع إلي إحساناً وتذكرني لفرعون وتخرجني من هذا البيت

لأني قد سرقت من أرض العبرانيين وهنا أيضاً لم أفعل شيئاً حتى وضعت في السجن. فلما رأى رئيس الخبازين أنه عبر جيداً قال ليوسف: أنا كنت أيضاً في حلمي وإذا ثلاثة سلال حُوّاري على رأسي وفي السل الأعلى من جميع طعام فرعون من صنعة الخباز والطيور تأكله من السل من رأسي. فأجاب يوسف وقال هذا تعبيره الثلاثة سلال هي ثلاثة أيام في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك عنك ويعلقك على خشبة وتأكل الطيور لحمك عنك. فحدث في اليوم الثالث يوم ميلاد فرعون أنه صنع وليمة لجميع عبيده ورفع رأس رئيس السقاة ورأس رئيس الخبازين بين عبيده ورد رئيس السقاة إلى سقيه فأعطى الكأس في يد فرعون وأما رئيس الخبازين فعلقه كما عبر لهما يوسف ولكن لم يذكر رئيس السقاة يوسف بل نسيه» فهذا نص يهود.

قلت: كم بين هذين النصين من فروقات بينات فأربط معي يرحمني الله وإياك إن كنت من المسلمين. أما إن لم تكن مسلماً فأسلم ويلك أسلم لله قبل أن تموت فأنا والله لك من الناصحين.

وانظر كيف يظهر تناقض النص اليهودي مع نفسه من لدن بدئه إذ هو ما يلحق أن يجعل يوسف في محل رئيس السجن حتى يجعله يقوم بجميع أعمال المسجونين وإنه في هذا ليكرر نفسه فهو كما جعل يوسف من قبل خادماً في بيت مشتريه المصري ونائباً له قائماً عنه بالأعمال كذلك هو يجعله هنا في بيت السجن قائماً بالأعمال ولكن ليس فقط عن رئيس السجن بل وعن الأسرى أجمعين. فكأن النص اليهودي لا يزال يخشى على يوسف أن يكون عاطلًا عن العمل فيجوع. فهذا نص نكذبه ولا نصدقه لأن معنا في القرآن ما يقضي عليه ألا فدع نص يهود الآن.. وارجع إلى القرآن وابدأ من أول الآيات من لدن قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ﴾ ففي هذا بيان أنهما دخلاه بدخوله فإن «دخل» فعل ماض و «معه» ظرف لمكان الاجتماع وزمانه وهو متعلق بـ «دخل» والمعنى أنهما دخلا السجن مع يوسف في ساعة واحدة فهذا بين النصين فرق مبين.

ومن الفروق بينهما أن النص اليهودي يريد أن يمهد ليوسف في السجن باستخدام له واستعمال. أما القرآن المبين فإنه يبين أن صفات يوسف هي التي كانت سبيلًا له إلى القلوب. كما في قوله تعالى عن قول اللذين دخلا معه: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وسيان أرآه الفتيان محسناً من أول يوم لدن دخلا معه السجن أم بعد أيام فإن صفة الإحسان فيه هي التي دعتهما إلى أن يقصا عليه رؤياهما فإن سأل سائل فكيف يتفق أن يكونا رأياه من المحسنين من أول يوم لقياه فيه. فحينئذ نقول: إن هذا أمر نسبي يتعلق بأحوال المتعارفين وظروف التعارف. وحيث الرجلان من عبيد فرعون فهما قد علما من صفات فرعون وحاشيته صفات وجدا خلافها في يوسف وحسبك ما في قلبه من طهر يبدو على وجهه وهو نبي وللنبوة علامات. فهب أنهما ما صاحباه إلا يوماً واحداً أو ساعات فكم سيريان منه من ذكر للّه، وخشوع وصلوات. فإن الأنبياء لا يغفلون عن ذكر الله وإقام الصلاة. وكم سيريان منه من أخلاق النبوة من صبرهما إلى مثله محتاجان ورفق هما إلى بعضه متعطشان. ومن عرَفَ السجون والمستشفيات أو عرف السفر في الطائرات والقطارات علم سرعة قيام الصحبة في تلك المحلات. فكيف إذا كان الرجلان آتيين من دار السلطان إلى سجن السلطان وهما متهمان والموت أدنى إليهما من الطرف للأجفان فبينا هما كذلك على وجل ويأس إذا بهما وقد طلعت عليهما الشمس، شمس ذلك الوجه المصلى عليه والذي يسطع نور النبوة بين عينيه هنالك حسبهما أن يبصرا يوسف أول حين حتى يقولا إنا نراك من المحسنين. فهذا إن كانا قالا له ذلك من أول يوم. أما إن كان ذلك القول منهما بعد أيام. فإنهما يكونان قد رأيا من خلقه العال ما دعاهما إلى مثل ذلك المقال.

فأين هذه المعاني السامية التي يعطيناها قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ من نص اليهود المهين الذي جعل يوسف المرسَلين يقوم بأعمال المسجونين فهذا فرقان مبين.

ثم انظر إلى قول النص اليهودي إن يوسف دخل في الصباح إلى الساقي والخباز وإذا هما مغتمان فسألهما لماذا وجهاكما مكمدان اليوم فقالا له حلمنا حلماً وليس من يعبره فجعله النص اليهودي يقول لهما: «أليست للّه التعابير قصا علي» فانظر كم بين هذا وبين القرآن من فروقات يعلم كل فطن منها أن الحق هو في آي القرآن المبين. فقد جعل النص اليهودي يوسف يبدأ بسؤال الرجلين عن حالهما ثم جعله يدعوهما لأن يقصا عليه ما رأياه ثم جعله لا يذكر الله إلا للتعابير. ومثل هذا لا يتناسب مع صفات نبي يرى أمامه اثنين كافرين كلاهما على خطر عظيم أحدهما على خطر الرجوع إلى خدمة فرعون باقياً على دينه فهو محتاج إلى معرفة ربه الحق وثانيهما على شفا الموت فهو محتاج إلى خاتمة صالحة ذات إيمان. فما ليوسف لم يدلهما على طريق النجاة ولم يبين لهما الدين الحق وما له لم يذكر الله أمامهما إلا مرة واحدة استدراجاً لهما أن يقصا عليه الأحلام. فهل يناسب هذا صفات الأنبياء الذين يحملون رسالة الله. فهذا هو النص اليهودي.

أما نص القرآن المبين فإنه يقص علينا الحق الذي يتفق مع صفات الأنبياء إذ ما أن يسمع يوسف رؤيا الرجلين وقد علم التأويل حتى يبدأ بالدعوة إلى الله وقد مهّد لذلك بإظهار معجزته كدأب الأنبياء إذ قال لهما: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

فصل
أسلوب يوسف في الدعوة إلى الله

فانظر إلى هذه المعجزة الظاهرة في إقامة الحجة على الرجلين أنه رسول الله وذلك بأنه لا يأتيهما طعام يرزقانه من خارج سجنهما إلا نبأهما به قبل أن يأتيهما. وهذا معنى يأتيكما فإن الإتيان يكون من

مكان إلى مكان. فكذلك قال حتى إذا استقر قوله في سمعهما: إما آمنا به وصدقاه وإما قامت عليهما حجة الله. ثم وصل ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي﴾ ليبين لهما أنه ليس منجّماً ولا عرّافاً ولا كاهناً لأن أولئك يقولون فيخطؤون ويكذبون. أما هو فيجعل صدقه في ذلك دليل رسالته أنه من عند الله وأنه لا خطأ فيه ولا أكاذيب وأنه إذ هو كذلك فلا يمكن إلا أن يكون برهان حق مبين. وابتدأ بذلك أن يبين لهما معرفة الله وأنه هو الرب الحق لأنه علّمه من الغيوب حيث لا تستطيع الأرباب الأخرى أن تعلّم عابديها شيئاً. ثم ابتدأ بالنفي فنفى ملة الكفر وتبرأ منها إذ قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وحيث جملة ﴿إِنِّي تَرَكْتُ﴾ تعليلية فالمعنى: أي بسبب أني تركت ملة الكفر وانظر إلى مناسبة فعل الترك هنا فإن الترك في لغة العرب يعني الإغفال والعرب تسمي المرأة التي لا يتزوجها أحد تريكة أي تُركت فلم يقربها أحد فحيث كان يوسف قد شبّ في أرض مصر وبلغ أشده فيها وعاش بين قوم من أهلها وهم على ملة الشرك فحسن هنا أن يقول ما معناه: إني وإن نشأت في مصر فإني لم أتأثر بملة أهلها بل أغفلتها ولم أقربها فبسبب ذلك علمني ربي، وهذه الملة التي تركتها هي ملة قوم لا يؤمنون بالله، فذكر الله باسمه الأعظم الذي فطرت على معرفته القلوب تذكرة لهما وفي ذكر اسم الله لهما دليل على أنهما وقومهما كانوا يعرفون الله ولكن كانوا به يشركون. وانظر إلى قوله: ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ مع قوله: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

فقد نفى عنهم الإيمان بالله نفياً أكّد فيه أن الإيمان بالله أمر بديهي معلوم وسر ذلك أن جاء باسم الله على ما كان قرره في نفوسهم من بديهي الإيمان بالله. كما تقول: فلان لا يرى الشمس فنفى رؤيته لشيء ثابت معلوم. فانظر إلى هذا الإعجاز التقريري البديهي في دعوته إلى الإيمان بالله. ثم قال: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ فأثبت أن الآخرة أمر غيبي ليست في نفسها من بديهيات

الإيمان لذلك لم يقل وهم بالآخرة لا يؤمنون بل قال: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ وذلك أن الإيمان بالآخرة لا يكون إلا مع الإيمان بالله. فإذا انتفى عنهم الإيمان بالله الذي هو الحق المبين صار أمرهم في جهلهم بالآخرة أمر كفر محض إذ لم يكن لهم أصل إيمان فيه إذ لا يؤمنون بالله الذي الإيمان به هو أصل أركان الإيمان ومنها الإيمان بوجود الآخرة.

فأثبت بذلك أن الآخرة أمر غيبي وأن الذين لا يؤمنون بالله هم الذين بالآخرة يكفرون.

ثم إنه بذلك قد دعاهما إلى أعظم أركان الإيمان وهو الإيمان بالله واليوم الآخر. وانظر إلى حسن مجيء ذكر الآخرة هنا لا سيما بالنسبة للذي علم أنه سيُصلب منهما فإنه على أبواب الآخرة والإيمان بلقاء الله سيخفف عنه وقع ما سينبئه به من تأويل رؤياه.

وسيفتح له باباً ذا رجاء يدخل منه إلى الإيمان بالله. حتى إذا قرر لهما هذا التقرير فابتدأ يذكر لهما نسبه وانتماءه وهو يخاطب بذلك أناساً كانت العادة فيهم وراثة المناصب والرتب، فأخبرهما أنه من أهل بيت النبوة وأنه متبع لها فقال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ والمعنى يفهمهم أنه اتبع ملة آبائه الأنبياء الذين لا ينبغي لهم أن يشركوا بالله من شيء. وانظر إلى قوله من شيء. فلم يقل شيئاً بل جاء ببعض الشيء أي لا ينبغي لنا أن نشرك بالله أدنى شرك. ثم كأنه قد رأى في أعينهما دهشاً أن كانا أول مرة يسمعان مثل هذا الكلام.. فارتقى بهما إلى مقام التذكرة الكبرى التي تنفتح بها الألباب فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي هذا الفضل من الإيمان هو أصلًا فضل من الله على كل الناس فكل إنسان يعلم بفطرته أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وإنما حقت عليهم الغفلة عن هذا الفضل الإيماني فخرجوا من التوحيد

إلى الشرك بترك الشكر عليه فكذلك قال يوسف: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فنعوذ بوجه الله الرحمٰن من الكفر بعد الإيمان ومن السوء بعد الإحسان ومن الغضب بعد الرضوان ولا حول ولا قوة إلا بالله وحسبنا الله لا إله إلا هو عليه توكلنا وهو رب العرش العظيم.

ثم انظر إلى حكمة يوسف في إيصال الحجة إلى القلوب إذ يبدأ بعد ذلك أن يخاطبهما بحق الصحبة وما أحسن وقع ذلك من نبي داع على اثنين مشركين يُدْعَيَان. وهو يمهد لهما بذلك ليقيم عليهما حجة التوحيد إذ يقول: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ وفي هذه الآية زيادة بيان واتفاق مع ما قلناه من قرب من أنهما وقومهما كانوا يعرفون الله ولكنهم كانوا به سبحانه يشركون. وهم في حالهم هذا من الشرك على غير حال فرعون موسى الذي كان وقومه ملحدين جاحدين معطلين. فدع فرعون وقومه في لعنة الله وقل السلام على موسى ثم ارجع وانظر هنا إلى ابتداء تقرير الحجة عليهما باستفهام تقريري يقرر فيه ببرهان مبين أنه لا خير في أرباب متفرقين، بل وجود أرباب متفرقين يعني وجود إرادات كثيرة واختلافات وصراعات وفوضى وفساد فمعنى قوله أفزعمكم ذلك على افتراض كونه يكون خيراً أم الخير الحق هو وجود الإله الحق الواحد الذي لا شريك له، الذي وسع خيره كل شيء وهو القهّار للشر والأشرار. ثم كأنه بذلك كان يشهدهما تصريف ملكوت الكون وأنه لا متصرف بالحق إلا الله الواحد القهار. حتى إذا استقر ذلك في أسماعهما وقامت به الحجة عليهما فخرج عند ذلك من الخطاب للمثنى إلى الخطاب للجمع فقال يسمع أهل السجن أجمعين. حيث كان كل واحد منهم عاكفاً على صنم يدعوه ويستغيثه هنالك تابع يوسف يقول وقد شد إليه آذان السجناء: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ وتالله إنه لفي خروجه ذاك من خطاب المثنى إلى خطاب الجمع كان كأنه يستحضر

عبر الزمن كل أصناف المشركين الطاغين الحاكمين بغير شريعة الله فيقيم على أم رؤوسهم جميعاً حجة الله بهذه الكلمات البينات المباركات التي تخضع لها وتشهد بها أهل الأرض والسماوات أن ربها ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فأين هذا البيان الذي يتفق مع صفات رسل الرحمٰن من نص اليهود العريان الذي جعل غاية الحدثان أن يكون يوسف في مقام السجّان. فهذا فرقان مبين. فهل بعد هذا التبيان يجترىء إنسان أن يقول بلسان إن التوراة كالقرآن. كلا والرحمٰن فإن في القرآن التبيان والبرهان وفي اليهودية الزور والبهتان وهما والله لا يستويان.

ثم انظر إلى النص اليهودي إذ جعل يوسف لا يذكر الله إلا مرة واحدة يتوسل بها إلى استماع المنامين من الرجلين إذ جعله النص يقول: أليست لله التعابير. ومعنى هذا النص يتضمن وعداً بالخير من الله الذي له التعابير ولكن سياق النص لا يأتي بخبر عن ذلك الخير الذي وعد به إلا ما كان من نجاة أحد الرجلين نجاة دنيوية عاد بها إلى عبادة فرعون وخدمته أما نجاة نفسه من الكفر بالإيمان وذلك هو الخير الحق فليس لتلك النجاة في التوراة المفتراة وجود. هذا بالنسبة للساقي أما الخباز فلم ينل في النص اليهودي خيراً قط بل ما نال إلا يأساً على يأسه وانتظاراً أن تأكل الطير من رأسه. فهذا فرقان مبين. ثم انظر الفرق في سياق الرؤيا بين النصين تجد القرآن المبين المعجز المتفق بعضه مع بعض يذكر الرؤيا على لسان صاحبيها باختصار شديد. كأن لم تكن إلا إشارة أو رمزاً. وفي ذلك ترك مجال لإظهار علم يوسف بالتأويل لتقوم حجة رسالته على الرجلين. أما النص اليهودي فإنه يذكرها على لسان صاحبيها كأنها مفسرة مما لا مجال فيه لظهور علم يوسف بالتأويل.

فخذ الرؤيا الأولى من القرآن تجد صاحبها يقول فقط هذه الكلمات: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ ثم خذها من النص اليهودي تجده يقول: «كنت في حلمي وإذا كرمة أمامي وفي الكرمة ثلاثة

قضبان وهي إذ أفرخت طلع زهرها وأنضجت عناقيدها عنباً وكانت كأس فرعون في يدي فأخذت العنب وعصرته في كأس فرعون وأعطيت الكأس في يد فرعون» فهذه رؤيا لا يعجز عن تأويلها الأطفال بل هي يفسر بعضها بعضاً فأي إعجاز يبقى ليوسف بعد هذا وأي علم له يظهر في تفسير شيء مفسر. فهذا فرقان مبين.

ثم خذ أيضاً رؤيا الخباز من القرآن تجده فيها يقول: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾ فإذا رجعت إلى مثلها من نص اليهود تجده يقول: «كنت أيضاً في حلمي وإذا ثلاثة سلال حُوَّارى على رأسي وفي السل الأعلى من جميع طعام فرعون من صنعة الخباز والطيور تأكله من السل عن رأسي» ففي هذه الرؤيا وسابقتها من نص اليهود جاء ذكر فرعون هذا يعطي كأس فرعون وذاك يحمل طعام فرعون وكلاهما ذكر ما يدل على ثلاثة أيام هذا ذكر ثلاثة قضبان وذاك ذكر ثلاثة سلال ولو أن رجلًا لا دين له قرأ سياق المنامين في النص اليهودي ثم قرأ تأويل يوسف فيه لقال: ليس في تأويل مثل ذلك كبير علم ليوسف ولا فيه إعجاز. فهذا فرق مبين.

ثم إنا نكذبهم في مجيء ذكر فرعون في الرؤيا ونكذبهم في ذكر ثلاثة أيام وقضبان وسلال. ونقول: إن الله قصّ علينا غيره. قصّ علينا رؤيا رجلين ليس في رؤياهما ذكر فرعون ولا ذكر ثلاثة أشياء وقد أعلمنا سبحانه وهو أصدق القائلين أن كلًا من الرجلين قال في ابتداء كلامه: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ﴾ فعلمنا من سياق الكلام أن الله قد قصّ علينا كل ما كان قد رآه ذانك الرجلان. فهذا فرقان مبين.

ثم نحن نكذبهم فيما قوَّلوه ليوسف في نصهم إذ يقول للساقي: «إني سرقت من أرض العِبرانيين» فقد علمنا من القرآن أنه كان قد ذكر لهما غير ذلك ذكر سلسلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ولم يذكر أرض العبرانيين وعلمنا بذلك أنه انتسب وانتمى إلى الأنبياء ولم ينتمِ أو ينتسب إلى أرض أو قوم. وفي هذا فرق مبين.

ونكذبهم في جعلهم يوسف يقول للخباز وتأكل الطيور لحمك عنك فقد علمنا من القرآن المبين أنه قال: ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ وفي هذا فرقان مبين.

ثم نكذبهم أيضاً في جعلهم يوسف يفسر للرجلين رؤياهما بضمير المخاطب. ونقول: إن الله قصّ علينا في القرآن أن يوسف أجرى معهما الكلام عند التأويل على ضمير الغائب كما في قوله تعالى عنه: ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ وقوله: ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ فلم يقل للساقي وتسقي ربك خمراً ولا للخباز فتُصلب فتأكل الطير من رأسك وذلك رحمة بالخباز ألا ترى كيف أبهم الخطاب في ضمير المثنى لكل منهما كراهية أن يخاطب الخباز بما يكره فقال للأول: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وقال للثاني: ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ مع علمه بأن كلّا من قولبه كان معلوماً لكل منهما ولكنه أشفق على الخباز. وفي هذا تناسب واتفاق مع أخلاق الأنبياء ذوي الرحمة والحياء. فأين هذا من أسلوب النص اليهودي الذي جعل يوسف يقول للخباز بضمير المخاطب في وجهه «في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك عنك ويعلقك على خشبة وتأكل الطيور لحمك عنك» فانظر نقصان النص اليهودي أمام القرآن في كل شيء وقل سبحان من أكمل هذا القرآن وجعله حجة على العالمين فهذا والله فرقان مبين.

ثم انظر الفرق بين قوله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ وبين قول النص اليهودي «ولكن لم يذكر رئيس السقاة يوسف بل نسيه» ففي القرآن أن الشيطان أنسى الساقي أن يذكر يوسف عند ربه أي عند سيده ملك مصر. وفي النص اليهودي أن الساقي نفسه هو الذي نسي يوسف. فقد ذكر القرآن تدخل الشيطان عدو بني آدم ولم يذكر النص اليهودي هنا شيئاً عن الشيطان. فانظر هنا الفرق الدقيق بين هذين النصين المتشابهين.. وفي هذا الإعلام من الله عن وجود شخص ثالث هو الشيطان فرق مبين بين نص القرآن المهيمن من لدن الذي يعلم السر وأخفى وبين النص اليهودي المحرَّف الذي نكذبهم

ولا نصدقهم فيه. فهذا فرقان مبين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ قلت: الظن هنا للساقي الذي نجا فهو فاعل الظن وليس ليوسف فحاشاه من الظن فهو على بصيرة من ربه فيما آتاه.. ولا حاجة أن يقال إن الظن هنا بمعنى اليقين. فإن جادلنا أحد فقال إن الله تعالى أخبرنا عن المؤمن يوم القيامة أنه يقول: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ فحينئذ نقول ونستعين الحي الذي لا يزول: إن المؤمن كان في الدنيا موقناً فإذا رأى حقائق يوم القيامة فعند ذلك يتراءى ما كان فيه من اليقين في الدنيا كأنه كان ظناً بالنسبة لما يراه من حقائق يوم القيامة. فمن هاهنا تعلم أن اليقين درجات وأن أسماء الأحوال الواقعة في الدنيا ليست كأسماء الأحوال الواقعة يوم القيامة وأنه ليس يقين الموقن في الدنيا بالقيامة كيقينه بها يوم القيامة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾ فبيّن أنه مهما كان الإنسان في الدنيا بلغاً من العلم فلن يعلم فيها علم اليقين لأن «لو» في قوله تعالى: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ للممتنع. فاعقل وافهم وقل الحمد لله الفتاح العليم الذي فتح على الناس بهذا الكتاب المبين الذي أنزله على محمد سيد المرسَلين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ

فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِىۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ فهذه آيات الكتاب المبين.

وأما النص اليهودي وهو الإصحاح الحادي والأربعون من سفر التكوين فإنه يقول: «وحدث من بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلماً وإذا هو واقف عند النهر، وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر حسنة المنظر وسمينة اللحم فأرتعت في روضة ثم هوذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها من النهر قبحية المنظر ورقيقة اللحم فوقفت بجانب البقرات الأولى على شاطىء النهر فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرقيقة اللحم البقرات الحسنة المنظر والسمينة واستيقظ فرعون. ثم نام فحلم ثانية وهو ذا سبع سنابل طالعة في ساق واحد سمينة وحسنة ثم هوذا سبع سنابل رقيقة وملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السبع السمينة الممتلئة واستيقظ فرعون وإذا هو حلم. وكان في الصباح أن نفسه انزعجت فأرسل ودعا جميع سحَرَة مصر وجميع حكمائها وقصّ عليهم فرعون حلمه فلم يكن من يعبره لفرعون ثم كلّم رئيس السقاة فرعون قائلًا: أنا أتذكر اليوم خطاياي فرعون سخط على عبديه فجعلني في حبس بيت رئيس الشرط أنا ورئيس الخبازين فحلمنا حلماً واحداً في ليلة واحدة أنا وهو حلمنا كل واحد بحسب تعبير حلمه. وكان هناك معنا غلام عبراني عبد لرئيس الشرط فقصصنا عليه فعبر لنا حلمينا عبر لكل واحد

بحَسَبِ حلمه وكما عبر لنا هكذا حدث ردني أنا إلى مقامي وأما هو فعلقه. فأرسل فرعون ودعا يوسف فأسرعوا به من السجن فحلق وأبدل ثيابه ودخل على فرعون. فقال فرعون ليوسف: حلمت حلماً وليس من يعبره وأنا سمعت عنك قولًا إنك تسمع أحلاماً لتعبرها فأجاب يوسف فرعون قائلًا ليس لي، الله يجيب بسلامة فرعون. فقال فرعون ليوسف إني كنت في حلمي واقفاً على شاطىء النهر وهوذا سبع بقرات طالعة من النهر سمينة اللحم وحسنة الصورة فأرتعت في روضة ثم هوذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها مهزولة وقبحية الصورة جداً ورقيقة اللحم لم أنظر في كل أرض مصر مثلها في القباحة فأكلت البقرات الرقيقة والقبيحة البقرات السبع الأولى السمينة فدخلت أجوافها ولم يعلم أنها دخلت في أجوافها فكان منظرها قبيحاً كما في الأول. واستيقظت ثم رأيت في حلمي وهوذا سبع سنابل طالعة في ساق واحد ممتلئة وحسنة ثم هوذا سبع سنابل يابسة رقيقة ملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل الحسنة فقلت للسَحَرة ولم يكن من يخبرني. فقال يوسف لفرعون: حلم فرعون واحد قد أخبر الله فرعون بما هو صانع البقرات السبع الحسنة هي سبع سنين والسنابل الحسنة هي سبع سنين هو حلم واحد والبقرات السبع الرقيقة القبيحة التي طلعت وراءها هي سبع سنين. والسنابل السبع الفارغة الملفوحة بالريح الشرقية تكون سبع سنين جوعاً هو الأمر الذي كلمت به فرعون قد أظهر الله لفرعون ما هو صانع هوذا سبع سنين قادمة شبعاً عظيماً في كل أرض مصر ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعاً فينسى كل الشبع في أرض مصر ويتلف الجوع الأرض ولا يعرف الشبع في الأرض من أجل ذلك الجوع بعده لأنه يكون شديداً جداً وأما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين فلأن الأمر مقرر من قبل الله والله مسرع ليصنعه. فالآن فلينظر فرعون رجلًا بصيراً وحكيماً ويجعله على أرض مصر يفعل فرعون فيوكل نظاراً على الأرض ويأخذ خمس غلة أرض مصر في سبع سني الشبع فيجمعون جميع طعام هذه السنين

الجيدة القادمة ويخزنون قمحاً تحت يد فرعون طعاماً في المدن ويحفظونه فيكون الطعام ذخيرة للأرض لسبع سني الجوع التي تكون في أرض مصر فلا تنقرض الأرض بالجوع. فحسن الكلام في عيني فرعون وفي عيون جميع عبيده. فقال فرعون لعبيده: هل نجد مثل هذا رجلًا فيه روح الله ثم قال فرعون ليوسف بعدما أعلمك الله كل هذا ليس بصير وحكيم مثلك أنت تكون على بيتي وعلى فمك يقبل جميع شعبي إلا أن الكرسي أكون فيه أعظم منك ثم قال فرعون ليوسف انظر قد جعلتك على كل أرض مصر وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب في عنقه وأركبه في مركبته الثانية ونادوا أمامه اركعوا وجعله على كل أرض مصر وقال فرعون ليوسف أنا فرعون فبدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله في كل أرض مصر ودعا فرعون اسم يوسف صفنات فعنج وأعطاه أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون زوجة فخرج يوسف على أرض مصر وكان يوسف ابن ثلاثين سنة لما وقف قدام فرعون ملك مصر فخرج يوسف من لدن فرعون واجتاز في كل أرض مصر» فهذا نص اليهود.

قلت: يبدأ الفرق بين خبر القرآن العظيم ومحرفات اليهود في المدة التي لبثها يوسف في السجن فقد مرّ معنا قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ والبضع في اللسان الذي نزل به القرآن ما بين الثلاثة إلى العشرة والنص اليهودي يحدد فترة سجن يوسف بسنتين وفي هذا فرق مبين.

ثم انظر الفرق بين سياق الرؤيا في القرآن وفي نص اليهود تجد مثل ما قلناه من قبل من أن الآية القرآنية تترك مجالًا لإظهار معجزة يوسف في التأويل فقد جاءت رؤيا الملك في القرآن في إحدى عشرة كلمة وهي ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ وهي في النص اليهودي تزيد على سبعين كلمة فهي فيه تكاد أن تكون ظاهرة مفسرة ولا فضل ليوسف في تفسيرها.

فقد جاء فيه «طلوع البقرات من النهر» وأنها كانت «حسنة المنظر» «سمينة اللحم» وأنها «أرتعت في روضة» وهذا كله أمام كلمة واحدة في القرآن وهي قوله تعالى: ﴿سِمَانٍ﴾ فلم يذكر القرآن من صفات البقرات السبع إلا أنها ﴿سِمَانٍ﴾ وكذلك السبع الأخريات لا وصف لها في القرآن إلا في كلمة واحدة وهي أنها ﴿عِجَافٌ﴾ وجاء وصفها في نص اليهود في كلمات وهي «طالعة من النهر» «قبيحة المنظر» «رقيقة اللحم» «ووقفت بجانب البقرات الأولى على شاطىء النهر» وكذلك السنبلات لم يذكر القرآن لكل من نوعيها إلا صفة واحدة وهي: ﴿خُضْرٍ﴾ و ﴿يَابِسَٰتٍ﴾ وجاء لكل من نوعيها في النص اليهودي عدة صفات فهي «طالعة في ساق واحد» و «سمينة» و «حسنة» والأخرى «رقيقة» و «ملفوحة بالريح الشرقية» و «نابتة وراءها» فانظر إلى قوله عن البقرات الرقيقة فوقفت بجانبها وقوله عن السنابل الرقيقة نابتة وراءها وقوله فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السبع السمينة الممتلئة فأي شيء بقي لتأويل يوسف بعد هذا البيان. ثم هم يغيرون في هذا النص ويزيدون منه وينقصون في صفحة واحدة وذلك عندما يعاود نصهم قص الرؤيا على لسان فرعون ليوسف حيث ترى أن فرعون لا يقصّ على يوسف ما كان قصّه من قبل سواء بسواء بل يزيد فيه وينقص منه ويقدم فيه ويؤخر.

ففي القص الأول يبدأ فيقول: «حسنة المنظر» وفي الثاني يبدأ فيقول: «سمينة اللحم» وفي الأول يقول: «حسنة المنظر» وفي الثاني «حسنة الصورة» وفي الأول يجعل البقرات الأخرى «طالعة من النهر» وفي الثاني لا يذكر نهراً. وفي الأول يقول: «قبيحة المنظر ورقيقة اللحم» و في الثاني يقول: «إنها مهزولة وقبيحة الصورة جداً ورقيقة اللحم» ثم يضيف جملة كاملة لم تكن في القص الأول وكأنما أضافها ليساعد يوسف على التأويل فيقول: «لم أنظر في كل أرض مصر مثلها في القباحة» وهو في الأول يذكر أنها وقفت بجانب البقرات الأولى وأكلتها وفي الثاني يقول: «إنها دخلت في أجوافها ولم يعلم أنها

دخلت في أجوافها فكان منظرها قبيحاً» وهو في الأول يذكر السنابل بأنها سمينة وفي الثانية يقول إنها ممتلئة.

فبالله كيف يكون مثل هذا وحياً من الله وفيه هذا الاضطراب والنقص والزيادة والتقديم والتأخير وهو لم يزل بعد في صفحة واحدة. وبينا تجد مثل هذا الاضطراب والنقص والزيادة في صفحة واحدة من النص اليهودي وعلى لسان قائل واحد هو فرعون.. تجد في القرآن أن الساقي إذ ينقل الرؤيا إلى يوسف يذكرها كما ذكرها الملك حرفاً بحرف من غير تقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقصان فهذا الملك يقول: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ﴾ وهذا الساقي يقول: ﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾ فانظر إلى اتفاق السياق الواحد على لسانين اثنين في القرآن وانظر إلى اختلاف السياق الواحد على لسان قائل واحد في توراة اليهود. فهذا فرقان مبين.

ثم من الفروقات المبينة أن القرآن يجعل ما رآه الملك من بقرات وسنابل رؤيا واحدة كما في قوله: ﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ﴾ وأن النص اليهودي يجعل مثل ذلك في منامين اثنين يجعل بينهما فرعون يستيقظ ثم يعاود النوم. وقد جرت العادة أن الذي يرى رؤيا ثم يستيقظ منها ثم ينام فيرى غيرها أنه يذكر الأخرى وينسى الأولى فإن قيل فقد يذكرهما معاً بعد ذلك، فنقول: إن ذلك أمر نادر والأصل أن الوحي الإلهي جاء على المعلوم المعقول الذي يعرفه كل البشر ليكون حجة على كل منهم مما يعلم كل من نفسه. ثم من الفروقات أن النص اليهودي يجعل فرعون يرسل فيدعو جميع سَحَرَة مصر وجميع حكمائها فيقص عليهم حلمه فلم يكن من يعبر له. وحتى تعلم كذبهم في نصهم هذا عد إلى الآية المبينة حيث أخبر تعالى عن قول ملك مصر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ ولكي تعلم معنى الملأ وأن السَحَرَة ليسوا منهم عد إلى قوله تعالى عن موسى وفرعون

في سورة الشعراء. قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾.

فقد علمت الآن من الربط بين هذه الآيات البينات أن السَحَرَة ليسوا من الملأ وأن الذين خاطبهم الملك بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى﴾ لا سَحَرَة فيهم بل هم أكابر قومه فالملأ في اللسان الذي أُنزل به القرآن هم أشراف القوم ووجوههم الذين يرجع إلى قولهم وأعاظم هؤلاء هم الذين يكونون حول الملك في ديوانه تحت عينيه وبين يديه يشاورهم ويرجع إلى قولهم. وهم الذين يقال لهم الوزراء والأعيان. فهذا معنى الملأ.

كأنهم سموا الملأ لأنهم يملأون مكاناتهم أو لأنهم امتلأوا حكمة وعلماً أو عزاً وشرفاً.

ثم إنك قد علمت من الآيات التي فيها من نبأ موسى وفرعون أن إحضار السَحَرَة يحتاج إلى وقت طويل وهذا في زمن موسى وهو بعد يوسف بزمن طويل حيث يُفترض تطور البريد وازدياد سرعة الاستحضار في زمن موسى وفرعون عما كان في زمن يوسف وذلك الملك وكذلك الأمم تزداد في أمور الراحة عصراً بعد عصر. وحيث كانت الحاجة إلى إحضار السَحَرَة زمن موسى لينازلوه أشد منها زمن يوسف لتفسير منام.

ومع ذلك فقد احتاج إحضار السَحَرَة في زمن موسى المتطور عن زمن يوسف إلى بعث رسل في المدائن حاشرين وإلى ميقات يوم علوم.

فهذه فروقات بينات، تعلم منها كذب نص اليهود في قولهم إن ذلك الفرعون دعا جميع سَحَرَة مصر وجميع حكمائها ليقص عليهم

حلمه في ذلك الصباح الذي أصبح فيه منزعجاً. وقد علمنا من خبر القرآن الحق المبين أن الملك ما خاطب إلا مَن كان بحضرته من كبراء قومه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣)﴾ فإن ياء النداء وهاء التنبيه هنا هما للمنادى الذي يسمع. فهذا فرقان مبين.

ثم انظر الفرق بين قولهم: «فلم يكن من يعبره له» والمعنى سكتوا جميعاً عن الجواب أو قل إن النص اليهودي لم يذكر له جواباً فاعقل هذا ثم انظر قول القرآن المبين إذ أخبر أنهم أجابوا وأنهم ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ (٤٤)﴾ الا وإنك سترى إن شاء الله عما قليل أبعاد هذا الجواب. فارجع الآن النظر في قول الملك: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ فهو في شك من علمهم بتعبير الرؤيا وهذا يعطينا صورة عن ثقافة ذلك المجتمع الغابر وأنها كانت غير ذات صلة بعالم الكشف والروح. فإذا ربطنا بين ذلك وبين ما كانوا يبرعون فيه من نحت ورسم وتصاوير علمنا أن غاية علمهم بالغيب كانت لا تتعدى عالم المادة فلا نتفاجأ بعد ذلك إذا اكتشفنا اليوم أنهم كانوا يضعون مع موتاهم رموز الطعام والشراب. فانظر إلى آيات القرآن كيف تهبك الكشف والاطلاع على حقيقة ماضٍ بعيد. فهذا فرقان مبين.

كذلك هو في شك من علمهم بتأويل الرؤيا لأن أكثر المشركين لا علم لهم بالرؤيا ولا هم بالرؤيا يهتمون. ففي قول الملك لهم: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ إظهار لما في نفسه من الشك في علمهم بالتعبير وفي هذا الإظهار لما في نفسه من الشك تعريف لنا بشيء من صفات ذلك الملك الذي سيكون له مع يوسف شأن عظيم. فهو ملك عادل قياساً إلى غيره من ملوك ذلك الزمان إذ لم يلزم ملأه بعلم ما لا يعلمون. فإذا استطردنا نستنبط من الآيات صفات ذلك الملك فنقول: وهو حكيم قياساً إلى أقرانه إذ يضع الأمور في مواضعها إذ سيجعل

يوسف على خزائن الأرض، وهو متواضع قياساً إلى أمثاله من الملوك إذ لن يحاسب يوسف لما أرسل إليه يدعوه أول مرة فأبى أن يجيئه حتى يسأل النسوة اللاتي قطّعن أيديهن فسألهن فشهدن بصدقه. وهو حليم قياساً إلى أشباهه من أولي الجبروت إذ يغض عينيه عن خداع ملأه له وعن تجرؤهم عليه إذ أجابوه لما قصّ عليهم رؤياه أن قالوا: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ ومعنى قولهم: أي ما رأيته أيها الملك هو أخلاط وأباطيل ومثل هذا الجواب لا تسمح به الملوك، فقد قاربوا أن يقولوا له كنتَ في سوء تخمة وهذيان، وانظر بعد أن وصفوا رؤياه بالخلط والأباطيل كيف أوهموا لإخفاء جهلهم بالتعبير أنهم يتنزهون عن هذا العلم فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ فها أنت الآن قد استحضرت من خبر القرآن صورة نفسية حية لذلك الملك وللملأ من قومه حيث يمكنك أن تتراءى نفسك في ذلك الديوان وأنت تسمع وتبصر فأين هذا الإعجاز الذي تعجز عنه إحاطات خيالات النفوس من نص اليهود الذي لا يعطي ظل صورة ولا أثر انفعال نفس ولا اختلاجة حياة والذي يقول في توقح جامد: «فأرسل فدعا جميع سَحَرَة مصر وحكمائها وقصّ عليهم فرعون حلمه فلم يكن من يعبره لفرعون» فهذا فرقان مبين.

ثم انظر الفرق في قصة الساقي بين النصين ففي القرآن حصلت له السعادة بالإيمان إذ صدق يوسف إذ قال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ وهذا يعني أنه آمن بنبوته وشهد له. وأما في التوراة المفتراة فقد بقي يراه عبداً عبرانياً مع اعترافه بوقوع تعبيره فهذا فرق مبين.

كذلك الفرق بين القرآن المبين وتوراة المفترين أن القرآن وهو الحق من الله قد أخبر أن يوسف عبر الرؤيا للساقي فنقلها ذاك إلى الملك. أما في التوراة المفتراة فإن محرفيها يجعلون يوسف يسارع معهم إلى لقاء فرعون وهم لا ينسون هنالك أن يجعلوه يحلق ويبدل ثيابه فقاتلهم الله ما أعرفهم بالأدب مع المخلوقين وما أجهلهم بالأدب مع رب العالمين. ثم هم يجعلون فرعون يقص عليه الرؤيا وكذبوا

والله فما في القرآن أن يوسف عبر رؤيا الملك للملك بل للساقي الذي بلّغها الملك. فأمرهم بالإتيان به فأبى يوسف وقال: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾ فهذا فرقان مبين.

فانظر هنا كم في هذه الآيات البينات المتمات المكملات الفارقات التي ليس لها شبيه في التوراة المفتراة كم فيها من حِكَم ظاهرات وعِبَر بالغات.. ففيها تبرئة ليوسف على ملأ من الأشهاد وفيهم الملك والأعيان والقواد. وفيها تبرئة للنسوة اللاتي لهن تعلق بيوسف تبرئة لهن من الكذب والنفاق.. وفيها أيضاً تهيئة ليوسف إذ سيكون حاكماً في أرض مصر فلو بقي متهمَاً لنظر الناس إليه بعين الانتقاص. وفيها فوق ذلك حجة للنبوة التي الحجة لها أعظم الغايات فلقد كان يوسف من أصحاب الرسالات كما أخبر الرحمٰن رب الكائنات فيما أنزل على محمد ﷺ من آيات: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فهذا فرقان مبين.

وانظر إلى قول يوسف: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ فذكرهن ولم يذكر تلك التي عاش في بيتها السنوات حفظاً لحق العِشرة وصوناً للحرمات. ثم انظر في جواب النسوة تعلم أنهن لم يزلن والهات ألا ترى جوابهن لما سألهن الملك: ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ فكأنهن لم يسمعن التهمة التي وُجهت إليهن بل ما سمعن إلا أن يوسف يراود عن نفسه فشُغلن بيوسف عن الدفاع عن أنفسهن فقلن ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ فشهدن بذلك على أنفسهن أعظم الشهادات وبرّأن يوسف أعظم التبرئات. ومعنى قولهن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ أي تنزه الله خالق يوسف عن أن يكون جعل في يوسف شيئاً من السوء. هنالك فاض

بتلك المرأة الصدق والحب والإيمان إذ تقول: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فكانت بذلك أعظم امرأة في تاريخ الاعتراف بالحب.. ثم اعترفت بلوعة قلبها وهي تخبر عن حفظها لحقه بالغيب.. ثم ابتدأت تُظهر لنا معرفتها بالله إذ قالت: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ ثم اعترفت ثالثة أخرى بما أظهرت به أنها أستاذة علم النفس في النساء إذ قالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ وهنا كانت تلك المرأة تعلن إيمانها بالله ومعرفتها به أنه غفور رحيم.

فصل
توبة امرأة العزيز

فأعد النظر في الآيات الثلاث، وانظر فيها كيف أضحت نفس تلك المرأة في مقام آخر من الرجوع إلى الله، والخشوع له والمتاب إليه. تلك التي لما ابتليت بحب يوسف مكرت وكادت فلما عرفت رب يوسف صدقت وبرت واعترفت على ملأ من العالمين. فليت شعري لو كانت تلك المرأة قضت وطراً من يوسف أكان يبقى لها ما تقول أم كان صرفها عن يوسف سبباً لأن ترتقي في الوصول. وليس في توراة اليهود شيء عن تلك المرأة بعد سجن يوسف ولا في توراتهم أي شيء عن النساء الأخريات فهم لا يعلمون شيئاً عنهن، ولا عما كان منهن، ولا عن صبر يوسف في ابتلائه بهن، ولا عن إعلانهن ما أعلنَّ في حضرة الملك ولا عن وجدان نفس تلك المرأة العجيبة التي انتفعت بعفاف يوسف فآمنت بالله فظهرت بذلك العبرة للخلق أنه ما من رجل يعِفُّ عن امرأة بالحرام إلا سيؤثر فيها كل على قدره ولقد أثر يوسف بالنسوة الأخريات اللائي ما فتئن يسبِّحن الله تنزيهاً له عن أن يجعل في أحبابه سوءاً.

فإذا قسنا بين هذه الأخبار التي انفرد بها القرآن والتي ليس في التوراة منها ذرة خرجنا من ذلك القياس بألف فرقان مبين.

فصل
من الإعجاز العلمي في القرآن

ثم انظر إلى الإعجاز العلمي في خبر القرآن إذ يدلهم على أسلوب التخزين الصحيح الذي لم تعرف حكمته إلا في هذا الزمن الجديد. وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ فلقد أثبت العلم اليوم أن ترك الحب في سنبله وتخزينه فيه يحميه من التسوس ومن التلف ومن عوامل البيئة. ويحفظ عليه مواده الغذائية التي هي فيه. فهذا نص القرآن المبين وليس في التوراة من ذلك شيء. بل في التوراة عكسه وهو أن الطعام يؤخذ فيخزن في المدن فانظر الفرق المبين.

ثم إنا نكذب النص اليهودي في قوله: «إن يوسف قدر لهم أن يخزنوا خمس غلة أرض مصر في سبع سنين» ونقول: هذا يعني أنهم خزنوا الأقل الذي لن يكفي الناس في السبع الشداد لا سيما أنهم يخبرون أن الناس سيأتون إلى مصر من كل مكان لأخذ الطعام فكيف سيكفي خمس الغلة أهل الأرض في سني الجوع. ولو كان لأهل التوراة المفتراة عقول لعلموا أن هذا شاهد على تحريفها مبين. وانظر الفرق بين هذا وبين خبر القرآن المبين الذي تسجد له عقول الناس أجمعين طائعين وكارهين.. فقد أخبر تعالى فيه أن يوسف أمرهم أن يأكلوا القليل وأن يخزنوا الكثير كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ فبين أن الذي يأكلونه هو القليل وأن المخزون المعد لسني المجاعة هو الكثير وهذا على عكس قول التوراة المفتراة وفي هذا فرقان مبين.

ثم انظر الفرق بين النص اليهودي الذي ينفي وجود الشبع في

الأرض بعد سني الجوع تلك كما في قوله الذي قوله ليوسف: «ولا يعرف الشبع في الأرض من أجل ذلك الجوع بعده لأنه يكون شديداً جداً» وكذب النص اليهودي على يوسف فقد عرف الشبع بعد ذلك في الأرض وأتخمنت بطون وتالله ما أخبر يوسف بذلك بل أخبر بالفرج بعد الشدة وبالغوث بعد البلاء كما في قوله تعالى عنه أنه قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)﴾ فهذا فرقان مبين.

ثم إننا نكذبهم ولا نصدقهم فيما قوَّلوا يوسف إياه من أنه قال لفرعون: «وأما تكرار الحلم على فرعون مرتين فلأن الأمر مقرر من الله والله مسرع ليصنعه» فنقول إن هذا القول يحصر ما يكون من عند الله بالتكرار وقد جاءت بغير ذلك الوقائع والأخبار. فكم من حلم كرر مراراً ولم يقع وكم مما لم يكرر حق وسطع. ومع ذلك فنحن لا نكذبهم بهذا الذي نقول بل نكذبهم بما عندنا من كتاب الله وهم بمثله معترفون. فنقول هذا إبراهيم رأى أنه يذبح ولده ولم يكرر عليه. وهذا في كتابنا وكتابكم لم يرَ تلك الرؤيا إلا مرة واحدة. فإن قالوا إن إبراهيم كان نبياً ولا يحتاج لأن يكرر عليه وإنما كرر على الملك لأنه كان كافراً فإن قالوا ذلك أبطلوا العموم من خبر نصهم بأن التكرير يفيد التقرير. وخرجوا إلى أن يقولوا هذا في الكافر فقط وعند ذلك سنرد عليهم أيضاً بما نحن وإياهم به معترفون فنقول لهم أيضاً كذبتم في قولكم هذا الذي ألجأناكم إليه فلجأتم وذلك أن اللذين كانا مع يوسف في السجن رأيا رؤياهما مرة واحدة وكانا كافرين ولم تكرر عليهما وقد حقت رؤياهما فأين تذهبون؟ فعند ذلك لن يذهبوا إلا إلى الغيظ ومن تدبر الآية القرآنية علم أن فعل الرؤية هو فعل ماض واحد تعلق به كل ما رآه الملك. وفي هذا فرق مبين.

كذلك نحن نكذبهم في النص الذي جعلوا فيه يوسف يقول لفرعون «فالآن فلينظر فرعون رجلًا بصيراً وحكيماً ويجعله على أرض مصر» ونقول: إن هذا خبر كذب قد قصّ الله علينا غيره وهو أن

يوسف هو الذي سأل الملك أن يجعله على خزائن الأرض كما في قوله تعالى عنه: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ وفي هذا فرقان مبين. وهذه آية فرقانية يفقهها الذين يتدبرون القول وبيان ذلك أن نقول لأصحاب النص اليهودي: إنا وإياكم متفقون على أن يوسف كان يعلم ما سيصير إليه من أمر الملك بما ثبت عندنا وعندكم من رؤياه ثم من نبوته ثم إنا وإياكم متفقون على أن يوسف كان محوطاً بنعمة الله يصوب أعماله ويسدد أقواله ثم ها نحن وأنتم متفقون على طهارة يوسف وحسن أخلاقه ثم إننا وأنتم وأهل الأرض أجمعون متفقون على أن من كان في مثل ظروف يوسف وعلمه وصدقه وطهارة باطنه وأن سريرته كعلانيته فمن كان كذلك فلن يداهن ولن يتحذلق في الكلام مع الملك في أمر يعلم أنه صائر إليه. ثم ها نحن وأنتم متفقون على أن يوسف كان قد طلب من الساقي أن يذكره للملك وفي هذا برهان لما قلناه ولكن أبى خيالكم المريض إلا تأليف الروايات. ونقول حاشا ليوسف من مثل ما تفترون وهو الصادق الصدِّيق الذي ظاهره وباطنه مستويان. ونقول: إن الله أنبأنا في الآية التي قبل هذه أن الملك هو الذي كان محتاجاً إلى يوسف في خاصة نفسه كما في قوله تعالى عنه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ هنالك قال يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ولا تظنن أن يوسف طلب ذلك ليكون ملكاً في الأرض حاشا وكلا فذلك ظن اليهود وظن الذين لا يعلمون بأخلاق الأنبياء. بل ما طلب ذلك إلا امتثالًا لأمر الله الذي جعل فيه رحمة لعباده لإيصال الرزق إلى الخلق الضعفاء في زمن الابتلاء فهذا فرقان مبين.

ثم إنا نكذبهم ولا نصدقهم في قولهم إن فرعون دعا يوسف صفنات فعنج ونقول بل لم يزل يوسف يدعى باسمه يوسف وعندنا في ذلك خبر من رب العالمين في الكتاب المبين وهو ما قصّه تعالى علينا من قول مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه لما قال لقومه: ﴿وَلَقَدْ

جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ فقد دلت الآية على أن يوسف كان رسولاً من الله إليهم جاءهم بالبينات ودلت على أنهم كانوا يعرفونه باسمه يوسف والذي يخاطبهم بهذا كان يكتم إيمانه فلو كان ليوسف اسم مصري لكان الأنسب لكتمانه أن يذكره لهم باسمه المصري. فهذا دليل على أن يوسف لم يكن معروفاً لديهم إلا بهذا الاسم يوسف ومؤمن آل فرعون يقول هذا القول أمام الملأ من قوم فرعون حيث الدولة الرسمية الحاكمة، فلو كان مخطئاً في قوله لردوا عليه ولقالوا كيف تسميه يوسف وسلفنا الملك فلان كان قد أسماه صفنات فعنج وكان صفنات من عظمائنا وحكامنا ومصلحينا فكيف تخلع عنه اسماً شريفاً شرّفه به ذلك الملك وتسميه باسم من أسماء العبيد العبرانيين. هذا مع التذكرة بأن بني إسرائيل كانوا قد صاروا في ذلك الوقت في مصر مستعبَدين. ولو كان اسمه صفنات لكانوا قالوا له بكبرياء الملك وأنَفَة الفرعونية لا ندري من تعني بيوسف هذا فبين لنا فما نعرف رجلًا ظهر فينا وادعى الرسالة إلا صفنات ولكن لم يقل ولم يقولوا لأنه لم يكن يوسف يدعى إلا يوسف وليس له اسم سواه إلا الصديق والعزيز.

وصدق الله الذي أنزل التوراة الصحيحة والقرآن وكذب يهود الإفك والبهتان وهذا فرقان مبين. وأما ما جاء في نصهم من أن فرعون جعل في عنق يوسف طوقاً من ذهب وأعطاه مركبته الثانية وزوجه أسنات بنت كاهن أون وأمثال هذه الأقوال التي يراد بها إظهار أبهة الملك فهذا مما لا نصدقهم ولا نكذبهم فيه ولا يعني لنا هذا شيئاً فعندنا خير منه وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وفي هاتين الآيتين اللتين تعلماننا بما تعلماننا به مما ليس في التوراة اليهودية من مثله شيء فرقان مبين. فقد

علمنا من الآية الأولى من هاتين التمكين الثاني ليوسف في الأرض وقد بينت الآية اتساع هذا التمكين وأنه كان برحمة الله وأن الله جزاه بما صبر عليه من ابتلاء كان قد أحسن الصبر فيه مما علمنا من سياق السورة من لدن إلقائه في الجب فصبر وابتلائه بالرق فصبر ومراودة المرأة واتهامها له وإغراء النسوة فصبر وعفّ عن محارم الله واختار السجن على معصية الله بل حسبه أنه قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ وهو الصادق المبارك فمن مثله بهذا القول فللّه أبوه وفداه نفسي وهي في فدائه قليل.

وقد صبر في السجن وكان فيه من المحسنين وقد فتحت الآيتان أبواب السلوك للناس أن يكونوا مؤمنين ومتقين ودلتا على أن كل محسن له أجران أجر في الدنيا سيجزى به ولا يضيع وأجر في الآخرة هو خير للذين آمنوا وكانوا يتقون. فهذه فروقات الآيات البينات التي تفتح للنفوس البشرية أبواب الأمل والعمل والسلوك إلى رضوان الله.

وانظر الفرق بين نص التوراة الذي ما أن ملك يوسف حتى لم يعد يذكر الله ولا يخطر له ذكره على بال. بل هو لا يذكر إلا فرعون وملك فرعون وعطية فرعون ليوسف وقد أخبرنا الله في القرآن غير ما يفترون أخبرنا أنه هو سبحانه الذي مكن ليوسف في الأرض لا فرعون. وأنه هو الذي يصيب برحمته من يشاء لا فرعون. وأنه هو الذي لا يضيع أجر المحسنين لا فرعون. وأنه هو الذي يعطي أجر الآخرة للمؤمنين المتقين لا أحد سواه فهذا فرقان مبين.

فصل
يوسف في الملك

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي

وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

فهذه آيات الكتاب المبين.

وأما نص اليهود وهو الإصحاح الثاني والأربعون ويبدأ بقوله: «فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح في مصر، قال يعقوب لبنيه لماذا تنظرون بعضكم إلى بعض. وقال: إني سمعت أنه يوجد قمح في مصر انزلوا إلى هناك واشتروا لنا من هناك لنحيا ولا نموت فنزل عشرة من إخوة يوسف ليشتروا قمحاً من مصر وأما بنيامين أخو يوسف فلم يرسله يعقوب مع إخوته لأنه قال لعله تصيبه أذية فأتى بنو إسرائيل ليشتروا بين الذين أتوا لأن الجوع كان في أرض كنعان وكان يوسف هو المسلط على الأرض وهو البائع لكل شعب الأرض فأتى إخوة يوسف وسجدوا له بوجوههم إلى الأرض ولما نظر يوسف إخوته عرفهم فتنكّر لهم وتكلم معهم بجفاء. وقال لهم من أين جئتم؟ فقالوا: من أرض كنعان لنشتري طعاماً وعرف يوسف إخوته وأما هم فلم يعرفوه فتذكر يوسف الأحلام التي حلم عنهم وقال لهم: جواسيس

أنتم لتروا عورة الأرض جئتم فقالوا له: لا يا سيدي بل عبيدك جاؤوا ليشتروا طعاماً نحن جميعاً بنو رجل واحد نحن أمناء ليس عبيدك جواسيس. فقال لهم: كلا بل لتروا عورة الأرض جئتم فقالوا: عبيدك إثنا عشر أخاً نحن بنو رجل واحد في أرض كنعان وهوذا الصغير عند أبينا اليوم والواحد مفقود فقال لهم يوسف: ذلك ما كلمتكم به قائلًا جواسيس أنتم بهذا تمتحنون وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيكم الصغير إلى هنا أرسلوا منكم واحداً ليجيء بأخيكم وأنتم تحبسون فيمتحن كلامكم هل عندكم صدق وإلا فوحياة فرعون إنكم لجواسيس. فجمعهم إلى حبس ثلاثة أيام ثم قال لهم يوسف في اليوم الثالث افعلوا هذا وأحْيَوْا أنا خائف الله. إن كنتم أمناء فليحبس أخ واحد منكم في بيت حبسكم وانطلقوا أنتم وخذوا قمحاً لمجاعة بيوتكم، وأحضروا أخاكم الصغير إلي فيتحقق كلامكم ولا تموتوا ففعلوا هكذا وقالوا بعضهم لبعض: حقاً إننا مذنبون إلى أخينا الذي رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع لذلك جاءت علينا هذه الضيقة فأجابهم رأوبين قائلًا ألم أكلمكم قائلًا لا تأثموا بالولد وأنتم لم تسمعوا فهاهوذا دمه يطلب وهم لم يعلموا أن يوسف فاهم لأن الترجمان كان بينهم فتحول عنهم وبكى ثم رجع إليهم وكلمهم وأخذ منهم شمعون وقيده أمام عيونهم ثم أمر يوسف أن تملأ أوعيتهم قمحاً وترد فضة كل واحد إلى عدله وأن يعطوا زاداً للطريق ففعل لهم هكذا فحملوا قمحهم على حميرهم ومضوا من هناك فلما فتح أحدهم عدله ليعطي عليفاً لحماره في المنزل رأى فضته وإذا هي في فم عدله. فقال لإخوته: ردت فضتي وهاهي في عدلي فطارت قلوبهم وارتعدوا بعضهم في بعض قائلين ما هذا الذي صنعه الله بنا فجاؤوا إلى يعقوب أبيهم في أرض كنعان وأخبروه بكل ما أصابهم قائلين: تكلم معنا الرجل سيد الأرض بجفاء وحسبنا جواسيس الأرض فقلنا له نحن أمناء لسنا جواسيس نحن اثنا عشر أخاً بنو أبينا الواحد مفقود والصغير اليوم عند أبينا في أرض كنعان فقال لنا الرجل سيد الأرض بهذا أعرف أنكم

أمناء دعوا أخاً واحداً منكم عندي وخذوا لمجاعة بيوتكم وانطلقوا وأحضروا أخاكم الصغير إلي فأعرف أنكم لستم جواسيس بل إنكم أمناء فأعطيكم أخاكم وتتجرون في الأرض وإذ كانوا يفرغون عدالهم إذا صرة فضة كل واحد في عدله فلما رأوا صرر فضتهم هم وأبوهم خافوا. فقال لهم أبوهم أعدمتموني الأولاد يوسف مفقود وشمعون مفقود وبنيامين تأخذونه صار كل هذا علي وكلم رأوبين أباه قائلًا: أقتل ابنيَّ إن لم أجىء به إليك سلمه بيدي وأنا أرده إليك فقال: لا ينزل ابني معكم لأن أخاه قد مات وهو وحده باق فإن أصابته أذية في الطريق الذي تذهبون فيها تنزلون شيبتي بحزن إلى الهاوية».

انتهى هنا الإصحاح الثاني والأربعون وابتدأ الذي يليه:

«وكان الجوع شديداً في الأرض وحدث لما فرغوا من أكل القمح الذي جاؤوا به من مصر أن أباهم قال لهم ارجعوا اشتروا لنا قليلًا من الطعام فكلمه يهوذا قائلًا إن الرجل قد أشهد علينا قائلًا لا ترون وجهي بدون أن يكون أخوكم معكم إن كنت ترسل أخانا معنا ننزل ونشتري لك طعاماً. ولكن إن كنت لا ترسله لا ننزل لأن الرجل قال لنا: لا ترون وجهي بدون أن يكون أخوكم معكم. فقال إسرائيل: لماذا أسأتم إلي حتى أخبرتم الرجل أن لكم أخاً أيضاً. فقالوا: إن الرجل قد سأل عنا وعن عشيرتنا قائلًا هل أبوكم حي بعد هل لكم أخ فأخبرناه بحسب هذا الكلام. هل كنا نعلم أنه يقول انزلوا بأخيكم وقال يهوذا لإسرائيل أبيه: أرسل الغلام معي لنقوم ونذهب ونحيا ولا نموت نحن وأنت وأولادنا جميعاً. أنا أضمنه من يدي تطلبه إن لم أجىء به إليك وأوقفه قدامك أصر مذنباً لك كل الأيام. لأننا لو لم نتوانَ لكنا قد رجعنا الآن مرتين. فقال لهم إسرائيل أبوهم: إن كان هكذا فافعلوا هذا خذوا من أفخر جنى الأرض في أوعيتكم وأنزلوا للرجل هدية قليلًا من البلسان وقليلًا من العسل وكثيراء ولاذناً وفستقاً ولوزاً وخذوا فضة أخرى في أيديكم والفضة المردودة في أفواه أعدالكم ردوها في أيديكم لعله كان سهواً وخذوا أخاكم وقوموا ارجعوا إلى الرجل والله

القدير يعطيكم رحمة أمام الرجل حتى يطلق لكم أخاكم الآخر وبنيامين. وأنا إذا عدمت الأولاد عدمتهم» فهذا سياق نص اليهود.

قلت: في هذا النص اليهودي أكاذيب كثيرة وتناقضات حسيرة، وقد طوّل في الاسترسال وأعاد ما لا حاجة إليه من الأقوال حتى أشبه أسلوب الرضع من الأطفال. ولا يعنينا شيء من أسلوبه بل يعنينا الرد على مكذوبه وعلى التناقض فيه بما يقنع القارىء ويهديه.

فأول الذي فيه من المكذوب قوله: «ولما نظر يوسف إخوته عرفهم فتنكر لهم وتكلم معهم بجفاء وقال لهم من أين جئتم قالوا من أرض كنعان» فنقول: قد أخبرنا الله في القرآن المبين غير هذا من حال يوسف وقوله إذ قال لإخوته: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أي كال لهم بمكيال واف وأحسن ضيافتهم فقوله: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أي خير المضيفين. فقد عاملهم كضيوف والكريم إذا أضاف لا يتكلم مع ضيوفه بجفاء فهذا فرقان مبين.

ونكذبهم في قولهم: إن يوسف قال لإخوته جواسيس أنتم لتروا عورة الأرض جئتم وجعلوه يكررها عليهم فهذا أيضاً لا يتفق مع قوله: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ وفي هذا أيضاً فرق مبين.

ونكذبهم في قولهم: إن يوسف أقسم بحياة فرعون وقد جعلوه يقسم بذلك مرتين ونقول: حاشا للّه أن يقسم يوسف بغير الله بل حاشا للّه أن يقسم أدنى المؤمنين بغير الله فكيف الأنبياء أفضل المؤمنين. بل هؤلاء إخوة يوسف وهم دونه بدرجات كثيرة ومع ذلك فإنهم كانوا لا يقسمون إلا بالله. نعلم ذلك مما أخبرناه ربنا من تكرار إقسامهم به سبحانه كما في سياق السورة في أربعة مواضع ستمر.. فما أقسموا إلا بالله وهم دون يوسف وهو نبي وهم ليسوا بأنبياء فكيف إذاً يقسم نبي بغير الله. حاشا للّه والله أكبر وفي هذا فرقان مبين.

ونكذبهم في قولهم إن يوسف حبس إخوته أو أحداً منهم.. ثم رجع فأطلقهم وحبس واحداً منهم فهذا كله إفك مفترى نكذبهم فيه

ونقول: إن الله قصّ علينا غير ما يفترون وهو أن يوسف أمرهم إن لم يجيئوه بأخيهم أن يبتعدوا عنه وألا يقربوه كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ فهذا فرقان مبين. ولو أنا عرضنا على الناس أجمعين ما جاء في القرآن وتوراة اليهود من فعل يوسف بإخوته لقالوا جميعاً إلا ذو غاية.

إن ما جاء من فعل يوسف بإخوته في القرآن هو فعل من يريد لهم أن يعودوا إليه بأخيه وإن ما جاء في توراة اليهود من فعل يوسف هو فعل من يريد أن يبعدهم عنه ويخوفهم منه ولن يعودوا بعد ذلك إليه. وفي هذا فرق مبين.

ونكذبهم في قولهم إن إخوة يوسف لما نزلت بهم تلك الضيقة بعد حبس أخيهم قالوا: إنا مذنبون إلى أخينا إلى قول روبين هاهو دمه يطلب إلى جعلهم يوسف يبكي فنقول: إن هذا كله إفك بني على كذب مركب في سلسلة أكاذيب.

ونكذبهم في جعلهم أولاد يعقوب يأتون من فلسطين إلى مصر على الحمير ونقول: بل جاؤوا على الجمال علمنا هذا من قول الله في القرآن المبين وهو قوله تعالى عن يوسف: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ والرحال في اللغة التي نزل بها القرآن للجمال.. ومن قوله تعالى عنهم إذ قالوا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ والبعير لا يكون إلا الجمل البازل المكتمل فهذا فرقان مبين.

ونكذبهم في تناقضهم إذ جعلوا أولاد يعقوب يقولون لأبيهم: إن يوسف قال لهم: «وتتجرون في الأرض» وما كان هذا في سياق ما قوّلوه ليوسف من قبل وفي هذا تناقض مبين.

ونكذبهم في قولهم: إن أولاد يعقوب لما رأوا فضتهم رُدت إليهم خافوا وخاف معهم أبوهم ونقول: والله ما خافوا ولا خاف أبوهم بل ازدادوا بذلك رغبة بأخذ أخيهم وزادوا بترغيب أبيهم كما في قول القرآن المبين عنهم لما قالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أي أي شيء

نطلب بعد هذا الفضل فقد وفى لنا الرجل الكيل ورد إلينا الثمن وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ فهذا فرقان مبين.

ونكذبهم في جعلهم يعقوب يقول لبنيه: «أعدمتموني الأولاد يوسف مفقود وشمعون مفقود» فهذا متعلق بما سبقه من كذبهم في جعلهم شمعون يحبس وما حبس شمعون ولا قال يعقوب ذلك القول بل ما كل ذلك إلا إفك مبين.

ونكذبهم ونظهر تناقضهم في جعلهم يعقوب يقول: «لا ينزل ابني معكم لأن أخاه قد مات وهو وحده باق» ونقول: إن في هذا تناقضاً لما قالوه من قبل من سطرين فقط. فمن سطرين اثنين لا ثالث لهما قالوا إنه قال: «يوسف مفقود» والآن يقولون إنه قال: «قد مات» فأين عقول أولئك المتناقضين الكاذبين. وكيف يجعلون هذا التناقض وحياً من عند الله بل هم والله على الله وعلى رسله يفترون. ثم نقول لهم: ما بالكم وقد جعلتم شمعون سجيناً في مصر، لم تجعلوا لهذه الأكذوبة فصلًا آخر فكيف تركتم يعقوب لا يفكر بإرسال بنيه لفك أخيهم شمعون. بل جعلتموه يأكل ويشرب حتى إذا فرغ من عنده الطعام جعلتموه يأمر بنيه بالذهاب إلى مصر من أجل الطعام لا من أجل شمعون. فهذا إفك مركب مبين.

ونكذبهم في جعلهم رأوبين يقول ليقنع أباه بأن يسمح له بأخذ أخيه «اقْتُلْ ابنيَّ إن لم أجيء به إليك» ونقول أي ذنب لولدي رأوبين حتى يقتلهما جدهما يعقوب عوضاً عن ولده بنيامين وهما أيضاً ولداه فهذا ما لا يفعله المشركون مع حفدتهم فضلًا عن المؤمنين فضلًا عن أن يخاطب به ابن نبي أباه وهو يعلم أن أباه من النبيين. وكيف لم يرد يعقوب هنالك على ولده ولم يقل له هذا إثم وظلم فكيف أقتل ولدين بريئين لا ذنب لهما سبحانك هذا بهتان مبين.

ونكذبهم في جعلهم يعقوب يقول: «إن أصابته أذية ـ يعني بنيامين ـ في الطريق التي تذهبون بها تنزلون شيبتي إلى الهاوية» وقد افتروا عليه مثلها من قبل لما ألقي يوسف في الجب فنقول: حاشا لله أن يقول نبي مثل هذا المقال وإنما الهاوية للكافرين والمشركين ولليهود المفترين وليست للنبيين والمرسَلين فهذا فرقان مبين.

ونكذبهم في جعلهم يعقوب يمتنع عن إرسال بنيامين مع إخوته حتى فرغ من عندهم الطعام وأنه حينئذ أمر بنيه بالرجوع إلى مصر فأعادوا عليه القول أن يرسل أخاهم معهم فقال: «لماذا أسأتم إلي حتى أخبرتم الرجل أن لكم أخاً أيضاً. فقالوا: إن الرجل قد سأل عنا وعن عشيرتنا قائلًا هل أبوكم حي بعد، هل لكم أخ فأخبرناه» فنقول: إن في هذا نقضاً لما قوّلوهم إياه من قبل إذ كانوا جعلوهم يقولون: «تكلم معنا الرجل سيد الأرض بجفاء وحسبنا جواسيس الأرض» فكم بين هذين القولين من تناقض مشين. والذي بين هذين من مسافة السطور أقل من عشرين. وإنا لنعلم أن كلا قوليهما هذين سفيه وأن ما جعلوه من حوار كريه بين يعقوب وبنيه مما نصهم يفتريه فذلك فيه وفيه نعلم ذلك من الذي الباطل لا يأتيه وفيه قول يعقوب لبنيه: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ والفاء في قوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ هي فاء البيان الفصيحة فقد أبان وأفصح عن نيته أنه نوى أن يرسل بنيامين معهم متوكلًا على الله الذي هو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين. فلما جاء وقت السفر جمع بين التوكل والأخذ بالأسباب إذ أخذ على بنيه موثقاً من الله أن يعودوا ببنيامين إليه إلا أن يغلبهم على ذلك قدر مقدر كما في قوله تعالى عنه: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ فهذا فرقان مبيَن.

ثم نكذبهم في جعلهم يعقوب يقول وقد رضي أن يرسل ولده مع بنيه فقال: «إن كان هكذا فافعلوا هذا خذوا من أفخر جنى الأرض

في أوعيتكم وأنزلوه للرجل هدية قليلًا من البلسان وقليلًا من العسل وكثيراء ولاذناً وفستقاً ولوزاً» فبكل هذا نكذبهم ونقول: أي جنى أرض يأخذون وهم من أجل جنى الأرض يذهبون أم الجنون فنون، أم قاتلكم الله يا يهودكم تفترون ولا تخجلون. فإن قلتم إنه يقول قليلًا من البلسان وقليلًا من العسل فنقول: وأي بلسان أو عسل وقد فقد البصل. وكيف يأمرهم أبوهم أن يأخذوا إلى مصر قليلًا من البلسان وهو فيها من قديم الزمان أكثر من جميع البلدان. ثم إن كنتم جعلتم البلسان والعسل قليلًا فليس القليل الذي يهدى إلى الملوك إلا كثيراً إذا قيس إلى ما يهدى إلى سواهم ثم كيف لم تقللوا الكثيراء واللاذن والفستق واللوز فكيف تثمر هذه الأشياء في أرض امتنع عنها الماء وقد قلتم فيما سبق من نصكم إن الجوع أتلف الأرض. فإذا كان الجوع قد أتلف الأرض فكيف إذاً يقول يعقوب لبنيه خذوا من أفخر جنى الأرض وإن قلتم كان الجوع في مصر فقط. قلنا: كذبتم فقد قلتم أيضاً إن الجوع كان أيضاً في أرض كنعان فأثبتم بذلك جوعاً للأرضين أرض مصر وأرض كنعان كما أثبتم الجوع ليعقوب وبنيه. فإن قلتم: فإن الفستق واللوز مما يدخر ويخبأ فنقول: لو كان في بيت يعقوب شيء مدخر فكيف بعد ذلك جعلتم يهوذا يقول لأبيه: «أرسل معنا الغلام لنقوم ونذهب ونحيا ولا نموت نحن وأنت وأولادنا جميعاً» وهذا يعني أنهم وصلوا إلى فقر مدقع لا يجدون فيه ما يطعمون أطفالهم. ثم ألم تقولوا في السياق نفسه إن يعقوب لما انتهى من عندهم الطعام قال لبنيه: «ارجعوا اشتروا لنا قليلًا من الطعام» فها هو على نصكم يحتاج إلى قليل من الطعام وها هم أولاده وحفَدَته يكادون يموتون جوعاً. وها هو الجوع في أرض كنعان أي أصاب كل السكان.. وها هو الجوع يتلف الأرض كل ذلك في نصكم فكيف بعد ذلك تقولون أيها المتوقحون إن يعقوب قال هكذا كالشبعانين المترَفين «خذوا من أفخر جنى الأرض في أوعيتكم وأنزلوه هدية للرجل» وليتكم كنتم جعلتموه يقول لبنيه: خذوا مما بقي عندكم من

زمن الخِضب ولو جعلتموه يقول ذلك لكانت كذبتكم أخفى وإن كانت على أهل القرآن لا تخفى بما عندهم من نور سراج الكتاب المبين.

ألا فدع قول اليهود وعد إلى بحر الجود.. وتدبر آيات الودود. قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ انظر إلى قوله تعالى: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ فإنه سبحانه قال: ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ ولم يقل وهم لم يعرفوه كما قال النص اليهودي عرفهم وأما هم فلم يعرفوه.

فعلى قول النص اليهودي يكون ذلك تقصيراً منهم في موضع كان عليهم فيه أن يعرفوه. وقد كذب نصهم لأنه ينفي عنهم فعل التسوية في غير محل تسوية إذ ما كان عليهم في ذلك من شيء. إذ كان يوسف قد شبّ ورجل وتغير شكله عما كانوا يعرفون.

فما حق الكلام هنا أن يقال: «فلم يعرفوه» بل حقه كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ فهذا فرقان مبين وقد كان حق يوسف أن يعرفهم إذ كانوا مذ كان يوسف فيهم قد بلغوا مبلغ الرجال واتخذوا ثابت الأشكال فهم مهما تغيروا فلن تذهب عنه ملامحهم.. وهب أن ملامح بعضهم قد خفيت عليه فإنهم كانوا عشرة وقد جاؤوه مجتمعين. وإذ هم كذلك فإن بعضاً منهم سيذكره ببعض. ثم هو يرقب مجيئهم وهم لا يرقبون فإذ قد فقهت ذلك فانظر أيضاً إلى اتفاق معاني هذه الأمور مع خبر القرآن الذي لا يأتيه اختلاف. فقد أخبر تعالى عن قول يوسف للملك: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ والحفيظ في صفة المخلوقين هو الموكل بالشيء يحفظه ويحصيه وهو يتضمن معنى حافظ وهو الذي قلما ينسى شيئاً سمعه أو وعاه. وإذاً كان يسيراً على يوسف أن يذكر إخوته فكيف إذا ربطنا ذلك بأنهم كانوا له ظالمين وأن المظلوم يذكر الظالم أكثر مما يذكر الظالم المظلوم إذ الظالم ينسى ظلمه ويبقى المظلوم يعاني فيذكر.. فإذا استوعبت هذا كله فاربط فحواه بقوله تعالى ليوسف لما ألقوه في الجب: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فإذ كان الله أوحى إليه بهذا وعداً منه والله لا يخلف وعده.. وإذ يعلم يوسف أن الله لا يخلف وعده.. وإذ هو حفيظ لا ينسى وعد الله.. ولم ينسَ ظلم إخوته.. وإذاً فهو مرتقب مجيء إخوته لينبئهم بما فعلوه به وهم لا يشعرون. وانظر إلى المضارع في هذه الجملة الخبرية: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ تعلم منه ومنها ومن واو الحال فيها أنهم سيكونون في حال لا يشعرون فيها بيوسف. فانظر الآن إلى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ واربط بينها وبين قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ثم اربط كلًا من ذلك بأن الواو في كلا الآيتين هي واو الحال.. وقد علمت أن حالهم التي أنكروا فيها يوسف كانوا فيها معذورين. إذ لم يكونوا على سواء حاله في تعرُّفه عليهم. وأما الحال التي لم يشعروا فيها بيوسف فهم فيها ملومون. وفقه ذلك أن تعلم أن النفي في أكثر ما يدخل على ضمير توكيد في مضارع فإنه يثبت لفاعله معنى من نقص أو ملام. فإذا نظرت إلى تصريف الأسباب والحوادث في كلا الموضعين وجدت الاتفاق الأعظم الذي تعجز عنه عقول الخلق أجمعين حيث تشهد أن الذي أنزل هذا القرآن هو الله رب العالمين. وتبيان ذلك أن تعلم أن إخوة يوسف في الحال التي كانوا فيها له منكرين حيث لا ملام عليهم إذ كانوا كما قلنا قد فارقوه صغيراً، فلما دخلوا عليه كان قد تغير وَرَجَّل. فانظر كيف أنهم في نفس هذه الحال التي ليس عليهم في جهلهم فيها بيوسف ملام. كانوا أيضاً في حال من المجيء إليه ليس عليهم فيها ملام إذ جاؤوا لجلب الطعام فهم معذورون في الإنكار ومعذورون في المجيء. فانظر إلى واو الحال في كتاب ذي الجلال والإكرام المتعال كيف تربط بين الأحوال أحوال الأسباب والأشكال وتوفق بين المعاني والأفعال. ثم انظر إلى حال يوسف إذ كانوا كذلك كيف عاملهم بإكرام إذ جهزهم ووفى لهم الكيل ورد إليهم بضاعتهم وكان لهم خير المنزلين. فإذ قد علمت ذلك فاتبع أحوالهم إذ هم رجعوا إلى يوسف من بعد تلك المرة مرتين مرة لما أخذ منهم أخاه ومرة أخرى لما

جاؤوه وقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ إذ ذلك كانوا قد رأوا يوسف واجتمعوا به وكلموه ثلاث مرات هنالك كان حرياً بهم بعد تلك المرات الثلاث المشعرات ذات الحوادث المنبهة أن يشعروا به فلما لم يشعروا كان حقيقاً أن يقال عنهم في ذلك الموضع: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ فانظر يا من له عينان واسمع يا من له أذنان وافقه يا من له جنان كيف يتفق الحرف مع الحرف في القرآن بين كل فصل وفصل ومكان ومكان، فهذا فرقان مبين.

فصل
بنيامين وإخوته

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٥٩﴾ انظر في هذه الآية إلى فطنة يوسف عليه السلام.. فإنه لما عرفهم أكرمهم وأنزلهم خير منزل.. ثم وفى لهم الكيل ولم يقل لهم ما يريبهم.. حتى إذا جهزهم للسفر وكانوا قد أنسوا وابتهجوا بما وجدوه لديه من حفاوة فحينئذ ثمة لما قال لهم: ﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ وقد دخل عليهم من باب إشعارهم بأنه يحب أن يزيدهم ويستزيد منهم فقال لهم: ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ وانظر هنا إلى قوله: ﴿أَلَا تَرَوۡنَ﴾ فإن «ألا» هنا تحضيضية فحضهم بذلك على طلب الزيادة بإحضار أخيهم معهم ليزدادوا به كيل بعير. وهو في ذلك يحرص أن يشعرهم أنه هو أيضاً يستفيد ليمحو من نفوسهم ما قد يعلق بها من سوء الظن.

وقد كان عليه السلام يشعرهم بما كان حقاً في نفسه فإنه كان حقاً سيستفيد برؤية أخيه وسيكون في ذلك تمهيد لإحضار أبيه. ولئلا يقول قائل منهم وما انتفاع ملك مثل هذا ببيع كيل بعير. فجاء بكلام متوجه فأشعرهم أيضاً بقوله: ﴿وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ أنه يحب أن يمتدح

وأن يشتهر بين الناس بتوفية الكيل وحسن الضيافة. وهو في كل وجوه كلامه صادق بار طاهر خالص للّه فبذلك أفهمهم أنه علم منهم بأمر أخيهم عرضاً فما عليه من بعد إن رغب برؤيته من ملام. ولن يحدث فيهم سوء ظن به بعد إذ هم أخبروه.

فإن قيل: كيف نعلم أنه ٱستعلم من إخوته عن أخيه. قلنا: فإن ذلك هو أيضاً في قوله: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أي المضيفين فقد أضافهم والمضيف يستمع إلى ضيفه. والضيف يتكلم عن نفسه وأهله وهم إما أن يكونوا تكلموا ابتداء، وإما أن يكون يوسف استدرجهم إلى الكلام عن أهله ليتعرف أخبارهم من حيث فهموا أنه كان يكرمهم بسؤاله عنهم ليؤنسهم فانطلقوا على سجيتهم يتحدثون. وإنه ليمكنه أن ينوي نية إكرامهم مع نية الاستعلام منهم عن أهله. فلن يضيق صدر مؤمن عن الاتساع لهاتين النيتين معاً فضلًا عن أن تضيق عن مثلهما صدور الأنبياء. وليس في اجتماع هاتين النيتين في عمل واحد شرك كما ليس في نية من قصد الحج وقصد الانتفاع شرك كذلك ليس فيهما خداع قط. ثم ليقطع عليهم ما قد يكون من ترددهم حسم الأمر بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ ففهموا من قوله الثاني هذا أنه يريد أن يتأكد من صدقهم فيما حدثوه به من شأن أبيهم وأخيهم. كما فهموا مما قبله أنه يريد أن يفيد ويستفيد ويمدح. فكان أن نقلهم بسياق قوليه من فكر إلى فكر ومن حال إلى حال فحينئذ لم يسعهم إلا أن يقولوا: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ وانظر إلى قولهم: ﴿سَنُرَٰوِدُ﴾ فإنها في موضعها هنا من أعظم معجزات البيان إذ فيها صور ثلاث فهي تصور تعلق أبيهم بأخيهم. وتصور أسلوب مكرهم وتقدم بعد ذلك عذراً لهم إن عجزوا عن إحضاره إذ ليس أمر إحضاره بيسير. ثم كأنهم رأوا في عينيه أنه لم يستوثق من قولهم فوثقوا له القول فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ثم انظر إلى روح كلماتهم تفهم منها أنهم كانوا قد أعجبوا بيوسف وأحبوه إذ هم لا يعرفون أنه أخوهم. وما ذلك إلا لما عاملهم به من إكرام أن

كان ملكاً وكانوا سوقة فأشعرهم ذلك بفخر عظيم.. فأرادوا أن لا يزيلوا من نفوسهم ما انطبع فيها من الإعجاب والحب برجل هو ملك من الملوك. وقد أشعرهم بفخر كانوا محتاجين إليه احتياج الظمآن في الصحراء إلى الماء. ألا ترى إلى قولهم لأبيهم لما فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم ردت إليهم: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أي ما نريد وما نطلب أكثر من هذا الذي عمله معنا ذلك الرجل أن أعطانا الطعام وردّ إلينا الثمن. وهنا كان يوسف بشخصه الملكي قد استولى على قلوبهم. وإذ أنت تعلم أنهم كانوا يستشعرون بذنبهم أحياناً وذلك بما سيظهر من قولهم لأبيهم: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ وإذ هم كانوا يرون نقصان أنفسهم في عيني أبيهم وإذ كان أبوهم لا يفتأ يذكر يوسف فمن هاهنا كان يسرهم أن يعرف أبوهم بإكرام ذلك الملك لهم... فتخيل كم كان سرورهم أن وجدوه رد إليهم ثمن الطعام وهذا يعني لهم أنه أعجب بهم فقدمه إليهم هدية. وتخيل فجأتهم بذلك أمام أبيهم فما فرحهم هناك بأن ردت إليهم أموالهم بأعظم من فرحهم بما أشعرهم به ذلك الفعل من إكرام خيل إليهم أنهم يعظمون به في عين أبيهم. ولا تحسب أن يوسف كان غافلًا عما سيحدثه فيهم إكرامه لهم. كلا فقد كان ذلك الرجل المبارَك ينظر بنور الله ويعلم أبعاد الأمور. كان يعلم أنهم سيُعجبون به ويرجعون إليه. وحسبك أن تتلو الآية التي تلي هذه الآية لتعلم علم يوسف بذلك: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ فإن قيل: فكيف لم يرتابوا به وينتبهوا إلى بعض مراده لما وجدوا أموالهم رُدت إليهم. قلنا: وأنى لهم الريب هنالك أو الانتباه وهم من الفخر في سكرة ومن الإعجاب في جنون. ومن كان مثلهم من ذوي النفوس الضعيفة فلن ينتبه وإن ينتبه يبعد عنه خاطر الانتباه.. فإنه لا شيء أبغض إلى الحالم السكران بالحلم من خاطر الانتباه.

فإن قيل: فما بال يوسف لم يعرفهم بنفسه أول الأمر. قلنا: لا

يقال لرسل الله لمَ فعلتم ذلك ولمَ لم تفعلوا فإن الرسل لا تفعل من تلقاء أنفسها. ما تفعل الرسل إلا بأمر الله. فإن قيل: فهب أن ملحداً لا يؤمن بالرسل جاءنا فقال لنا: يا أهل الإيمان إنكم تقولون إن الرسل لا تفعل إلا بأمر الله وتقولون إن أمر الله حكيم محكم فأين الحكمة في إخفاء يوسف نفسه عن إخوته أول الأمر وأين الحكمة في أخذه لأخيه وحرمان أبيه منه قلنا: إن هذا لا يلزم فليس لزاماً أن نعلم الحكمة من كل شيء لنشهد بصدق الرسول وإنما نشهد صدق الرسول بشهود معجزته فإذا ثبتت معجزة الرسول ثبت صدقه في كل ما يقول.

ومع هذا فإننا سندلك على الحكمة في فعل يوسف ذاك أن أخفى نفسه وأخذ أخاه.

فأما إخفاؤه نفسه عن إخوته أول الأمر فإنه لو كان عرفهم بنفسه هناك لكانوا ازدادوا له حسداً وبغضاً ولما كانوا رجعوا إليه قط وبيان ذلك أننا إذا تدبرنا سورة يوسف نجد أن إخوته لا يضيفونه إليهم بالإخوة ولا يخاطبونه بها بحال. فارجع قراءة السورة من أولها إلى آخرها تجدهم لا يذكرونه إلا باسمه يوسف فقد كانوا يبغضونه بغضاً عظيماً.. وهم قد أضافوا إليهم بالأخوة أخاه كما في قولهم لأبيهم: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ وقولهم: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ فما كانوا يبغضون الصغير بنيامين ذلك البغض الحاجز لهم عن نسبة الأخوة.. وأنت تجدهم قد ذكروا الصغير فأضافوه بالبنوة إلى أبيهم كما في قولهم عنه: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ ولكنك لن تجدهم يضيفون يوسف بالبنوة إلى أبيه وذلك في كل سياق السورة. كأنهم لشدة بغضهم له قد حرموا على ألسنتهم أن تعطيه حقه من البنوة والأخوة. وانظر إلى تناسب هذا مع إرادتهم قتله كأنهم لم يكتفوا بحرمانه من حق البنوة والأخوة فأرادوا أن يحرموه أيضاً من حق الحياة. ألا فاسترجع ذكرهم لأخيهم في آيات السورة تجد ما نقول. فهم لما ابتدأوا القول عنه: ﴿قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ ولما همُّوا بقتله قالوا: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ ولما أرادوا

أخذه من أبيه حيث كان أنسب له أن يتلطفوا في القول فما طاقوا أن يتلطفوا بل: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ فلم يقولوا ما لك لا تأمنا على ابنك أو على أخينا بل لم يقولوا إلا يوسف. وهم لما ألقوه في الجب ورجعوا من دونه حيث كان ينبغي أن ترق قلوبهم إشفاقاً على أبيهم أو ندماً على ما صنعوا بأخيهم فما رقّت هناك قلوبهم قط وما كان ذكرهم إياه إلا أن ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾.

كذلك أخوهم الأكبر الذي كان خيراً منهم لم يذكر يوسف إلا باسمه وقد كان في أتقى أحواله إذ كان يعاتب إخوته ويلومهم في تفريطهم فقال: ﴿وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ﴾ وهم عندما رجعوا إلى أبيهم من دون أخويهم الأكبر والأصغر ووجدوا أن أباهم لم يذكر هنالك إلا يوسف: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ ولم يقولوا تذكر ابنك أو تذكر أخانا.

فها أنت قد استبنت من تتبع آيات السورة شدة بغضهم ليوسف وصدهم عنه ونفورهم منه وحسدهم إياه فلو كان يوسف عرفهم بنفسه فجأة لما دخلوا عليه أول مرة وهو في تلك الحال من الملك وهم قد جاؤوه جائعين محتاجين لكانوا إما ماتوا هنالك من الحسد أو ذابوا من الكمد أو انطلقوا عنه مدبرين. ولا يريد لهم يوسف كلًا من تلك الثلاث فهو حفيظ عليم لم ينسَ ما أعلمه به ربه من وعده له بإتمام نعمته عليه وعلى إخوته كما في قوله تعالى له: ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ فكان أن تلطف بهم حتى دخل إلى قلوبهم وهو في غير الصورة التي يفرون بها منه صورة الأخوة. فكان أن قامت عليهم بذلك حجة الله أنهم كانوا حاسدين وأن أباهم لما فضّله عليهم كان على حق ما كان في ضلال مبين. وأن هذا الذي نفروا منه ما فيه من منفر بل ها هم أحبوه ووعدوه أن يأتوه بأخيهم ومدحوه أمام أبيهم ورجعوا إليه مسرعين.

ثم ها هم يمرون في قدر يهيئون به للقاء يوسف لقاء سلام.. وهنا تأتي الحكمة في أخذ أخيه الصغير وتتداخل في الحكمة الأولى أن لم يعرفهم بنفسه. فإنهم كما ابتدأوا يتعوّدون على حبه لما لم يعرفهم بنفسه أن لم يحسبوه إلا ملكاً من الملوك فكذلك ابتدأوا الآن لما أخذ أخاه يتعودون على ترك التكبر عليه مما سيمهد في المستقبل لعيش وئام.. ليتم وعد الله بإتمام النعمة علىٰ آل يعقوب. فهم عما قليل سيصبحون في حال من الخوف على أبيهم ستجعلهم يتركون كل تكبرهم إذ سيتواضعون له وهم لا يحسبونه إلا العزيز إذ سيقولون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ثم إنهم بعد ذلك سيهيئون للاعتراف بفضله عليهم إذ سيقولون له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ ثم ها هم وقد عرفوه كانوا قد وصلوا إلى القدرة على الشهادة له بفضل الله عليه وعلى الاعتراف على أنفسهم بالخطيئة إذ قالوا: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ فانظر إلى قصص القرآن المحكَم الحكيم الرابط المتفق الهادي إلى صراط مستقيم. فهذا فرقان مبين.

فإن قلت: وما لإخوة يوسف هؤلاء حتى يكون لهم هذا الشأن وسيان أماتوا حسداً أم ذابوا كمداً فما قدرهم وهم حاسدون كاذبون ظالمون. فحينئذ نقول: اعلم أن أكثر الناس من نوع إخوة يوسف وما إخوة يوسف إلا أحسن من كثير من الناس. فإن أكثر الناس يحسدون ويكفرون. أما إخوة يوسف فما حسدوا إلا أخاهم وهم ما كفروا بل كانوا مؤمنين. ففي يوسف وإخوته مثال للناس أجمعين من حاسدين ومحسودين. فأما الحاسدون فيعتبرون بحال إخوة يوسف فيزدجرون. وأما المحسودون فيعتبرون بحال يوسف فيصبرون.

وأولو الألباب منهم يذكرون ما جاء في سياق السورة المبين من قول رب العالمين: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

واعلم أنه ليس في التوراة شيء مما استنبطناه من القرآن الذي لا ينفد تبيان إحكامه. فهذا فرقان مبين.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾. انظر إلى بدء قولهم لأبيهم بدء مرجعهم من رحلتهم أن قالوا: ﴿مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ﴾ وهم ما يقصدون بذلك إلا قول يوسف لهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ ولكنهم مع ذلك قد كذبوا فإن (منع) فعل ماضٍ مبني للمجهول والواقع أنهم في ماضي أمرهم الذي أوهموا ما منع منهم الكيل بل أحضروا معهم ما جهزهم به يوسف ولكنهم أوهموا بذلك أباهم إيهاماً يسهل الاعتذار منه بعد ذلك. وما أوهموه بدءاً بذلك إلا ليمهدوا لقولهم: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ فهم ما أرادوا بإيهامهم إلا أن يقضوا على عزيمته إن أراد الامتناع. ولكنهم على مكرهم عجزوا أن يستمروا فجاؤوا بالفاء الفصيحة التي أفصحوا بها عن مرادهم إذ قالوا: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ ثم جاؤوا بتوكيد بعده أن قالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ فانظر إلى هذه الآية فإنها تكشف لك أسلوب مكر الماكرين وكيف أنهم أنفسهم يفضحون.. وكذلك الماكر الذي ينكشف أمره فإنه يبدأ بإيهام يعجز عن أن يستمر به فيفصح عن مراده فيخيل إليه أن يغطي انكشافه بإقناع فيكشف القناع.

ولكن يعقوب عليه السلام فهم قولهم فأعرض عن مبتداه وأقبل على منتهاه.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي كيف تقولون لي أن آمنكم عليه بقولكم إنكم له لحافظون وقد كنتم قلتم في أخيه من قبل مثل هذا القول يعني قولهم لما أخذوا يوسف منه وقالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ فانظر إلى تناسق القرآن وربطه وتوافقه بين حوادث آيات وآيات مع

مرور سنوات وسنوات بين حوادث ماض وآت. فسبحان من أحكم هذه الآيات البينات ثم كما هم أفصحوا عن نيتهم بأخذ أخيهم كذلك هو أفصح عن نيته بأنه سيرسله فجاء إفصاحه بأعظم قول يقوله بشر في تلك الحال إذ قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي سأرسله معكم ليس اعتماداً على وعدكم بحفظه بل توكلًا على الله الذي هو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين. فكأنه بذلك يقول لهم إنكم لم تحفظوا أخاكم ولم ترحموه ثم لم ترحموني أن حرمتموني منه أما الله فإنه خير الحافظين وهو أرحم الراحمين.

فأين هذا الربط والمحاسبة والعتاب والتذكرة والتوكل على الله والثقة بحفظه ورحمته. أين قول يعقوب هذا الذي في القرآن والذي يناسب أخلاق النبوة مما يفتريه عليه النص اليهودي إذ يجعله يقول: «إن أصابت ولدي في الطريق أذية تنزلون بشيبتي إلى الهاوية» كلا بني يهوذا وروبين لقد افتريتم على يعقوب الأمين وهذا فرقان مبين.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

كنا قد تدبرنا جزءاً من أولى هاتين الآيتين ولكن انظر الآن إلى نسق قولهم فإنك لن ترى في كل كلامهم نسقاً مثله.. وما هذا النسق كله إلا تفسير لقولهم: ﴿مَا نَبْغِى ۖ﴾ فانظر إلى ما فيه من تلطف في الإقناع.. فقد بدأوا بأن.. ها هي أموالنا أرجعت إلينا فما علينا إن عدنا إلى ذلك الرجل وإنا في عودتنا إليه ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي نجلب لهم القوت.. ثم كأنهم انتبهوا إلى أن عليهم أن يذكروا أخاهم فقالوا: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ فجعلوه على نسق ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ ثم كأنهم احتاجوا إلى إقناع أكثر وإلى أن يشغلوا أباهم عن ذكر أخيهم فنسقوا بعده

﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾، فكان أن جاؤوا بما هو متعلق بأخيهم إذ هو سيكون صاحب البعير المزاد. هنالك تلطفوا أكثر وهم يقولون: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي هين لا مشقة فيه.

ولكن كأن يعقوب لم يسمع من كل قولهم إلا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ فأجاب عما يختص بذلك وأعرض عما سواه. إذ ابتدأ القول: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ وحيث «لن» حرف نفي للاستقبال وحيث «أرسله» هو مضارع للآتي والحاضر وهو أيضاً في معنى الاستقبال فقد ابتدأ بأقوى القول في محله فجاء بنفي مستقبلي لفعل مستقبلي يتعلق بهم أن لن يرسل ولده معهم ثم جعل لذلك غاية بـ«حتى» ثم ذكر غايته وهي أن يؤتوه موثقاً من الله أي عهداً مؤكداً بيمين وكذلك معنى الموثق والميثاق وانظر هنا إلى صورة قوله: ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ بعد قوله: ﴿تُؤْتُونِ﴾ فكأن الذي يعطي ميثاقاً بالله يذهب فيجيء بوثاق من عند الله يوثق به عهده فانظر علم الأنبياء بميثاق الله وتعظيمهم له.

والكلام في قوله: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ هو جواب القسم أو هو المدخل إلى جوابه أو هو في جوابه أي لترجعن به إلي ثم انظر وقد وصل معهم إلى هذا. انظر إلى إيمان الأنبياء بقدر الله على نبينا محمد وعلى يعقوب وجمعهم صلوات الله وسلامه. فإنه مع هذا القول ذي النفي النافي إلى غاية الميثاق بالله أن يأتوه بولده. مع كل هذا بقي يذكر قدر الله ولم يغفله شيء عن ذكر قدر الله. إذ قال: ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي إلا أن تغلبوا بأمر يحيط بكم ولا مخرج لكم منه كموت أو أسر أو مرض. وانظر إلى صورة قوله: ﴿يُحَاطَ بِكُمْ﴾ فكأنه يقول: إذا جاءكم بلاء فالتف بكم من جميع جوانبكم ولكنه لم يحط بكم بل بقي لكم منه موضع ثغرة للخروج فأنتم ملزمون بموثقكم من الله أن تؤتوني بولدي.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ وانظر الآن انظر إلى ما يفتح نظر القلوب انظر إلى الإعجاز الأعظم العجيب انظر إلى ما يعذر أن

يجذب به كل مجذوب وما جذب أهل الصراط كجذب أهل الدروب فجذب أهل الصراط العقل وجذب أهل الدروب العيوب. فقد سكت الآن يعقوب وأولاد يعقوب وجاء قول الحق علّام الغيوب فقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ ولم يقل آتوه موثقاً من الله. انظر إلى قلبك الآن كيف انفتح للخشوع وإنك الآن في ارتقاء وطلوع وها أنت الآن تستطيع أن تستشعر معنى قول القدير البديع لرسوله الشفيع: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾.

لو كان هذا القرآن من صنع بشر ووصل من إيتاء الميثاق إلى ما وصل إليه لكان لزاماً عليه أن يبقى في حدود فكر البشر. وأن يقول من بعد أن طلب منهم موثقاً من الله فلما آتوه موثقاً من الله ليتسنى له سياق الكلام البشري. فيا أيها الملحدون الذين يقولون إن محمداً ﷺ ألف هذا الكلام كيف يستطيع محمد ﷺ أن يعلو هذا العلو الذي لا يستطيعه المخلوق. إنكم عندما تقولون إن محمداً ﷺ ألف القرآن تجعلون محمداً ﷺ يعلم الأسرار ويصرف الأقدار ويكور الليل على النهار ويعلم خفايا الصدور ويدبِّر الأمور وهذا ما لا يقدر عليه محمد ﷺ ولا الخلق أجمعون ما يقدر على هذا إلا رب محمد، الله رب العالمين.

القرآن كلام الله تكلم به الله كلاماً من لدنه هو تكلم به لا سواه وهو يعلو على كل كلام كما يعلو الله على سواه. وإن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ يعني أنه كان موثقاً من أنفسهم ليس موثقاً من الله. وذا يعني أنهم لم يكونوا هناك على صلة بالله في مواثيقهم وأنهم كانوا في تلك الحال لا يراقبون الله. ولا يقدر أن يعلم هذا منهم وأن يأتي به في هذا الموضع من الآية هكذا فجأة من حيث لا يحتسب العقل البشري المستغرق في القصة إلا الله العليم الحكيم الرقيب الشهيد المحيط الخبير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. وهو الحي القيوم الذي لا يغفل ولا ينسى ولا ينام ولا يموت. فهذا فرقان مبين يحطم أنوف الكافرين والمشركين والملحدين.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ الوكيل في أسماء الله تعالى هو المقيم الكفيل الكافي الرزاق. ومعنى: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي كافينا الله ونعم الكافي.. والمتوكل على الله هو الذي يعلم أن الله كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده ولا يتوكل على غيره. ومعنى قول يعقوب الذي في هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي الله هو العليم بهذا العهد الذي تعاهدناه وهو الحفيظ إذا نسيناه وهو الشهيد على ما قلناه وهو الذي يجزي كلًا منا بما نواه. فانظر كيف ربط على رباطهم برباط. وأوثق موثقهم بوثاق. وليس في خبر التوراة المحرَّفة شيء من هذا على الإطلاق. فهذا فرقان مبين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ قيل في معنى الآية: إن يعقوب خاف على أولاده العين وقيل خاف عليهم أن يرى الملك عددهم فيبطش بهم لما قد يظنه بهم من ظنون.

فانظر الآن إلى الاتفاق بين قول قد مضى في أول السورة وقول قد جاء هنا فقد علمت من أول السورة قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ وعلمت أن الله لم ينفِ ذلك من قولهم ولم يرده عليهم، ثم قد علمت أنهم كانوا قد رحلوا إلى مصر رحلة أولى من قبل رحلتهم هذه ولم يقص الله علينا أن أباهم قال لهم من قبل مثل هذا القول الذي يقوله لهم الآن في هذه الرحلة الثانية كما في هذه الآية: ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ فإذا ذهبت تبحث عن سبب هذا القول لم تجد له سبباً إلا أنهم كانوا في هذه الرحلة يصطحبون معهم أخاهم الصغير شقيق يوسف الذي كان هو ويوسف أحب إلى أبيهم منهم، فانظر إلى اتفاق القول والفعل بين موضعين متباعدين من السياق يغفل عن مثله المؤلِّفون المخلوقون ولا يغفل عنه الذي قوله الحق وهو أصدق القائلين. ثم اربط ذلك بما ترى وتعرف وتحس من أحوال الناس فإنك ترى مثلًا من ذلك في كل رجل

له أولاد كبار وصغار بين أعمارهم تباعد شاسع حيث يكون الوالد أقرب إلى أصغر أبنائه إلى مقام الجد منه إلى الوالد. هنالك وجود الصغير بين الكبار يوقظ في نفس الوالد الخوف على الجميع. ثم انظر كيف تستطيع أن تستحضر من قوله: ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ صورة عن عمران مصر في ذلك الزمن القديم إذ علمت مِن ذكر الأبواب المتفرقة أنها لا تكون إلا لمدينة عظيمة محصَّنة ذات أسوار وفيها دور وقصور وأسواق. وتراءيت حيوية الحياة على كل باب من أبواب تلك المدينة العامرة بالناس، سيان أكان على تلك الأبواب شُرَط وجواسيس للملك فيعقوب يخشى على أولاده منهم أن يظنوا بهم الظنون أم كانت أسواق تلك المدينة قد امتدت إلى أبوابها فتكاثر فيها الناس فهو يخشى على أولاده إن دخلوا مجتمعين عيون العائنين. فانظر كيف أعطاك قوله: ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ صورة حية عن مدينة عظيمة متسعة عامرة بالحياة في ذلك الزمن الغابر البعيد. ثم اذكر أنه ليس في النص اليهودي شيء من مثل هذا القول الذي قاله يعقوب لبنيه والذي رأينا فيه اتفاق القول مع الفعل في القرآن وشهدنا فيه استيقاظ عاطفة الوالد لبنيه وتراءينا من خلاله صورة مصر التي كانت أعظم مدينة في ذلك الزمان. فهذا فرقان مبين.

كذلك ليس في النص اليهودي شيء من قول يعقوب: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ مما يتناسب مع معرفة المؤمن بأن الأمر كله لله ولا فيها مثل ما في آخر سياق قول يعقوب: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

فإن قيل: فإن في النص اليهودي قول يعقوب لبنيه: «والله القدير يعطيكم رحمة أمام الرجل حتى يطلق لكم أخاكم الآخر وبنيامين وأنا إن عدمت الأولاد عدمتهم» قلنا: إن هذا لا يتشابه مع معنى الآية في شيء. بل هذا يتشابه مع قوله في القرآن: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ مع فرق بين القولين مبين. وقبل أن نستبين هذا الفرق نقول إنه قال لهم

هذا القول في رحلتهم الثالثة إلى يوسف. واليهود لا يذكرون لإخوة يوسف إلى يوسف إلا رحلتين في أخراهما عرفوا يوسف فهم حذفوا رحلة من رحلات ثلاث أثبتها القرآن. وفي هذا فرقان مبين.

ألا وإن النص اليهودي نفسه يشهد على كذبهم في حذفهم للرحلة الثالثة. وفي أنهم وضعوا قول يعقوب في غير زمنه المناسب مع ما فيه من تحريف مبين. فكيف يكون بنيامين معهم وهم لم يذهبوا به بعد ثم يقول لهم أبوهم حتى يطلق لكم الرجل أخاكم الآخر وبنيامين. فهذا قول موضوع في غير موضعه يشهد أنه ما صححه إلا الله الذي أنزل القرآن لأنه ما كان في سابق نصهم ما يدل على أن الرجل سيحبس بنيامين. فهذا فرقان مبين.

ثم إنا كنا قد بينا من قبل كذبهم في قولهم إن يوسف حبس أحد إخوته بدليل مبين.

والذي وقع حقاً هو ما سيمر معنا في هذه الرحلة الثانية حيث نعلم أن يوسف ما أخذ منهم إلا أخاه بنيامين وأن الثاني الذي سيبقى في مصر سيبقى فيها من تلقاء نفسه لا أن يوسف حبسه وأن ذلك سيكون في الرحلة الثانية لا الأولى وأنه سيكون روبين لا شمعون. فقد أعلمنا الله أن ذلك الرجل كان كبيرهم وهم مجمعون على أن كبيرهم كان روبين فهذا فرق مبين.

وبهذا تستبين من كتابهم نفسه أن قول يعقوب: «والله القدير يعطيكم رحمة أمام الرجل حتى يطلق لكم أخاكم الآخر وبنيامين» ما كان إلا بعد أخذ بنيامين مع التذكرة بتحريف هذا القول إذ لم يكن الآخر محبوساً كما يفترون. ألا وإن في هذا دليلًا على رحلاتهم الثلاث التي أثبتها القرآن والتي أخفوا واحدة منها وقد بيّن الله لنا في القرآن أنهم يخفون كثيراً من الكتاب وفي هذا شاهد مبين.

ثم إنا نكذبهم في جعلهم يعقوب يقول: «وأنا إذا عدمت الأولاد عدمتهم» يجعلونه يعني بهذا ولديه اللذين بقيا في مصر فعلى هذا

القول يكون ذانك الولدان أحب أولاد يعقوب إليه وقد علمنا من القرآن أن الذي كان أحبهم إليه يوسف وفي هذا فرق مبين.

ثم نقول إن هذا القول: «والله القدير يعطيكم رحمة أمام الرجل» هو قول محرَّف منقوص يقيِّد الرحمة فيجعلها تحصل لهم فقط أمام ذلك الرجل وهي أقرب إلى معنى الدعاء لهم منها إلى معنى التعليم.

وأما قول يعقوب الذي قصّه الله علينا في القرآن: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ففي هذا أولًا إخبار منه لهم عن يوسف وهذا وحده فرقان مبين.

ثم فيه أمر ونهي وخبر ورجاء وتخصيص وتعميم وفيه فوق ذلك فرق بين حال المؤمنين وحال الكافرين. فهذا فرقان مبين.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

انظر في هذه الآية إلى عظمة النبأ اللدني الإلٰهي الذي يأتي من العلي الأعلى المتعال والذي يخبر عما كان منهم خبراً لا يخبر به إلا العليم ٱلخبير ويبين أن ما فعلوه مما أمرهم به أبوهم ما كان ليرد عنهم قدر الله لو شاء الله أن يقدر عليهم شيئاً وأن ذلك ما كان إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وأن يعقوب كان يعلم ذلك لأنه كان قد قال: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ فهو ذو علم لما علّمه الله ليس غافلًا عما علّمه الله إياه ولكن أكثر الناس لا يعلمون فيظنون أنهم بحذرهم ينجون وبتدبيرهم يسلمون. ومع ذلك فقد قضى يعقوب تلك الحاجة النفسية. وفي هذا الإخبار عن الحاجة التي في نفس يعقوب إخبار عن أمر لا يعلمه إلا علّام الغيوب. وفيه رفع الحرج عن خطرات القلوب فيما يكون منها من خوف على المحبوب. وليس في النص اليهودي المكذوب شيء من مثل ذلك مكتوب. فهذا فرقان مبين.

فصل
يوسف وبنيامين

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ فهذه آيات الكتاب المبين.

وأما النص اليهودي فإنه يقول وما زلنا في الإصحاح الثالث والأربعين: «فأخذ الرجال هذه الهدية وأخذوا ضعف الفضة في أياديهم وبنيامين وقاموا ونزلوا إلى مصر ووقفوا أمام يوسف فلما رأى يوسف بنيامين معهم قال للذي على بيته أدخِلْ الرجال إلى البيت واذبح ذبيحة

وهيىء لأن الرجال يأكلون معي عند الظهر ففعل الرجال كما قال يوسف وأدخل الرجل الرجال إلى بيت يوسف. فخاف الرجال إذ أُدخلوا إلى بيت يوسف وقالوا لسبب الفضة التي رجعت أولًا في عدالنا نحن قد أُدخلنا ليهجم علينا ويقع بنا ويأخذنا عبيداً وحميرنا. فتقدموا إلى الرجل الذي على بيت يوسف وكلموه في باب البيت وقالوا استمع يا سيدي إننا قد نزلنا أولًا لنشتري طعاماً وكان لما أتينا إلى المنزل أننا فتحنا عدالنا وإذا فضة كل واحد في عدله فضتنا بوزنها فقد رددناها في أيدينا وأنزلنا فضة أخرى في أيادينا لنشتري طعاماً لا نعلم من وضع فضتنا في عدالنا فقال سلام لكم لا تخافوا إلهكم وإله أبيكم أعطاكم كنزاً في عدالكم فضتكم وصلت إلي. ثم أخرج إليهم شمعون وأدخل الرجل الرجال إلى بيت يوسف وأعطاهم ماء ليغسلوا أرجلهم وأعطى عليقاً لحميرهم وهيأوا الهدية إلى أن يجيء يوسف عند الظهر لأنهم سمعوا أنهم هناك يأكلون طعاماً. فلما جاء يوسف أحضروا إليه الهدية التي في أياديهم إلى البيت وسجدوا له إلى الأرض فسأل عن سلامتهم. وقال أسالم أبوكم الشيخ الذي قلتم عنه أحي هو بعد. فقالوا: عبدك أبونا سالم هو حي بعد وخروا وسجدوا فرفع عينيه ونظر بنيامين أخاه ابن أمه وقال أهذا أخوكم الصغير الذي قلتم لي عنه ثم قال: الله ينعم عليك يا ابني واستعجل يوسف لأن أحشاءه حنت إلى أخيه وطلب مكاناً ليبكي فدخل المخدع وبكى هناك ثم غسل وجهه وخرج وتجلد. وقال: قدموا طعاماً فقدموا له وحده ولهم وحدهم وللمصريين الآكلين عنده وحدهم لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين. فجلسوا قدّامه البكر بحسب بكوريته والصغير بحسب صغره فبهت الرجال بعضهم إلى بعض ورفع حصصاً من قدامه إليهم فكانت حصة بنيامين أكثر من حصص جميعهم خمسة أضعاف. وشربوا ورووا معه «انتهى الإصحاح الثالث والأربعون وبدأ الذي يليه» ثم أمر الذي على بيته قائلًا إملأ أعدال الرجال طعاماً حسب ما يطيقون حمله وضع فضة كل واحد في

فم عدله وطاسي طاس الفضة تضع في فم عدل الصغير وثمن قمحه. ففعل بحسب كلام يوسف الذي تكلم به فلما أضاء الصبح انصرف الرجال هم وحميرهم ولما كانوا قد خرجوا من المدينة ولم يبتعدوا قال يوسف للذي على بيته: قم اسع وراء الرجال ومتى أدركتهم فقل لهم لماذا جازيتم شراً عوضاً عن خير أليس هذا هو الذي يشرب سيدي فيه وهو يتفاءل به أسأتم فيما صنعتم. فأدركهم وقال لهم هذا الكلام فقالوا له: لماذا يتكلم سيدي مثل هذا الكلام حاشا لعبيدك أن يفعلوا مثل هذا الأمر هوذا الفضة التي وجدنا في أفواه أعدالنا رددناها إليك من أرض كنعان فكيف نسرق من بيت سيدك فضة أو ذهباً الذي يوجد معه من عبيدك يموت. ونحن أيضاً نكون عبيداً لسيدي فقال: نعم الآن بحسب كلامكم هكذا يكون. الذي يوجد معه يكون لي عبداً وأما أنتم فتكونون أبرياء فاستعجلوا وأنزلوا كل واحد عدله إلى الأرض وفتحوا كل واحد عدله ففتش مبتدئاً من الكبير حتى انتهى إلى الصغير فوجد الطاس في عدل بنيامين فمزقوا ثيابهم وحمل كل واحد على حماره ورجعوا إلى المدينة فدخل يهوذا وإخوته إلى بيت يوسف وهو بعد هناك ووقعوا أمامه على الأرض. فقال لهم يوسف: ما هذا الفعل الذي فعلتم ألم تعلموا أن رجلًا مثلي يتفاءل فقال يهوذا: ماذا نقول لسيدي نحن والذي وجد الطاس في يده جميعاً. فقال: حاشا لي أن أفعل هذا الرجل الذي وجد الطاس في يده هو يكون لي عبداً. وأما أنتم فاصعدوا بسلام إلى أبيكم.

ثم تقدم إليه يهوذا وقال استمع يا سيدي يتكلم عبدك كلمة في أذن سيدي ولا يحم غضبك على عبدك لأنك مثل فرعون سيدي سأل عبيده قائلًا هل لكم أب أو أخ فقلنا لسيدي لنا أب شيخ وابن شيخوخته صغير. ماتْ أخوه وبقي هو وحده لأمه وأبوه يحبه فقلت لعبيدك: انزلوا به إلي فأجعل نظري عليه فقلنا لسيدي: لا يقدر الغلام أن يترك أباه وإن ترك أباه يموت. فقلت لعبيدك إن لم ينزل أخوكم الصغير معكم لا تعودوا تنظرون وجهي فكان لما صعدنا إلى عبدك أبي

أننا أخبرناه بكلام سيدي ثم قال أبونا: ارجعوا اشتروا لنا قليلًا من الطعام فقلنا لا نقدر أن ننزل وإنما إذا كان أخونا الصغير معنا ننزل لأننا لا نقدر ننظر وجه الرجل وأخونا الصغير ليس معنا. فقال لنا عبدك أبي: أنتم تعلمون أن امرأتي ولدت لي اثنين فخرج الواحد من عندي وقلت إنما هو قد افترس افتراساً ولم أنظره إلى الآن فإذا أخذتم هذا أيضاً من أمام وجهي وأصابته أذية تنزلون شيبتي بشر إلى الهاوية. فالآن متى جئت أنا عبدك أبي والغلام ليس معنا ونفسه مرتبطة بنفسه يكون متى رأى أن الغلام مفقود أنه يموت. ينزل عبيدك شيبة عبدك أبينا بحزن إلى الهاوية. لأن عبدك ضمن الغلام لأبي قائلًا إن لم أجيء به إليك أصر مذنباً إلى أبي كل الأيام. فالآن ليمكث عبدك عوضاً عن الغلام عبداً لسيدي ويصعد الغلام مع إخوته لأني كيف أصعد إلى أبي والغلام ليس معي لئلا أنظر الشر الذي يصيب أبي (انتهى الإصحاح) وابتدأ الذي يليه وهو «فلم يستطع يوسف أن يضبط نفسه لدى جميع الواقفين عنده فصرخ أخرجوا كل إنسان عني فلم يقف أحد عنده حين عرف يوسف إخوته بنفسه فأطلق صوته بالبكاء فسمع المصريون وسمع بيت فرعون وقال يوسف لإخوته: أنا يوسف أحي أبي بعد فلم يستطع إخوته أن يجيبوه لأنهم ارتاعوا منه.

فقال يوسف لإخوته: تقدموا إلي فتقدموا. فقال: أنا يوسف الذي بعتموه إلى مصر والآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا. لأنكم بعتموني إلى هنا لأنه لاستبقاء حياة أرسلني الله قدامكم لأن للجوع في الأرض الآن سنتين. وخمس سنين أيضاً لا تكون فيها فلاحة ولا حصاد. فقد أرسلني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض. وليستبقي لكم نجاة عظيمة فالآن ليس أنتم أرسلتموني إلى هنا بل الله. وهو قد جعلني أباً لفرعون وسيداً لكل بيته ومتسلطاً على كل أرض مصر. أسرعوا واصعدوا إلى أبي وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف قد جعلني الله سيداً لكل مصر. انزل إلي لا تقف فتسكن في أرض جاسان وتكون قريباً مني أنت وبنوك وبنو بنيك وغنمك وبقرك وكل مالك. وأعولك

هناك لأنه يكون أيضاً خمس سنين جوعاً لئلا تفتقر أنت وبيتك وكل مالك. وهوذا عيونكم ترى وعينا أخي بنيامين أن فمي هو الذي يكلمكم وتخبرون أبي بكل مجدي في مصر وبكل ما رأيتم وتستعجلون وتنزلون بأبي إلى هنا. ثم وقع على عنق بنيامين أخيه وبكى. وبكى بنيامين على عنقه وقبّل جميع إخوته وبكى عليهم وبعد ذلك تكلم إخوته معه» **قلت:** أكثر هذا السياق يتضمن أموراً قد ذُكرت من قبل كنا قد رددنا عليها ببرهان مبين.

وفيه بطلان جديد وسنرد على ما فيه من بطلان جديد. فنحن نكذبهم في جعلهم الرجل الذي على بيت يوسف يقول لإخوته: «سلام عليكم إلهكم وإله أبيكم أعطاكم كنزاً فضتكم وصلت إلي» فهذا إفك وقد علمنا من القرآن المبين أن يوسف قال: ﴿لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ وإذاً فقد علم فتيان يوسف حقيقة الأمر فهذا فرقان مبين.

ونكذبهم في قولهم إنه أخرج إليهم شمعون فقد كنا بينا بطلان حبس شمعون ببرهان مبين.

ونكذبهم في جعلهم يوسف يرى أخاه ثم ينتظر إلى ما بعد نهاية القصة حتى يعرفه بنفسه مع باقي إخوته ونقول هذا إفك مبين فقد أخبرنا الله تعالى في القرآن أنهم لما دخلوا عليه آوى إليه أخاه وعرفه بنفسه وأنه قال له إني أنا أخوك. فهذا فرقان مبين.

ونحن نكذبهم في جعل إخوة يوسف يقولون له عبدك أبونا فما ينبغي لأبناء نبي أن يضيفوا أباهم بالعبودية إلى مخلوق إلا إذا كانوا كفاراً وما كانوا كفاراً بل كانوا مؤمنين. وقد قصّ الله علينا في القرآن غير ما يفترون قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ فقد أخبر القرآن الحق أنهم وقروا أباهم لا أنهم كما تفتري اليهود جعلوه عبداً لمخلوق فهذا فرقان مبين. ثم كيف يرضى يوسف باستعباد الخلق فضلاً عن أن يرضى بإضافة أبيه بالعبودية

إليه مراراً وهو يسمع ويعلم. كيف يرضى بذلك وهو الذي كان دعا أهل السجن إلى عبادة الله وحده؟ فكيف يرضى بنسبة أبيه بالعبودية إليه على أي معنى كانت تلك النسبة فهذا فرقان مبين.

ونحن نكذبهم في قولهم إن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً أمام العبرانيين لأنه رجس عند المصريين. وبيان ذلك أن يوسف بقي في بيت العزيز سنين وكان يأكل عندهم ويأكلون وهذا في معنى قول الرجل لامرأته: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ ثم دخل على النسوة وهن يأكلن ثم بقي في السجن بضع سنين يأكل عندهم ويأكلون فهذا فرقان مبين.

ونحن نكذبهم في جعلهم يوسف يأمر غيره بأن يضع السقاية أو الصواع أو الكاس وكلها لشيء واحد ونقول بل يوسف هو الذي وضع ذلك بيده في رحل أخيه كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ فهذا فرقان مبين.

ثم نقول أيضاً لو أنه أمر غيره أن يضعه كما يفتري النص اليهودي ثم أمره بعد ذلك أن يتهمهم بالسرقة إذاً لكان في فعل يوسف فتنة لذلك المأمور لأنه حينئذ لن يفهم من أمر تلك السرقة إلا أن يوسف كان ظالماً مفترياً على الناس وسيشك بنبوته ويكفر بدعوته وحاشا ليوسف أن يفتن الناس عن رسالة الله وفي هذا فرقان مبين.

ونحن نكذبهم في جعلهم يوسف يأكل وحده فقد قصّ الله علينا أن يوسف كان خير المنزلين ومن كان كذلك فلن يأكل وحده دون ضيوفه فهذا فرقان مبين.

ونحن نكذبهم في جعلهم يوسف يعطي أخاه بنيامين من الطعام قدر ما أعطى إخوته جميعاً خمس مرات والمعنى أنه أعطاه طعام خمسين ولن يأكل بنيامين طعام خمسين ولو كان له بطن تنين. ولكن اليهود في حمق مبين.

ونحن نكذبهم في جعلهم إخوة يوسف يقولون من وجد معه

الكأس فهو يموت ونحن نكون عبيداً فقد أخبرنا الله في القرآن غير ما يـفـتـرون. إذ ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي هكذا كانت الشريعة عندهم زمن يعقوب وفي هذا الخبر القرآني فرقان مبين.

ونحن نكذبهم في جعلهم إخوة يوسف يمزقون ثيابهم لما اتهم بنيامين فقد أخبرنا الله في القرآن غير ذلك إذ كانوا شامتين إذ ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ فهذا فرقان مبين.

ثم إننا نكذبهم في كل السياق الذي جعلوا يهوذا يقوله ويتذلل فيه ليوسف ويضيف فيه نفسه وأباه بالعبودية إلى يوسف ويدعوه لأن يأخذه هو عوضاً عن بنيامين فكل ذلك كذب وإفك مبين. فقد أخبرنا الله في القرآن أنهم ما عرضوا عليه أن يأخذ واحداً منهم بعينه بل دعوه إلى أن يأخذ منهم أي واحد كما في قوله تعالى عنهم: ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾ وفي هذا فرقان مبين.

ثم نكذبهم في جعلهم يوسف يبكي ويصرخ ويأمر بإخراج من عنده ليعرِّفهم على نفسه فهذا كله إفك منهم مبين. ما كان شيء منه قط لا في تلك الرحلة ولا في التي بعدها حيث عرَّفهم بنفسه على غير هذه الطريقة المفتراة مما سيمر معنا في موضعه من السورة حيث نرى فيه برهان فرقان مبين.

ثم انظر الآن إلى بعض تناقضهم وسخفهم إذ جعلوا يوسف يقول بعد أن جعلوه يعرِّفهم على نفسه على تلك الشاكلة المفتراة «أحي أبي بعد» فارجع إلى سياق النص تجد أنه كان من سطرين يسمع أنباءَ عن حياة أبيه. أفكان يوسف لا يفقه القول. وكيف إذاً جعلوه يصرخ ويُخرج الناس من عنده ألا أن هذه الأخبار اليهودية مما يضحك الثكالى والمحزونين. وجلّت توراة موسى عما يفترون.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ انظر إلى ظرفية «لما»

واربط بها والمعنى أنهم حين دخلوا على يوسف كان أول ما عمله أن آوى إليه أخاه وقال له سراً من دونهم: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾. وانظر إلى سرعة الإخبار في قول ذي اختصار: ﴿أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ مبتدأ وخبر ما لحق أن ابتدأه حتى أخبره عن نفسه ثم أفصح له عنهم بالفاء الفصيحة: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

وانظر إلى هذا القول فإنه لا يستغرق إلا وقتاً قليلًا.. وليس انفراده بأخيه أمراً عسيراً عليه وهو ملك وهم رَعَاع دخلوا إليه فما أيسر أن يشغلهم عن أخيه أو يشغله عنهم أو يدنيه أو ينفرد به قدر ما يقول له هذا المقال. فأين هذا من نص أهل التيه الذي جعل يوسف النبيه يتهم ابن أمه وأبيه من قبل أن يدريه بعلم به يكفيه من فجأة تؤذيه فهذا فرقان مبين.

ولو أن مشركاً يعبد النار لا يؤمن بما أنزل الله من كتاب قرأ خبر يوسف مع أخيه في التوراة المفتراة التي جعلت يوسف يرى أخاه بعد هذا الفراق الطويل المؤلم ثم يمتنع عن التقدم منه وعن تعريفه بنفسه وهو ملك متصرف ذو سلطان ثم يصبر حتى يأمر بذبح الذبيحة وإعداد الطعام ثم يجعل أخاه الصغير ينتظر مع إخوته ثم يلتقي به بعد ذلك فلا يضمه إليه ولا يعتنقه ثم ينأى عنه فيأمر بوضع الكاس في رحله ثم يصبر إلى الليل ثم إلى اليوم التالي حتى إذا رحل أخوه مع إخوته وخرجوا من مدينته على قول النص في قصته فحينئذ بعث منادياً ينادي وراءهم يتهمهم بالسرقة والغدر ثم تفتش تلك العير ويستخرج المسروق من رحل الصغير ثم يعودون ببنيامين إلى يوسف فيوقف بين يديه وهو لم يعلم حتى الساعة أنه يوسف أخوه ما يراه إلا ملكاً ذا جنود وسجون. وهو الغلام المنعم المترَف الذي لم يفارق من قبل أباه. ثم يوقف يسمع تهمته بأذنيه وتكرر عليه ويسمع أنه سيستعبد لذلك الملك ثم بعد ذلك يقوم حوار طويل يسمع الغلام فيه أخاه. يتخضع لذلك الملك التيّاه المصر على أن يأخذه هو لا سواه. ثم يسمعه يذكر يعقوب أباه بالعبودية لهذا الملك المتباه. وكرر من مثل ذلك ما

أضناه.. وهو الغلام الذي أبوه ربّاه ويعلم أن أباه رسول الله وأعظم أهل دنياه. فكم سيحدث مثل هذا الموقف وهذا الكلام في نفس ذياك الغلام من خوف وحزن وآلام وهو يحيا تلك الأحوال ويسمع تلك الأقوال ثم فجأة يرى ذلك الملك يصرخ كالجبابرة المجانين ويأمر بإخراج الحاضرين هنالك ينخلع قلب ذلك المسكين بنيامين، ويظن الظنون حتى إذا خرج الحاضرون وقد بلغت الروح منه الحلقوم فعند ذلك يتفضل ذلك الملك المعتوه ويخبره أنه يوسف أخوه. فإذا قرأ عابد النار تلك الأخبار تبسّم في احتقار. وقال: أهؤلاء الصفوة الأخيار الذين تدّعون لهم الاتصال بخلّاق هذا الوجود.. كلا يا يهود ثم يعرض في صدود. فإذا قيل لذاك رويدك يا ابن «مزداك» فإن اليهود ذوو جحود وافتراء مقصود. فإن أردت التبيان.. عن يوسف الإحسان فاقرأ القرآن.

أيـهـا الـعـبـدُ الـمـشـكّـكْ	يـا أخـا «مـانـي» و «مَـزْدَكْ»
إنْ تُـرِدْ بـرهـانَ عَـقْـلٍ	فـيـه لـلإقـنـاعِ مَـسْـلَكْ
فـادنُ مـن ذكـرِ حـكـيـمٍ	كُـلُّ مـن دانـاهُ أدركْ

فإذا رجع أخو المشركين إلى آيات القرآن المبين علم ما كان ذلك الحين من إكرام يوسف لبنيامين... فهذا فرقان مبين.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ انظر هنا كيف يخاطب يوسف أخاه بما يدل على وحدة الحال بينهما. وأن كلاهما يعلم من أعمال إخوتهما ما يبئس. ثم انظر إلى قوله: ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مما يعني أن عملهم المسيء إليه قد انتهى وانقضى وصار خبراً وأنه بعد إذ التقى بأخيه وآواه إليه فلن يقدروا بعد اليوم أن يؤذوه.. وليس في التوراة ذرّة من مثل هذه المناجاة النفسية بين الأخوين فهذا فرقان مبين.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ انظر الفرق هنا بين قوله

تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ وبين قول النص اليهودي: «لماذا جازيتم شراً عوضاً عن خير» فإذا قرأ النص اليهودي فطن فإنه سيقول وأين شرهم الذي قيدهم به هنا فهم ما ظهر منهم هنا شر قط ولا هم جازوا هنا شراً عوضاً عن خير.. فإذا رجع فقرأ قول القرآن: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ وجده يتهمهم على غير تعيين المسروق ولا تحديد زمان السرقة علم أنه ما اتهمهم إلا لأمر كانوا حقاً فيه سارقين. وكذلك كانوا إذ سرقوا يوسف من أبيه وألقوه في الجب. فانظر العدل في اتفاق القرآن بين المواضع مهما تباعد بعضها عن بعض فهذا فرق مبين.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ الواو هنا هي واو الحال والمعنى وقد أقبلوا، وفيها صورة تبين أنهم توقفوا عن سيرهم والتفتوا راجعين إلى الوراء يستقبلون ذلك المؤذن ومن معه وفي وصف هذه الحركة العصبية الانفعالية تناسُب تام مع ما يكون من ردة فعل النفس المضطربة في مثل تلك الأحوال حيث تراها تسرع في هلع لتخلص من دواعي هلعها.. وهي في ذلك عكس النفس المطمئنة التي تتلقى الأمور بروية وهدوء أعصاب. وقد علمت من سياق السورة القرآنية أن نفوس إخوة يوسف لم تكن مطمئنة. وليس في توراة اليهود من مثل هذا شيء ليس هذا إلا في القرآن المنزَل من لدن عليم خبير. فهذا فرقان مبين.

وانظر إلى قولهم: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ فقد علموا من قولهم: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ أنهم يفقدون شيئاً. وذلك من قبل أن يصلوا إليهم، وليس في التوراة اليهودية شيء من مثل ذلك وبسبب نقصان هذه الحال في التوراة تغير فيها الحوار إذ أخذوا يتساءلون عما يريدون باللحاق بهم حتى أبانوا لهم مرادهم. ففي هذا فرق بين الكتابين مبين.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ أي يقول المؤذن الذي صرخ بالعير إنكم

لسارقون هذا.. وهذا خبر كامل انفرد به القرآن ليس في توراتهم ما يشبهه من أي وجه وفي هذا فرق مبين.

ويبنى عليه أن المؤذن لما استوقف العير لم يظهر أنه يقصد إخوة يوسف فحسب وأنه كان معهم سواهم أو كانوا مع آخرين. وهي القافلة التي أقبلوا فيها كما في قولهم لأبيهم: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ فلو كان المؤذن يقصدهم وحدهم لما قال لهم: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ لأنهم في نظره واحد ولن يضمن للواحد جعلًا يعطيه له على نفسه.. وفي مجيء مثل هذا في القرآن تبيان لما قد يقع في نفس متسائل يقول: كيف كان أولئك الإخوة من أبناء يعقوب يجترئون على السفر وحدهم في تلك المفاوز في ذلك الزمن الذي كان قطّاع الطرق فيه ينتشرون. لا سيما في أيام المجاعات. ففي هذا التبيان القرآني فرق مبين. كذلك يعلم من قول المؤذن إذ يبدأ بضمان أنه لم يبدأهم بما يقول النص اليهودي وفي هذا أيضاً فرق مبين.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ انظر في رد المؤذن وجماعته على يمينهم التي أقسموا بها تجد كأنهم يقولون لهم: لم نعلم من حالكم صدق ما أقسمتم عليه.. وفي هذا صورة أخرى تبين أنهم انفردوا من بين القافلة بالانفعال وبالحوار مما سهّل الأمر للمؤذن معهم.. ثم انظر في هذا الحوار الذي يبين الله لنا فيه أنهم أقسموا بالله. لا كما تقول التوراة المفتراة التي لم تذكر لهم قسماً بل جعلتهم يقولون لخادم يوسف: حاشا لعبيدك أن يفعلوا هذا الأمر. وفي قولهم اليهودي هذا تنزيه لذلك الخادم نفسه إذ نزَّهوا أنفسهم من السرقة بإضافتهم أنفسهم بالعبودية له. وفي هذا تعظيم له أعظم مما لو كانوا أقسموا به.. فانظر الفرق بين ذكر القرآن الحق أنهم أقسموا بالله وبين قول اليهود فبينهما فرق مبين.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ في هذه الآية بيان لصورة الحادث وهو أنهم رجعوا بهم إلى يوسف فاستخرج الصواع بنفسه لأن كلًا من الأفعال والضمائر في هذه الآية يتعلق بيوسف ويعود عليه. وفي هذا نفي لخبر النص اليهودي الذي يقول إن خادم يوسف هو الذي فتّش الأعدال خارج المدينة ثم رجع بهم، فقد بيّن القرآن المبين أن يوسف هو الذي فعل ذلك فتش واستخرج. أي رجعوا إليه بأحمالهم لم تفتّش.. وفي هذا تناسب مع نفس يوسف الحفيظ العليم أن يكون الأمر أمامه ليستدرك ما قد يقع من الشر بين إخوته وخدمه وفي هذا البيان إظهار لكذب النص اليهودي الذي جعلهم يسرعون فينزلون أحمالهم قدام الخادم فيفتشها.. كلا وفي هذا فرق مبين.

ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فقد بيّنت هذه الآية أن ما فعله يوسف كان وحياً من الله إليه ليأخذ أخاه إذ ما كان يستطيع أن يأخذه في شريعة ذلك الملك الذي كان يعمل له. فأمَره الله بهذا التدبير الذي كان كيداً بقوم كانوا هم بالكيد به بادئين. وانظر إلى اتفاق هذا مع قوله تعالى في القرآن: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ فقد أوصلهم هذا المكر إلى خير كثير وفضل عظيم فضلًا من الله الذي هو العالِم الحق وهو فوق كل عليم. وليس في التوراة من مثل هذا شيء قط فهذا فرقان مبين.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ قلت: قد قيل في اتهامهم يوسف بهذا أخبار لم يصح منها شيء ومنها أنه كان يسرق من طعام البيت ويعطيه المساكين. ولا يقبل مثل هذا إلا بخبر من الوحي من كتاب أو سنّة.

ومن تدبر الآية علم أنهم فيما اتهموا به يوسف كانوا يكذبون. فمهما كان سبب مقالتهم تلك فإننا نعلم براءته منها من قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ولا يجوز هنا أن يقال إنه أثبت لنفسه مكانة من الشر معهم هي أدنى من شرهم كلا بل ما أثبت لنفسه شراً قط وحاشاه من كل ذلك. فإن قوله: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ تمييز والتمييز هو العزل والفرز ومعنى ذلك أنه صيَّرهم في ناحية غير ناحيته وانظر إلى اتصال قوله بما بعده إذ قال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ فإن جملة ﴿تَصِفُونَ﴾ هي صلة لأول قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ وحيث ذلك كذلك فمعنى قوله: أنه يُشهد الله على أنهم هم الذين لهم مكانة الشر. ويواصل قوله دفعاً للتهمة عنه بأن الله يعلم حقيقة ما يتهمونه به وأنه منه بريء. وفي هذا الخبر القرآني المنفرد الذي اتهم إخوة يوسف فيه يوسف والذي أسَرَّ يوسف فيه الرد ولم يُبدِه لهم فرقان مبين.

فإن قلت: فقد كنت ذكرت لنا في بدء الكتاب أن الأنبياء لا يتحدثون مع أنفسهم أفليس في إسرار يوسف القول هنا حديث مع نفسه؟ فنقول: كلا ليس قول يوسف هذا تحدثاً مع نفسه بل هو خطاب لهم لم يسمعوه ألا ترى أنه يقول فيه: ﴿وَأَنتُمْ﴾ و ﴿تَصِفُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ **قلت**: كنا قد احتججنا بهذه الآية في الرد عليهم عندما أظهرنا الفرق بينها وبين ما جعلوه من عرض يهوذا على يوسف أن يأخذه عوضاً عن بنيامين. وقلنا: إن هذه الآية تبين أنهم لم يعينوا واحداً بعينه. ألا فانظر الآن فيها إلى قولهم: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فقد شهدوا له بمثل ما شهد له به اللذان دخلا معه السجن، ثم انظر الفرق بين قولهم هذا في القرآن، وبين الذي قوّلهم إياه النص اليهودي إذ جعل يهوذا لا يتوسل إلى قلب يوسف إلا بالتخضع له والتذلل. فما أعطى النص اليهودي عن يوسف بذلك إلا صورة سلطان. أما القرآن فقد أعطى عن يوسف ما يناسب صفة النبوة التي تتجلى فيها علامات الإحسان.. ألا فارجع النظر من

جديد في قولهم له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ففيها فرقان مبين. وانظر إلى قوله بعد ذلك: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ۝٧٩﴾ فتدبّر هذه الآية وانظر إلى ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ في أولها وإلى ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ في آخرها حيث تعلم من كلا هذين تنزُّه وصف النبوة عن الظلم. وتعلمْ معنى وصف النبوة الحق الذي لا يحق وصفه بالحق إلا آيات الكتاب المبين. فهذا فرقان مبين.

فصل
افتراق أخبار القرآن وأخبار التوراة المفتراة

قلت: وعند هذه الآية تفترق أخبار القرآن وأخبار التوراة فلا تلتقيان.. فلن ترى بعد شيئاً متشابهاً بين السياقين وذلك إلى آخر السورة القرآنية الكريمة وإلى آخر سفر التكوين. حيث تجد في سياق ما بقي من سفرهم هذا مجيء يعقوب على غير مجيئه في القرآن وقد جعلوا إرجاع بصره إليه بوضع يد يوسف على عينيه. ثم إن أهم ما يذكرون بعد ذلك أنهم جعلوا يعقوب وبنيه يحضرون مع مواشيهم إلى مصر. ولا ندري كيف بقيت عندهم تلك المواشي بعد قولهم إن الجوع أتلف الأرض. ثم هم يذكرون أسماء أبناء يعقوب وأسماء بنيهم وعدة كل منهم ويجعلون يعقوب يصف أبناءه بما نعلم منه كذبهم لأغراض سياسة وطبقية كانت فيما بينهم بعد ذلك. وكل ذلك لا يعنينا في شيء.. ثم هم بعد مجيء يعقوب إلى يوسف لا يذكرون شيئاً عن تأويل الرؤيا التي رآها يوسف، والتي كانت السبب في تلك الأحداث بل ينسون تلك الرؤيا كل نسيان. ويتكلمون عن سكنى يعقوب جاسان. وهم يجعلون يعقوب يدخل على فرعون ويباركه. ولا يذكرون أنه دعاه إلى الإيمان. بل جعلوه يباركه على كفره فكذلك يفترون. ثم إنهم من بعد ذلك يأتون بأخبث أكاذيبهم إذ يجعلون يوسف كعبد لفرعون، فهو على قولهم يشتري له بالقمح أموال المصريين ثم يشتري أراضيهم ثم بعد ذلك يشتري منهم أنفسهم بالطعام

ويجعلهم عبيداً مملوكين لفرعون، هذا مع سابق قولهم في نصهم إن يوسف أخذ خُمس غلة الأرض من أهلها فمعنى هذا أن يوسف كان لصاً سرق أموال الناس ثم اشتراهم بها وجعلهم عبيداً لمخلوق. وحاشا يوسف من مثل ذلك فهم والله مفترون لا يخافون الله ولا يتقون. ثم ينتهي السفر كله بموت يعقوب ثم يوسف. ويذكرون في آخره أنهم حنّطوه ووضعوه في تابوت في مصر فهذا مختصر ما بقي في سفر التكوين. ألا وإنا سنمر بك إن شاء الله على بعض محطات من نصهم لا لنبين لك تشابهاً فقد نفينا كون ذلك. ولكن لنريك بعضاً من أكاذيبهم ولولا أن نخرج بالكتاب عن قصده من التزام تبيان الفروقات لتبعنا بك كل كلمات التوراة المفتراة ولكن ما كان قصدنا إلا تبيان الفروقات بين ما يظن من متشابهات في الخبر الواحد بين القرآن الحق والتوراة المفتراة. وسنبقى فيما تبقى من هذا الكتاب في سياق آيات الكتاب المبين. ألا ولا تظنن أني سأتابع لك تفسير ما بقي من السورة كلا ولكنني سأمر بك مراً سريعاً لنكمل معاً أحسن القصص. فإني ما قصدت بهذا الكتاب تفسير القرآن ولا انتقاد التوراة المفتراة ما قصدت به إلا إظهار الفروقات.

فصل
تكملة ما بقي من السورة

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ انظر إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ أي لما يئسوا من أخيهم انفردوا متناجين فيما بينهم.. فهذه صورة وصفية لأمر سري لم يعلمه أحد

منهم إلا الله، ولو كانت تلك النصوص اليهودية حقاً من التوراة التي جاء بها موسى لكانت أبانت أو أشارت إلى شيء من مثل هذه الأخبار السرية التي لا يمكن أن يأتي الخبر عنها إلا من الله والتي أنزلها الله من لدنه حجة لمحمد ﷺ على الناس أجمعين.

ولو كان القرآن من تأليف بشر لكان على ذلك البشر أن يوافق اليهود في أخبارهم لأنه لن يمكنه حينئذ أن يستمد لقصصه إلا من أخبارهم ولأنهم حينئذ سيكونون أعلم منه بما يرويه عنهم ولا سيما إن كان محتاجاً إليهم ليصدقوه أو على الأقل ليسكنوا عنه إذ كان لا يزال في مكة وحيداً ضعيفاً كفر به قومه وحاربوه. ولكن محمداً ﷺ لم يصدقهم في شيء من روايتهم بل جاء عن الخبر الواحد بقصص آخر مختلف عما عندهم والفرق بين قصصه وقصتهم، أن قصصه متفق محكم كدرع من حديد مسبوك لا يختلف فيه حرفان. وأنه يخبر عن الله مباشرة وأنه يأتي بأمور ليس في توراتهم منها ذرّة ويفصّل أموراً تتخبط توراتهم على شطها. ثم الفرق الأعظم في ذلك هو أن القَصَص القرآني يقنع العقل ويقيم الحجَّة ويُطَمْئِن القلوب فهذا بعض مما جاء به محمد ﷺ من عند الله. فالحمد لله على ذلك كثيراً، الحمد لله رب العالمين. وأما رواية اليهود فإنها ذات كذب كثير وتناقض مثير واختلاف كبير فهذا فرق مبين.

ثم ارجع إلى الآيات البينات فانظر إلى قول كبيرهم واربط به ما كنا استنبطناه عن موثقهم من قبل من أنه لم يكن موثقاً حقاً من الله. وها أنت الآن تعلم أنه كان عليهم أن لا يبرحوا الأرض حتى يأذن لهم أبوهم أو يحكم الله لهم وهو خير الحاكمين. فإن **قلت**: فما بال كبيرهم لم يذكر من بينهم بإثبات موثق له من الله؟ قلنا: إن كبيرهم ذكر بأحسن فعله ولم يذكر بموثق من الله. لأنه لم يتمم ذلك الموثق، وموثق الله لا يكون إلا متمماً غير منقوص. إذ كان على كبيرهم أن لا يأمرهم بالرجوع إلى أبيه. فقد اختار الخير لنفسه دونهم. وإنما كان يكفيه أن يأمرهم أن يبعثوا واحداً منهم إلى أبيهم فيعلمه لأن الموثق

الذي أخذ عليهم تمامه أن لا يعودوا إلا بأخيهم، إلا أن يحاط بهم، وهم ما أحيط بهم، بل أحيط بأخيهم حسب ظاهر علمهم فانظر وتدبَّر. فإن **قلت**: كيف تقول إنهم لم يُحَط بهم وقد أخبر تعالى أنهم كانوا قد استيأسوا منه وهذا يعني أنهم بذلوا جهدهم؟ **قلت**: بل كان عليهم أن لا ييأسوا وستعلم ذلك من قول أبيهم لهم عندما يردهم ويقول لهم: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وإن أباهم في هذا القول يدلهم على ما كان عليهم أن يعملوه لا أنه يكفرهم كلا فما كانوا كافرين ولكن كانوا عن روح الله غافلين. وإن **قلت**: فقد أوقعت في قولك هذا اللوم على كبيرهم من بينهم إذ جعلته يأمرهم بالرجوع فكان ذلك سبباً لنقضهم ميثاقهم. ثم إنك تقول إنه كان أحسنهم فكيف يتفق هذا؟ **قلت**: إن هذا من إعجاز القرآن العدل المحكَم بالعدل فما قال لهم أخوهم ما قال إلا لما استحقوا أن يقال لهم ذلك. فكان قول أخيهم لهم: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ نقصاً من موثق أخيهم وكان جزاءً عدلًا في حقهم. ذلك أنهم كانوا قد نقضوا ميثاقهم من قبل هذا. نعلم ذلك من قول يوسف لأخيه: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مما يدل على أنهم كانوا يعملون ما يجعله يبتئس. وأنهم كانوا يؤذونه وهو معهم ولم يرعوا وعدهم لأبيهم بحفظه..

فإن قيل: فإن يوسف عنى هنا ما كانوا عملوه من قبل أن فرقوا بينه وبين أخيه. فنقول: إن هذا قد يدخل في معنى قوله وليس كل معناه. ألا ترى إلى سابق قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ فقد علمنا من قولهم هذا أن بنيامين كان له نصيب من حسدهم وبغضهم.. ثم نعلم نقضهم ميثاقهم أن يحفظوه من قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ فقد أعانوا بهذا القول على أخيهم وما حفظوه. ودل هذا القول على ما تُكنه صدورهم له. فإن قيل: فكيف تقول إنهم أعانوا بقولهم ذاك على أخيهم وقد يكون قولًا قالوه فيما بينهم وهم لا يعلمون أن يوسف هو أخوهم وأنه

يفهم لسانهم؟ **قلت**: وإن كانوا لم يقصدوا أن يسمعوا بقولهم ذاك إلا أنفسهم فإنهم يعينون عليه ولا يعينونه. فهم بهذا القول يثبطون أنفسهم عن نصرته ومعونته. فإن الإنسان لن يعين حق المعونة إلا من صفت له نفسه. فكان عليهم أن يشجعوا هناك أنفسهم على معونة أخيهم لا أن يذكروا ما زعموه عليه وعلى أخيه، وأبوهم ما أخذ عليهم الميثاق إلا بعد قولهم له: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ والحفظ يعني كمال الرعاية والإحاطة فما جاؤوا بحقيق ما واثقهم أبوهم عليه. فانظر إلى خبر القرآن الذي تستبين منه خفايا النفوس فإنه كلام الله الذي يحكم بالعدل ويعطي كلًا ما يستحق ولا يظلم مثقال ذرة. وليس هذا إلا في القرآن الذي يتنزّه عن العواطف والأهواء والميول ويحكم بالحق ويهدي إلى صراط مستقيم.

فإذ قد ذكرت ذلك فانظر إلى قول كبيرهم: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ فهو في هذا القول يثبت التهمة على أخيه ويوحي بأنه لا يشهد إلا بما علم ظاهر الأمر. ثم انظر إلى قوة ربطه إذ يقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ فإن فيه عذراً لهم عند أبيهم عن قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فهو يعلِّمهم كيف يقولون لأبيهم إنا كنا له حافظين على ظاهر الأمر ولسنا حافظين له على الغيب الذي قُدِّر أنه كان فيه من السارقين. وفي هذا ميل منه لإخوته، وإعانة لهم وعطف منه عليهم. ثم انظر إلى زيادة الحجة التي لقنهم إياها في قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي إن كنت في شك من قولنا فابعث إلى أهل القرية من يسأل عن صحة هذا الأمر واسأل القافلة التي كنا فيها فنحن واثقون مما سيقوله لك عنا هؤلاء وهؤلاء لأننا صادقون. فمن هاهنا افهم طبيعة ذلك الإنسان فقد كان فيه خير كثير وشر قليل، وفيه دهاء عجيب وفيه ميل لإخوته، نعلم ذلك من إعانته لهم بأكثر مما أعان به يوسف وأخاه. وقد أعطانا القرآن صورة مبينة عنه غير تلك الصورة المهزوزة التي

جاءت في رواية التوراة المفتراة التي جعلته يهوذا وجعلته يعبد نفسه وأباه ليوسف وهو لا يعرفه فهذا فرق مبين.

ثم انظر إلى التأكيد في أمره لهم أن يقولوا لأبيهم: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ وزن بينها وبين قولهم له في شأن يوسف لما قالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٖ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ تخرج من ذلك بفرقان ما تعلم من قوة قول الواثق وضعف قول الكاذب وتشهد فيها قوة ربط ذلك القائل المذكر ما كان قال هو وإخوته لأبيهم من قبل ثم تشهد فيها أيضاً استمرار اتفاق القرآن في جعل كل قول في موضعه دون أن يشغله شأن عن شأن. فهو لم يغب عنه أبداً قولهم في أول السورة: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ وهو لم يغب عنه أبداً أن يؤكد القول في موضع ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فكأن الذي بين الكلمتين لم يكن إلا حرفاً واحداً. وقد علمت ما بينهما من سياق فيه أحداث كثيرة وزمن طويل. فإذا شهدت ذلك وإنك تشهده علمت عجز الخلق عن مثل هذا الربط المعجز وعلمت أن هذا القرآن هو من عند الرحمٰن الذي لا يشغله شأن عن شأن وفي هذا فرقان حق مبين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ انظر إلى صبر ذلك الرجل المبارَك الذي جعله الله أحد من اصطفاهم على العالمين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ وانظر هنا إلى حرف «بل» وهو للعدول والإضراب بعد الإيجاب. والمعنى أنه بعدما استمع إليهم أضرب عن سياق قصتهم إبطالاً منه لفحواها. وفحواها أن ابنه سرق ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ

أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي سولت لكم أن ابني سرق وما سرق وفي هذا أيضاً شاهد لبراءة يوسف مما اتهموه به ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ والصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه للبشر ولا اعتراض فيه على القدر وهو نفس القول الذي قاله لهم لما جاؤوه بأن يوسف أكله الذئب ولكنه هناك استعان بالله على ما يصفون. وهنا لجأ إلى رجاء الله فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي بأبنائه الثلاثة الذين كانوا في مصر. إنه هو العليم بما يعمل الحكيم فيما يبلو ويقضي ويقدر.

وانظر هنا إلى مناسبة النتيجة بين القولين فإنه في الأولى قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ فأعانه الله وصبّره على فراق يوسف دهراً طويلًا من السنين. ثم قال في الثانية: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فقرب الفرج فافقه هذا واعرف كيف تقول عند البلاء ولن تعرف إلا أن يعرفك الله. ولن توفق إلا أن يوفقك الله، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ واعلم أن هذه الآية من دلائل ما يسمى اليوم بالإعجاز العلمي. وفيها حجة على الأطباء في هذا العصر إذ اكتشفوا اليوم أن الحزن الشديد المكظوم الذي يكظمه صاحبه على مرور الأيام، فإنه يحدث في النفس حالًا يقوى بها الضغط على العينين فيسبب للحزين المكظوم داء المياه الزرقاء في عينيه. فعند ذلك يزول صفاء القرنية، وينطفىء البريق، ويضعف البصر قليلًا قليلًا حتى يزول فتغدو العين بيضاء. فهذا إعجاز في سبق علمي مبين. جاء به النبي الأمي الأمين ﷺ قبل اكتشاف الأطباء المعاصرين بألف وأربع مائة من السنين. فاحفظ هذا ولا تغفله.. ثم عد إلى قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عن بنيه ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ انظر إلى هذا النداء وانظر إلى المنادى به فإنه ينادي به الأسف إذ يقول: تعال يا أسفي على يوسف فانظر إلى هذه الصورة الوصفية كيف نفخت روح الحياة في

الأسف وجعلته كشخص حي ينادى فيجيء. كأنما كان يعقوب قد خبأه أو جعله في موضع لا يخرج منه إلا بنداء. ثم الآن أعرض عن تسعة من بنيه ونادى ذلك الشخص المخبوء المنتظَر الذي هو الأسف على يوسف فلبّاه إذ جاءه مسرعاً وتداخل في نفسه إذ ما أن قال ذلك حتى ابيضّت عيناه من الحزنِ فهو كظيم. فانظر كيف تحضر كلمات القرآن الصور وتحيي المعاني وتضرب الأمثال. فهذا فرقان مبين.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ انظر إلى هذا القول منهم لأبيهم، فهم وإن كانوا لا يزالون ذكر يوسف يبغضون. فإن إشفاقهم على أبيهم أن يكون حرضاً والحرض هو المرض الشديد.. أو يكون من الهالكين غطى هنا على بغضهم ليوسف.. فاربط هذا بما كنا استنبطناه من قبل لما دخلوا على يوسف أول مرة إذ قلنا إنه لم يعرفهم على نفسه رحمة بهم حتى يتهيأوا لعشرته فانظر إلى تصريف قدر الله كيف أوصل أباهم إلى حال تساعدهم على التهيؤ للتعرف على يوسف. ألا فاقرأ ما بعدها: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ انظر بالله عليك إلى هاتين الآيتين هل بين انتهاء الأولى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وبين ابتداء الثاني: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ هل بينهما من كلام؟ كلا والله ما بينهما حرف من كلام فقد شكا نبي الله بثّه وحزنه إلى الله. فأعلمه الله بما أمر به نبيه وابتدأ بذكر يوسف قبل أخيه فما أن سمعوا الأمر من فيه حتى انطلقوا طائعين. فانظر إلى هذا الإعجاز الذي يعيد أرواحنا عبر الزمن إلى عصر النبوة الأولى حيث نتراءى فيه كيفية وحي الله إلى عبده يعقوب. فأين هذا القول المبين من قول توراة المفترين التي جعلت يعقوب من اليائسين وجعلت يوسف من المجانين وجعلت سبب اجتماعهما فقط بنيامين. ولم تذكر عن أحدهما اتصالاً برب العالمين. فهذا فرقان مبين.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)﴾ انظر إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ واربط بينه وبين قوله تعالى عن المرتين السابقتين اللتين كانوا قد دخلوا فيهما على يوسف وهما قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ ففي تلكما المرتين جاء بذكر يوسف لاحتياج ذهن السامع إلى الربط أما هنا وقد شدّ القَصَص كل سامع وقارىء وجعل الآذان تتجه إلى يوسف فلا حاجة للنفوس هنا إلى ذكر اسم يوسف إذ جذب القَصَص النفوس جذباً جعلها لا يخطر لها على بال أن تسمع هاهنا عن غير يوسف فاكتفى عن ذكر اسم يوسف بضميره.. وانظر إلى الأولى ففيها مظهر ومضمر وفي الثانية مظهر فقط وفي الثالثة فقط مضمر.. فافقه هذا ثم عد إلى الآية حيث تعلم أنهم جاؤوا ببضاعة مزجاة أي رديئة ناقصة لا يقبلها أحد فاربط بين هذا وبين ما كنا رددنا به على النص اليهودي الذي جعلهم يجيئون بهدية ذات أنواع وإنما ذكرتك بهذا لتبقى على بصيرة من أكاذيب نصوصهم. وقد كنت وعدتك أن أمر بك على بعض المحطات التي اختصرت لك معناها من توراتهم فمنها وهو يناسب ما نحن فيه قولهم في الإصحاح السادس والأربعين: «وحمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم وأولادهم ونساءهم في العجلات التي أرسل فرعون لحمله وأخذوا مواشيهم ومقتناهم الذي اقتنوا في أرض كنعان» فأعرض عن مقتناهم وعن عجلات فرعون التي أُرسلت إليهم وأقبل على مواشيهم فإن النص لم يرضَ أن يجعلها ماشية واحدة بل جعلها مواشي وهم جعلوها بقراً وغنماً كما في الإصحاح الذي قبل هذا. فليت شعري كيف كانت ترعى تلك المواشي من البقر والغنم في أرض أتلفها الجوع؟ فهم هكذا يجعلون الأرض تصير كما مر معك من قولهم. فلا مخرج لهم إلا أن يقولوا: إنهم كانوا يعلفونها مما يشترون من مصر. فعند ذلك يقال لهم: كيف كانت تكفي أحمال عشرة حمير وكذلك جعلوها

حميراً لعلف تلك المواشي ثم لإطعام بني يعقوب الذين جعلتم عددهم مع أبنائهم ستاً وستين نفساً هذا ما عدا نساء بني يعقوب كما يقول نصكم الكذوب. أضف إلى ذلك الحمير العشرة التي تسافر أياماً طويلة في أرض أتلفها الجوع مما يعني أنها كانت تعلف من أحمالها في السفر. فلهذا نكذبهم في جعلهم لأبناء يعقوب مواشي. وما نكذبهم بقولنا ولا بما استخرجناه من قياس، بل ما نكذبهم إلا بالحق المبين الذي بيّن لنا أنهم جاؤوا إلى يوسف كالشحّاذين بل هم كانوا كذلك إذ يقولون: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ فلو كان لهم مواشي من بقر وغنم فلن يقولوا مثل هذا القول لا سيما وهم أبناء نبي.. فهذا فرقان مبين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ **قلت**: هذه الآية تبين ما كنا قد استنبطناه من قبل من أنهم كانوا يؤذون بنيامين. وفي قول يوسف لهم: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ تبيان لزوال حال جهلهم وفي هذا اتفاق مع ما استنبطناه من قبل من أنهم كانوا يؤهلون لحال أحسن مما كانوا فيها. وفي هذه الآية تحقيق وعد الله له بأنهم سينبئهم وهم لا يشعرون. فقد نبأهم والله، وقامت حجة الله، وصدق وعد الله، والله لا يخلف وعده وهو أوفى الواعدين.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ انظر حالهم بعد أن نبأهم وهم يرون أخاه قربه وهو يشير إليه ﴿وَهَٰذَآ أَخِى ۖ﴾ بعد قوله: ﴿أَنَاْ يُوسُفُ﴾ إذ هم يستفهمون ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ﴾ وفي هذا زيادة تأكيد على أنهم كانوا لا يشعرون. ﴿قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ﴾ أي أنا المظلوم الملقى في الجب ظلماً ﴿وَهَٰذَآ أَخِى ۖ﴾ ألا فانظروا حالنا ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وانظر هنا إلى قوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ﴾ أي أعطانا ما نحن فيه فضلاً منه بلا سبب نستحق به ذلك. ففي هذا معنى الشكر الحق لله رب

العالمين. فإن العبد مهما اتقى وصبر فإنه لن يتقي ويصبر إلا بحول الله وقوة الله وفضل الله. ثم إن هذا القول نفسه يتوجه بحيث يمكن أن يدخل فيه أخاه في هذا المن وليس أخوه مثله على أي حال لَم يتقِ تقواه ولم يصبر صبره. فانظر كيف أدخل معه أخاه جبراً لقلبه وتطييباً لنفسه. ثم كان قوله التالي لهذا متوجهاً إلى معنى ما كان هو فيه من تقوى وصبر أجر عليهما وإلى معنى بيان عام لكل من اتقى وصُبر وفيه تفسير لمعنى الإحسان وتفصيل فالمحسنون هم المتقون الصابرون.

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾

انظر هنا إلى قَسَم إخوة يوسف. فقد تكرر قَسَمهم بالتاء وستجد أنهم لا يُقسمون إلا بتاء القَسَم وذلك في كل موضع من السورة فيه يُقسمون. فإذا ذهبتَ تبحث عن سر ذلك وجدتَ أن تاء القَسَم لا تدخل إلا على اسم الجلالة فإنه لا يقال تالرحمٰن ولا تالرحيم ولا تالملك بل لا يقال إلا تالله. وإذاً كانوا لا يُقسمون إلا باسم الله الذي هو أعظم الأسماء.. وهذا يعني أنهم كانوا يأتون بأعظم قَسَم. ثم إن القَسَم بالتاء لا يكون إلا على معنى التعجب وهذا يعني أنهم كانوا لا يُقسمون إلا على حال تعجب منهم من الأمر الذي أقسموا عليه. ألا فارجع إلى مواضع إقسامهم تجدها كلها كذلك.. فهم لمّا أقسموا للمؤذن اللاحق بالعير ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ كانوا متعجبين من أن يُتهموا بذلك وهم لما أقسموا لأبيهم ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ كانوا متعجبين من إدامة ذكره ليوسف الذي كان لا يدنو به إلا إلى حرض أو هلاك. وهم لما أقسموا: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ كانوا متعجبين من قول يعقوب: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ وكذلك هم في هذه الآية لما أقسموا لأخيهم: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ كانوا متعجبين كيف نال أخوهم فضلًا من دونهم وصار من الملوك. فانظر إلى إعجاز حرف القَسَم في القرآن كيف يحيي لنا الصور ويبين لنا النفوس فهذا فرقان مبين. ثم ها أنت الآن

وقد صرتَ ترى العجب في وجوههم لدى كل موضع كانوا يُقسمون فيه وإذ هم كذلك فهذا يدل على جهلهم بحكمة الله وأنه يختار من يشاء وإذ علم يوسف ذلك من حالهم فقد رحمهم وأشفق عليهم وناسب أعظم مناسبة أن يقول لهم ما جاء بعد ذلك: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ أي لا توبيخ ولا تعيير ولا لوم اليوم ثم أتبع هذا بكلام يتضمن معنى الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة وفي هذا مقام من أعظم مقامات العفو والكرم في الناس أجمعين.

ثم انظر إلى لطفه بعد ذلك فكأنه لئلا يُشعرهم بحرج موقفهم وذلّة فعلهم أسرع بأن شغلهم بأمر آخر. إذ قال: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ وفي هذا معجزة له عليهم يزيدون بها له حباً ووئاماً. وقد يكون هو ذلك القميص الذي قُدَّ من دُبُر. قد جعل الله فيه بركة أن كان قميص طاعة وقد يكون قميصاً آخر وأياً ما كان فهو من معجزات يوسف عليه السلام. وليس في التوراة ذرّة من مثل ذلك. فهذا فرقان مبين.

بل في النص اليهودي عندهم أن يعقوب رأى الله في رؤيا وأنه سبحانه عما يفترون قال له فيها: «يعقوب.. يعقوب.. كرر اسمه مرتين فقال ها أنذا فقال الله له: أنا الله إله أبيك لا تخف من النزول إلى مصر لأني أجعلك أمة عظيمة هناك أنا أنزل معك إلى مصر وأنا أُصعدك أيضاً ويضع يوسف يده على عينيك» وانظر إلى جعلهم أن الله يكرر اسم يعقوب وإنما يكرر القول من لا يُسْمعُ من يخاطب فيحتاج أن يكرر ليسمع وحاشا للّه من ذلك فقد قال تعالى في القرآن المبين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ وهذا فرقان مبين. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ فالذي يكوّنُ المعدوم بقول كن فيكون ألا يسمع عبده من أول مرة فقاتل الله اليهود ما أجهلهم بصفات الله. وما أجرأهم بالافتراء عليه.

ثم إنا نكذبهم بدعوى قولهم عن الله أنه قال ليعقوب: «ويضع يوسف يده على عينيك» فقد أعلمنا الله غير ذلك في القرآن المبين.

ثم إننا أيضاً نصفع وجوههم في افترائهم هذا بنص كتابهم فإنهم بعدما يذكرون هذا الافتراء على الله وعلى يعقوب لا يأتون على ذكره مرة أخرى حيث كان عليهم أن يُظهروا صدق ما جعلوه من وعد بتحقيق فلم يفعلوا. فكأن الذي افترى هذه الرؤيا في هذا الموضع وهو في أول الإصحاح السادس والأربعين نسي أن يثبتها في موضع اللقاء بين يوسف وأبيه وهو في آخر الإصحاح نفسه قبل منتهاه. إذ يقول عند لقاء يوسف وأبيه: «فشدّ يوسف مركبته وصعد لاستقبال إسرائيل أبيه إلى جاسان ولما ظهر له وقع على عنقه وبكى على عنقه زماناً فقال إسرائيل ليوسف أموت الآن بعدما رأيت وجهك أنك حي بعد» فانظر فما أخبر في هذا النص ولا في الذي بعده ولا في الكتاب كله ما كان يجب عليه أن يخبره من إثبات كذبته في أن يضع يوسف يده على عيني أبيه فها هو كتابهم يكذب بعضه بعضاً وينقض بعضه بعضاً. وفي هذا برهان عليهم من أنفهسم وفي هذا حجة لنا عليهم وفرقان مبين.

وانظر إلى مناسبة القميص في القرآن فقد كان ليعقوب بدء الأحزان.. وها هو بدء زوالها الآن.. أوَلم يقل لما ابتلي: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ بلى والله وكذلك كان.

فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان. فانظر إلى قدر الرحمٰن كيف يصرف الأكوان فهذا فرقان مبين.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ لما فصلت العير أي لما خرجت من مصر واتخذت طريقها شطر الشام إلى فلسطين فحينذاك شمّ يعقوب ريح ولده فقال هذا القول لمن كان معه من أهله. إما أن يكون بعض بنيه بقي معه وإما قاله لأبناء بنيه أو نسائهم

أو يكون قاله ثم جاء بنوه فأخبروهم بقوله فقالوا: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أو يكون هو قد أعلمهم بعد مجيئهم بأنه وجد ريح يوسف من يوم كذا في وقت كذا وهو الوقت الذي فصلت فيه العير. وانظر إلى الحكمة والعدل في كل من هذا التفسير إن كان. فإنه إن كان قال ذلك لأبناء بنيه أو نسائهم فردُّوا عليه به فإنه في النهاية يكون من قول بنيه لأنه لن يجترىء الحفَدَة والنساء عليه بمثل هذا القول لو لم يكن أبناؤه تعوَّدوا أن يجترئوا عليه أمامهم وأن يفندوه. وإذاً فحق هذا القول أن يُضاف إلى الأبناء المسؤولين لا إلى الحَفَدَة والنساء التابعين المقلِّدين. فانظر إلى عدل الكلمات الإلهية في الكتاب المبين.

وقوله: ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي لولا أن تسفهوا قولي وتتهموني بالخرف والجنون.

ومعنى قولهم: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي إنك لا تزال على حالك الذي كنتَ عليه في الماضي من حب يوسف وانتظار عودته. وأما وجدان يعقوب عليه السلام ريح يوسف فذلك من معجزات نبوته التي أكرمه الله بها إذ أوصل إليه ريح يوسف من مكان بعيد.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦)﴾.

اربط هنا بين قوله هذا إذ رُدَّ إليه بصره وبين قوله من قبل لما ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦)﴾ تجد فيهما إعجاز القرآن في إثبات صدق الصادق في موضع تحقيق صدقه. وتجد أيضاً أن النصر والظفر وإظهار الحجة عاقبة الصابرين. وهنا كان إخوة يوسف قد شُفُوا مما كانوا فيه إذ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)﴾ وانظر إلى تسويفه الاستغفار أن كان ذلك في النهار فأخره إلى الليل ذي

الأسحار حيث الوقت الأحسن للاستغفار كما في قوله تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ فانظر إلى هذا التوافق المبين في آيات الكتاب المبين. فإن قيل: وما أدراك أن ذلك كان نهاراً فأخره إلى الليل وكيف استنبطتَ ذلك؟ قلت والحمد لله على ذلك كثيراً: أدرانيه قوله تعالى: ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ ولا يكون البصير بصيراً حقاً إلا في النهار والشاهد لهذا قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ وقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فهذا برهان مبين يشهد لتوافق آيات الكتاب المبين فالحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ قلت: انظر إلى البيان في إيواء أبويه إليه، أي أنزلهما معه في قصره ثم خاطب إخوته وأهاليهم بقوله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ وهذا خطاب مبارك داع كما تقول لمن دخل بيتك: ادخل على بركة الله. وهذا لإخوته وأهليهم دون أبويه. ولو كان خاطب أبويه بذلك لكان حق الخطاب أن يكون قبل الإيواء فمن هاهنا علمنا أنه ما خاطب بذلك إلا إخوته وأهاليهم وانظر إلى اتفاق المعنى في ذلك إذ أبواه لم يفارقهما الأمن إذ هما صارا في بيت ولدهما ولن يسأله الملك عن إيوائه أبويه وهما أبواه وهما شيخان كبيران. أما إخوته ونساؤهم وأبناؤهم فقد كانوا شيئاً جديداً على دولة الملك وعلى المجتمع المصري فهم يشكلون أمة من الناس سيزدادون في مصر وسيكون لهم تداخل في الأمة

المصرية وهم منفردون في جنسهم ودينهم ولغتهم. فلذلك هم يحتاجون إلى أن يبرك عليهم بأمان الله تبريكاً أن يجعلهم الله في مصر آمنين.

ثم انظر إلى هذا الاتفاق المعجز المتناسب في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ فقد علمنا منه أن أبويه سجدا له وهما على العرش وأن إخوته سجدوا له وهم على الأرض وقد كنا علمنا أن الرمز إلى أبويه في رؤياه كان الشمس والقمر وأن الرمز إلى إخوته كان الكواكب. ألا فاربط هذا بما تعلم من بقاء الشمس والقمر في السماء وتلك طبيعتهما التي طبعهما الله عليها حتى يأتي يوم القيامة. وأما الكواكب فهي من النجوم وطبيعة النجوم أن منها ما يهوي ويسقط ويقع فهذا اتفاق متناسب معجز في آيات الكتاب المبين. فقد حقت رؤيا يوسف في القرآن تماماً على أحسن ما يكون وأما توراة اليهود فلم تذكر شيئاً عن تأويل رؤيا يوسف بل لم تعد تخطر لها تلك الرؤيا على بال. فهذا فرقان مبين.

وانظر إلى سياق قول يوسف: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فانظر كيف بعد أن أثبت الرؤيا وأذكر بها أباه وقد مر معنا من قبل أنه قد أطاع أباه فكتم رؤياه عن إخوته فلا حاجة لإعادة ذلك.

ولكن انظر هنا زيادة في تأكيد ذلك، وانظر أيضاً حكمة يوسف إذ ذكر الرؤيا ولم يقف عليها بل تجاوزها وكان حق الكلام هنا أن يظهر فيه الشكر للّه على أن جعل رؤياه حقاً. ولكن كأنه خشي أن يظن إخوته أنه يتفضّل عليهم إذ لن يفهموا إلا أنهم سجدوا له. إذ لا يعرفون بالرؤيا فكان أن أسمعهم ما تطيق عقولهم وإذ هو لا يستطيع إلا أن يشكر الله على تحقيق الرؤيا فقد جعل الشكر للّه على الرؤيا

معطوفاً متضمناً في سياق قوله إذ قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ فهو في قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾ يعطف على إحسان مضمر مقدم وهو أن جعل ربه رؤياه حقاً. فانظر إلى هذه الحِكَم وتعلم كيف تشكر الله على النعم بين كل الأنواع والأمم. ثم إنه في قوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أدخلَ إخوته في سياق القول الذي معناه الحمد للّه. إذ تعلق كل ذلك بقوله عن ربه: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾ ثم انظر كيف أغفل ذنب إخوته وأحاله على الشيطان تكرماً منه عليهم وتوافقاً لما كان وعدهم به من أنه لا تثريب عليهم. وإنه لفي تكرُّمه عليهم وفي إحالته الذنب على الشيطان إنه في كل ذلك محق صادق وكذلك المرسَلون لا يقولون إلا حقاً. ألا فاربط هذا بما كان قال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فهم ما كادوه إلا بوسوسة الشيطان وإغرائه فانظر إلى هذا التوافق تلو التوافق، توافق التكرم مع الصدق في القول مع واقع الحال مع أصل السبب. ثم انظر إلى تواضعه لإخوته إذ جعل نفسه قسيماً لهم في نزغ الشيطان بينه وبينهم. فإن قيل: فأين صدق القول هنا؟ قلنا: إن صدقه في نفس وجود يوسف فلولا وجود يوسف مع إخوته لما نزغ الشيطان بينه وبينهم فهو نزل في تواضعه لهم إلى اعتبار أن وجوده كان سبباً لنزغ الشيطان لهم وهذا من هذا الوجه حق مبين فإنه لولا وجود الكنز لما جاء اللصوص. وهو والله قد تواضع لإخوته غاية التواضع أن كان ملكاً وكانوا سوَقة. فإن قيل: فما يمنع أن يكون قد خالف أمر أبيه لما نهاه أن يقص رؤياه على إخوته فقصها عليهم؟ قلت: ما كان من ذلك شيء قط ومن تدبّر سورة يوسف كلها علم قلّة تدبُّر من نسب يوسف إلى شيء من المعاصي في المواضع التي نُسبت إليه فيها المعاصي لهذا القول أو كقولهم إنه همّ بالمرأة وقعد بين شُعَبِها الأربع أو قولهم إنه كان المراد بقوله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أو سوى ذلك مما نعلم بيقين أن يوسف كان بريئاً منه كما كان الذئب بريئاً من دمه.

وبيان ذلك أن تعلم أن الله لم يذكر ليوسف استغفاراً من ذنب وذلك في كل سياق السورة مما نعلم منه أنه لم يكن من يوسف ما يدعوه إلى الاستغفار في كل ما جاء عنه في سياق السورة. ومَن تدبَّر القرآن علم أنه ذكر استغفار نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم وهم أفضل من يوسف وإنما استغفر أولئك صلوات الله عليهم لأمور كانت منهم احتاجوا معها إلى الاستغفار وهي في مواضعها من القرآن الكريم. فلو كان من يوسف شيء من الذنب لأعقبه استغفار منه. وإذ لم يذكر الله لنا ذلك فقد علمنا براءته من كل ما يظن به الذين لا يتدبرون القول. فإن قيل: فهل أنت تنزه يوسف عن الذنب؟ **قلت**: حاشا أن أنزهه عن الصغائر بعدما ثبتت لمن هم أفضل منه. ولكن أقول فقط: إن يوسف لم يُذنب أي ذنب في كل ما قصّه الله علينا من نبئه في السورة التي سُميت باسمه ولو كان منه ذنب لتبعه استغفار. فهذا قول مبين. فافقه هذا ثم عد إلى الآية وانظر إلى توصله فيما جاء به من جملة الصلة إلى شهود قدر الله الذي بيده كل مقدَّر مقدور. وإليه ترجع الأمور. إذ هو يشهد فيه لطف الله الذي لطف به وبأبويه وإخوته وبأهل مصر ثم بأهل الأرض أجمعين أن جعله سبب خير ورحمة لهم فضلاً منه سبحانه وهو اللطيف بعباده العليم بأحوالهم، الحكيم بما يقدر عليهم من أمور.

ثم انظر كيف لما أن وصل من القول إلى ذلك فشُغل بذكر الله عن أبويه وعن إخوته وعن الخلق أجمعين إذ هو يتوجه بكليته إلى الله يعلن عبوديته له وشكره له على ما آتاه من الملك والتأويل ويشهد أن لا إله إلا هو الله وحده لا شريك له وأنه هو فاطر السماوات والأرض لا سواه. وأنه هو وليه في الدنيا والآخرة لا سواه. وأنه إياه يسأل أن يتوفاه مسلماً وأن يُلحقه بالصالحين لا سواه.. فهذه آيات الكتاب الحق المتوافق المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

فأين هذا البيان العظيم المبارَك المتفق الظاهر الغالب المهيمن من قول اليهود إخوة القرود أن يوسف اشترى بالطعام أموال المصريين

لفرعون ثم اشترى له أراضيهم ثم اشترى المصريين أنفسهم فجعلهم عبيداً لفرعون. ألا تباً ليهود ثم تباً لهم إلى اليوم الموعود. ثم الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه على أن بعث محمداً ﷺ فأنزل عليه هذا القرآن الذي برّأ به الأنبياء مما يفتريه عليهم أعداؤهم. فهذا فرقان مبين.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد هو من أخبار الغيب التي لم تكن أنت معهم فيها. فهذه حجة عليهم أننا أعلمناك بها. فهي آية تشهد بصدقك ومع ذلك مع أنها حجة بينة فإن أكثر الناس ولو حرصت على أن يؤمنوا فإنهم لن يؤمنوا بهذا القرآن مع أنك لا تسألهم عليه شيئاً من أجر ويتضمن المعنى تنزه القرآن عن أن يؤخذ عليه أجر في الدعوة به إلى الله. وانظر إلى قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فهو للعالمين وليس لواحد أو جماعة حتى يأخذوا عليه أجراً بل هو من رب العالمين ذكر للعالمين لمن شاء منهم أن يتعظ ويهتدي ويتقي ويكون من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ والمعنى أنهم لا يعتبرون بالآيات الكونية التي يديمون المرور عليها وإذ هم كذلك فلن يؤمنوا وفي هذا بيان من الله إلى أن المعدين للاهتداء يكونون منتبهين إلى الآيات التي يمرون عليها، ويدخل في معنى مرورهم هنا كونهم وعيشهم وأحوالهم واربط هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ واخرج من هذا الربط بكنز تفهم منه النفوس. فإذا يسرك الله إلى الدعوة إليه فانظر إلى أولئك الذين يعتبرون ويخشعون وإنك ستجد أكثرهم في الخوّافين والضعفاء والمساكين فهنالك وجد الأنبياء أتباعهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي أكثر الناس لا يؤمنون بالله إلا وهم مشركون أي يؤمنون بوجوده ويجعلون له أنداداً كاليهود والنصارى والمجوس وكأمثالهم من الفرق الضالة الذين يعبدون الأئمة والأولياء كذلك كل الذين يحبون غير الله كحب الله والذين يسألون غير الله، ويستعينون بغير الله، ويتوكلون على غير الله فكل أولئك وإن أظهروا الإسلام والإيمان فهم في حقيقتهم مشركون.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ أي أأمن أولئك المشركون وهم على شركهم أن يأتيهم من الله عذاب يغشاهم فلا يعودون فيه يبصرون أو يأتي يوم القيامة؟ وانظر إلى الاستفهام في الآية فإن فيه تهديداً. كذلك انظر إلى أنهم قد أمنوا من مجيء العذاب من شركائهم إذ علموا أن شركاءهم لا يملكون شيئاً كذلك أمنوا من شركائهم إذ سكت شركاؤهم ولم يهددوهم ولم يطلبوا منهم أن يوحدوهم وفي هذا برهان عظيم على أن الإله الحق يأبى أن يُشرَك به وعلى أنه لا يأبى أن يُشرَك به من كل وجه إلا الله فإذا ذهبتَ تفتش عن الذين ادعوا الربوبية أو ادعيت لهم فإنك ستجدهم يقبلون بأن يُشرَك بهم من وجوه كثيرة فانظر إلى عظمة هذا القرآن الذي هو كلام الله الحق المبين والذي يأبى كل الإباء أي شرك بالله رب العالمين. فهذا برهان مبارك مبين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي قل يا محمد هذه طريقي وهي أنه لا إله إلا الله. لا يعبد إلا الله، ولا يُستعان إلا بالله، ولا يسأل إلا الله، ولا يتبع أمره إلا شرع الله، ولا يبتغي رضاه إلا الله، ولا يعمل خالصاً لوجهه إلا الله، وإني في هذه الطريق على بصيرة من ربي. أي على حق ويقين ونور مبين، أنا وكل من اتبعني والجملة كلها حالية ومعناها أن هذه هي حالي وحال من يكون حقاً متبعاً لي وفي هذه الآية المبينة حجة على أهل الشيع والبدع والطرق

والحركات والأحزاب ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ مفعول مطلق أي وحالي وحال أتباعي أننا نسبح الله تسبيحاً مطلقاً عن كل ما يصفه به المشركون والكافرون والمبتدعون وعن كل وصف لا يليق به ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وإنني أنفي عن نفسي أن أكون من المشركين وهذا يعني براءته ﷺ من كل الأجناس والأنواع والملل والمذاهب والطرق والحركات والشيع والبدع فهو بريء منهم أجمعين وهو ﷺ من المؤمنين الموحدين الخالصين لله وهم منه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ في هذه الآية رد على من قال: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ وفيها تبيان أن سنّة الله في خلقه أن يبعث إليهم رسلًا من جنسهم طبيعتهم من طبيعتهم حتى يكونوا قدوة لهم يستطيعون أن يقتدوا بها. ثم بيّن سبحانه أن أولئك الرسل كانوا كلهم من أهل القرى وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ﴾ استفهام تقريري يقيم الحجة عليهم بما ينظرون بأعينهم من أحوال أهل القرى الذين كفروا بالله وكذبوا برسله. ثم ابتدأ القول في الآية نفسها وبلام الابتداء: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فانظر إلى هذه البلاغة العجيبة التي تناسب فيها الحديث عن الآخرة في نفس الآية التي كانت تتحدث عن الدنيا فقد والله وقفت بهم الآية عند عاقبة الذين من قبلهم. فأوقفت بذلك الدنيا وما فيها. فكأن الخلق كلهم قد ماتوا ثم ابتدأ الكلام بلام الابتداء ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ فكأنما قامت القيامة فأراهم دار الآخرة فقارنوا بينها وبين دار الدنيا التي أراهم عاقبتها فهو سبحانه يريهم في هذه الآية الدارتين معاً وها هم ينظرون ويقارنون.

ثم انظر بعد ذلك كيف ختم الآية بهذا القول الذي لا يستطيع أن يقوله إلا الذي جمع لهم في آية واحدة بين رؤية الدنيا والآخرة معاً

فقال سبحانه وهو أعظم القائلين: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فسبحان من أنزل هذه الآيات. سبحان الله رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ حتى حرف غاية، والمعنى حتى إذا انتهى أمر الرسل مع قومهم إلى حال يئسوا معها من إيمان قومم بهم وظنوا أنهم لن يجدوا من قومهم إلا تكذيبهم والكفر بهم ففي هذه الحال ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي ننجي الرسل ومن شاء الله أن يؤمن معهم ولا يرد عذابنا عن الكافرين والمشركين.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ أي لقد كان في قصص هؤلاء الذين قصصنا عليك قصصهم عبرة لأولي الألباب منكم.

وقوله تعالى: ﴿عِبْرَةٌ﴾ أي مثلًا يعتبر به أولو الألباب فيعبرون به إذا ابتلوا بمثل ذلك البلاء إلى الأحسن من العمل لأنهم قد شهدوا نتيجة عبور يعقوب ويوسف وبنيامين بالصبر والتقوى إلى أحسن العواقب ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي كان هذا القصص قصصاً حقاً وليس من جنس الأساطير والروايات المؤلفة التي يفتريها الناس. وفي هذا بيان أن المفتريات لا تحدث اعتباراً للناس. وأنه لا يعتبر إلا بالحق وفي هذا الاستنباط فرقان مبين ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي فيه تصديق لما كان قبله من الكتب التي أنزلها الله كالتوراة والزبور والإنجيل التي لم تحرف ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي كل شيء من حوادث هذه السورة جاء مفصلًا لا يحوج إلى استفهام وكذلك كل قصص القرآن فهو هنا على معنيين: خصوص وعموم. وفي إثبات هذا التفصيل في آخر السورة دليل لما ذكرناه من براءة يوسف إذ لو كان له ذنب لفصل لنا فهذا برهان مبين. قوله تعالى:

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي هذا القصص في هذه السورة وفي القرآن كله هو هدى ورحمة لمن يؤمنون.

وانظر كيف جاء بالهدى والرحمة على المصدر ثم انظر أيضاً كيف لم يقل لقوم يسلمون، بل قال: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ والمؤمنون هم المسلمون العاملون بأعمال الإيمان. ويؤمنون فعل مضارع يعني دوام العمل بأعمال الإيمان فهؤلاء يكون هذا القصص الذي هو في السورة وفي آيات هذا القرآن مصدر هدى ورحمة لهم هم به يهتدون ويرحمون.

فتلك آيات القرآن الكتاب الحق المبين.. ألا ولا تحسب أني أحطت بكتابي هذا بإعجاز تلك الآيات كلا والله فإني أحقر من ذلك وأصغر وأقل فإن آيات القرآن سماوات فوق هذي السماوات.

وهي سماوات ممتدة كل سماء منها تقود إلى سماء. وفي كل سماء منها جنة عرضها أعظم من عرض السماوات. وفي كل جنة من تلك الجنات كوثر حياة. ولا تحسبن أني بهذه الكلمات وَفَّيْتُ حقَّ الآيات.. لا والذي رفع السماوات بل إني قصرت عن حق وصفها كما تقصر النملة عن وصف الكائنات.. بل قد توفي النملة وصف الكائنات ولن أستطيع وفاء وصف الآيات. إذ النملة والكائنات تلتقيان في صفة الخلق آخر الأمر. فلو أُعطيت نملة دوام حياة ومقول كلمات وجولًا في الآفاق لأمكنها الإحاطة بالمخلوقات في نهاية النهايات أما الآيات فلو أعطيت أنا وأنت وأهل الأرض والسماوات أبدية الحياة وقدرة المدركات ونور النيرات وصارت لنا الأشجار أقلاماً والبحار مداداً والسماوات صفحات ثم دامت لنا تلك الأقلام والمِداد والصفحات في تجديد مستمر إلى ما لا نهايات. ثم اجتمعنا كلنا على أن نصف آيات هذا القرآن فإنا والله سنعجز جميعاً عن الإحاطة بوصف آيات هذا القرآن وما ذلك إلا لأن هذا القرآن كلام الله الذي لا تبلغه الغايات، ولا تحيط به الإحاطات، ولا تدركه الإدراكات، وتموت دون

بلوغ عزته الخيالات. فسبِّح بحمد ربك الذي أنزل هذا القرآن وصلِّ على محمد الذي أنزله الله عليه واختصّه به من دون العالمين ثم اختم بالحمد لله الحمد لله رب العالمين. كان الفراغ منه في يوم النحر.

العاشر من ذي الحجة ١٤١٨

في أبي سمراء من طرابلس الشام



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة